عالمية القرآن

(رسالة وحضارة)

د/ محمد خليل جيجك

فهرست المواضيع

تمهيد	١٦
١- ما التاريخانية وكيف ظهرت	٢٩
٢- تحرير محل النزاع بين العالميين والتاريخانيين	٤١
القسم الأول عالمية القرآن رسالة	٥٠
المبحث الأول شبهات التاريخانيين والإجابة عنها	٥٠
أ- مستندات التاريخانيين في رد عالمية القرآن	٥١
ب- تفنيد مزاعم التاريخانيين	٦٥
١- عربية القرآن،	٦٥
٢- تقيد القرآن بنسق البيئة العربية التي نزل القرآن فيها	٧٠
أ- تربية الجماعة الأولى	٨٧
ب- تعلق البعض بالتاريخ لا يقتضي تعلق الجميع	٩٢
ج- الانطلاق من الواقعيات أنفع في إصلاح النفوس وتهذيبها	٩٤
٣- ذكره للأنبياء المعروفين فيما بين النيل والفرات	١٠٠
٤- عدم إمكانية استيعاب النصوص المحدودة لحركة البشرية كلها	١٠٣
المبحث الثاني أدلة عالمية القرآن	١١٦

عالمية القرآن من الناحية المنطقية والاستدلالية ١١٦

١- الأدلة العقلية ١١٨

٢- الأدلة النقلية ١٢٨

أ- الكتاب ١٢٩

ب- السنة ١٦١

ج- الإجماع ١٦٨

القسم الثاني عالمية القرآن حضارة ١٧١

المبحث الأول عالمية القرآن من الناحية المضمونية ١٧٢

المبحث الثاني فطرية أحكام القرآن وأخلاقياته ١٧٦

المبحث الثالث أساليب القرآن ١٨٣

١- عموم الألفاظ والصيغ التي استعملها القرآن في باب الحجاج وعظمة المشاهد فيها ١٩١

٢- استغراق صيغ الصفات الإلهية وعموم الأفعال الربانية ١٩٣

٣- عظمة المدلولات في الأقسام والأمثال القرآنية ١٩٧

٤- إحاطة الإطار القرآني الذي رسمه عبر رسالاته واستدلالاته بالكون كله وسعته للدنيا والآخرة ١٩٩

٥- اختيار عموم الألفاظ والصيغ وإطلاقهما في الأحكام ٢٠٥

والأخلاقيات
المبحث الرابع اهتمامات القرآن الحضارية ٢١٠
١- اهتمام القرآن بالتفكير والعلم والمعرفة ٢١٤
٢- اهتمامه بصلاح الفرد ٢١٩
٣- الاهتمام بصلاح الأسرة ٢٣١
٤- الاهتمام بإصلاح المجتمع ٢٣٥
٥- الاهتمام بحماية الحقوق ورعاية الكرامات ٢٤٢
٦- الاهتمام بعمارة الأرض ٢٥١
٧- الاهتمام بنشر المعاني الإنسانية النبيلة وبث الفضائل السامية ٢٦١
٨- الاهتمام بالأمن والأمان العام والسلام التام ٢٧٣
خاتمة ٢٧٧
المراجع العربية ٢٨١
المراجع الأجنبية ٢٨٩

المؤلف في سطور

إنه محمد خليل بن سيد حسين ولد في قرية من قرى ماردين جنوب شرق آناضول تركيا حوالي عام ١٩٥٧ أخذ جزأ من العلوم الشرعية والعربية على والده الذي كان يدرِّس في المدارس الإسلامية الأهلية المبثوثة في مناطق الأكراد شرق وجنوب شرق آناضول تركيا وقرأ طرفا من هذه العلوم على ملا إبراهيم طوبراق أحد علماء الأكراد بديار بكر وأخذ الإجازة العلمية منه عام ١٩٧٤.

وحصل على معظم الشهادات الرسمية بصورة انتساب وتخرج من كلية الإلهيات بجامعة أرضروم عام ١٩٨٦ وحصل على الدكتوراه في التفسير في جامعة سلجوق بمدينة قونية عام ١٩٩٢؛ وعين أستاذا مساعدا في جامعة يوزنجي ييل بمدينة **وان** بشرق آناضول تركيا عام ١٩٩٣ وحصل على درجة الأستاذ المشارك عام ١٩٩٥؛ومنذ عام ١٩٩٩ لحد الآن يعمل كعضو هيئة تدريس متعاقد في قسم القرآن وعلومه بكلية أصول الدين من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

له إلى جانب العديد من المقالات والبحوث التي نشرت في المجلات والصحف المختلفة من المؤلفات ما يلي:

١- أضواء على سورة الملك ويليه بعض جوانب الضعف الإنساني في أربع من سورة العنكبوت طبع في إستانبول ١٩٩٢.

٢- ثراء المعنى في القرآن الكريم طبع في دار السلام بمصر ١٩٩٨.

٣- دلالة أسماء سور القرآن الكريم من منظور حضاري طبع بمؤسسة الرسالة ببيروت ١٤٢١/٢٠٠١

٤- رحمة الإسلام في القرآن قيد الطبع.

٥- عالمية القرآن رسالة وحضارة،

وله كتابان نشرا باللغة التركية:

١- دراسات علوم القرآن، في القرن العشرين،

٢- معادلة التعايش الاجتماعي بين الثقافات المختلفة

قصة الكتاب

إن فكرة هذا الكتاب الذي بين يديكم كانت في أول الأمر جزأ عن كتابنا **دلالة أسماء سور القرآن الكريم من منظور حضاري** الذي طبع عام ١٤٢١ من طرف مؤسسة الرسالة ببيروت حول استنباط نظرة القرآن الحضارية من خلال دلالة أسماء سوره. فكان موضوع عالمية القرآن المبحث الثاني منه باسم عالمية القرآن عقلا ونقلا لفظا ومعنى (رسالة وحضارة) من ص.١١٧ إلى ص. ١٥٩ ثم وسعنا فيه شيئا من التوسعة وبعثناه كمقال إلى مجلة البيان الصادرة بلندن كي ينشر قبل طبع الكتاب المذكور. فقررت نشره لكن مختصرا –بإذن منا– في العدد ١٥٥ السنة الخامسة عشر رجب ١٤٢١ أكتوبر ٢٠٠٠.

ثم كلما عالجنا الموضوع وجدناه محتاجا إلى البيان والتفصيل والتشعيب والتفريع أكثر فوسعنا فيه إلى أن وصل إلى هذا الشكل النهائي –علما منا أن هذا الكتيب أول بحث مستقل حرر في موضوع عالمية القرآن– بتوفيق الله الذي بنعمته تتم الصالحات فله الحمد على ما من وأنعم وله الشكر على ما أحسن وأكرم.

المؤلف

بســــــم الله الـــرّحمـــن الـــرّحيـــم

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إيـــاك نعبـــد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غــــير المغضوب عليهم ولا الضالين

بســــــم الله الـــرّحمـــن الرّحيـــم

قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخنـــاس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس.

إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليـــــه وسلموا تسليما.

اللهم إنا لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفســـك فلـــك الحمد والشكر حتى ترضاه؛ لك الحمد يا رب كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك؛

مولاي لك الحمد كله ولك الشكر كله وإليك يرجع الأمر كله ؛

ربنا لك الحمد حمدا كثيرا طيبا طاهرا زكيا مباركـــا فيـــه مـــلء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى أله وصحبه كمـــا صليت وسلمت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنـــك حميـــد مجيد.

وبعـــد :

فإن العصر الذي نحن فيه عصر التحـــولات الجذريـــة والتبـــدلات الأصولية والتغيرات الأساسية لا في القيم والســـلوكيات والأخلاقيـــات فقط بل وفي أكثر من ذلك في الكيان الثقافي والبنيان المعرفي والاتجاهـات التصورية والمبادئ الفكرية والنظرات العلميـــة والمقاربـــات الفلســـفية والممارسات السلوكية والسلوكيات الأخلاقية إلى جانب مـــا تعيشـــه إنسانية هذا العصر من ناحية من التزلزل البنيـــوي في عامـــة العقـــائد والدينيات مع الابتعاد عن الروح وخالقه والتروع إلى المادة وزخرفتـــها ومن ناحية أخرى ما تتمتع به من الترف والبـــذخ بمـــا تمتلكـــه مـــن الإمكانيات الكثيرة العظيمة والوسائل الضخمة الفخمة فســـبب ذلـــك للإنسان المعاصر أنه تجاه الحق بأنفه شمخ وفي وجهه غطـــرس وصـــرخ فغمط النعمة واستحق النقمة وكابر عن الحق فذهب في الضلالة كـــل مذهب وامتطى من الباطل كل مركب فجاء بأشد الإعصـــار في بـــاب الإنكار وجعل الجحود له شعارا والكفر له دثارا مما لم تعهده الأوائـــل وتشمئز منه الأواخر.

وأتى معه إلى جنب تلك التحولات العظيمة في القيـــم والمبـــادئ والتطورات الهائلة في ساحات العلم والمعرفـــة والتكنولوجيـــا وغيرهـــا بمشاكل فكرية وأزمات توجيهية واضطرابات عقدية كثيرة. ومن جـــراء

ذلك كان من أهم ما أصيب في هذا العصر بالقسط الأوفر من المشـاكل والبحرانات الناشئة من الانتقادات والاعتراضات الدين بعجره وبجـره (أي حقه وباطله): فأما تلك الأديان الباطلة التي لا تمـت إلى الحقيقـة بصلة فاستخفت أمـام أعاصـير شـبهات المعـاصرين وإشـكاليات الاجتماعيات الجديدة استخفاف الريش أمام الرياح العاصفة وذابت أمام لظاها ذوبان الجليد في يوم شديد الحر فلم تقاومها في نقير ولا قطمـير. فأما دوامها على الساحة فلم يكن إلا لمجرد كونها تشكل عنصرا ثقافيا أو ثقافة فلكلورية للقوم الذين ينتسبون إليها أو مهواة شيطانية يسـتهوي الشيطان بها الأنفس، مع أن البعض منـها حـذف بـين المحذوفـات الاجتماعية وألقي في مزابل التاريخ فصار عظاما نخـرة بـين عفونتـها ورطوبتها وبين أرجاسها وأنجاسها، لا تسمن ولا تغني من جوع.

وأما الدين الحق وهو الدين الإسلامي الحنيف الذي هو آخر الأديان الحقة وآخر رسالات الله إلى الإنسانية فاستطاع بما يحتوي عليه من تلـك البراهين الناصعة والأدلة القاطعة وبما يمتاز به من القابلية الظاهرة والطاقـة الساحرة وبما يتفرد به من القدرة المؤثرة والقوة المسخرة أن يقاوم مقاومة عظيمة ذلك الباطل الوافد إليه من الخارج الذي استقدمه بعض الأغـرار الغفلاء أو الملحدون الحمقاء من أبناء بلاده فرد عنه بحزم وحكمة كـل شبهة وتهمة وأزاح كل سوء وفتنة وغلبت العقولَ منطقيتُه السليمة عـن

كل باطل وخرافة وجلبت القلوب سلامته العقلية عن كـــل أســطورة وأكذوبة لأنه أسس من أول يوم جميع عنـــاصره الاعتقاديـــة ومبادئـــه الأخلاقية وقواعده الفقهية على أساس متين من المنطق الصريح الكـــامل والعقل السليم الناضج إلى جانب ما يتسم به من التوازن الكـــامل بـــين متطلبات الروح والجسم والتوائم التام بين مقتضيـــات المـــادة والمعـــنى فانبهرت العقول من كماله في المنطقية الرشيدة ودهشت الأبصار مـــن جماله في العقلية السديدة:

دعني ووصفي آيات له ظهرت * ظهور نار القرى ليلا على علم

فلم يسع عقلاء عصر العلم والمعرفة وفضلائه من أربـــاب العقـــول المستقيمة والفطر السليمة إلا أن ألقوا إليه مقاليد التســـليم والإذعـــان وخروا لعظمته العقلية ساجدين ولكماله المنطقي موقنين.

لها معان كموج البحر في مدد * وفوق جوهره في الحسن والقيم

فما تعد ولا تحصى عجائبها * ولا تسام على الإكثار بالسئم

ومن جراء جميع ذلك صار مثل أعدائه الذين يتربصون به الدوائـــر ويحاولون بكل ما أوتوا من قوة وجهد وبكل ما يمتلكونه من مكر ودهاء أن يختلسوا أو يطمسوا جل مكوناته المثلى ومقوماته العظمى في دامـــس الظلام والمسلمون نيام كمثل سارق فاجئه وضح النهار، فلم يدروا مـــاذا يفعلون تجاه تلك المنطقية والحكمة السائدتين على الإسلام فغلبت عليـهم

يفعلون تجاه تلك المنطقية والحكمة السائدتين على الإسلام فغلبت عليهم شقوقهم وكانوا قوما ضالين، واشتدت بذلك صولتهم عليه من كل صوب وأوب وخصيصا الحداثيين الوضعيين منهم وأذنابهم العملاء ممن يريدون أن يستأصلوا شأفة الدين بأجمعه عن كل المجتمعات الإسلامية، وعظم هجوم هؤلاء الخصوم على الإسلام وازداد إحنهم وعدائهم على أهله؛ وانتفشوا أمام الحق وانتفخوا؛ وإخفاء لصوت الحق صاخبوا وشاغبوا؛ وقالوا: « **لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون** » فأتوا كل يوم بباطل جديد وصالوا كل حين ببأس شديد وكلما خلوا عضوا عليه الأنامل من الغيظ وازدادت مع مضي الأيام مخططاهم ضد الحق وأهليه تطورا وتوسعا واشتدت مع مرور الأعوام استراتيجياهم ضد الإسلام وذويه دقة واستيعابا وتوسعت مكائدهم بأمة الحق إتقانا وإحكاما لأهم رأوا في الإسلام وكتابه مقاومة عنيفة تجاه أباطيلهم وصلابة عجيبة ضد أكاذيبهم ما كانوا يحسبون لها حسابها فهاجموا الإسلام مهاجمة شرسة وحاولوا النيل من عقائده وزلزلة كيانه في القلوب والصدور باختلاق الأكاذيب الشنيعة عليه مما هو منه براء. ولما رأوا أهم لو كانوا صرحاء نصحاء مع الحق المبين وأهله ما نالوا من آمالهم ومآربهم شيئا فبدؤوا ينافقون ويخادعون وأخذوا يواربون ويخاتلون فتستروا بحرية البحث المنصف والعلمية والموضوعية والحيدية اللاتي هم في موقفهم تجاه الإسلام أبعد خلق الله منها فناكروا الحق وكابروا وبكل

حيلة وريبة جاهروا. ولكن مع كل ذلك نقول لا ضير علينا إن شاء الله فالله هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون:

بشرى لنا معشر الإسلام إن لنا * من العناية ركنا غير منهدم

فعلى نبي الإسلام وكتابه وشرعته وتاريخه كم من شباك نصبوها وكم من أفخاخ وضعوها وكم من حيلة دبروها وكم من مكيدة بيتوها وكم من فرية افتروها وكم من سموم ناقعة دسوها وكم من أكاذيب اختلقوها ولكن في كل ذلك لم يجنوا من حصادهم إلا خنوعا وخسرانا ولم يفوزوا إلا خضوعا وهوانا ولم يربحوا من صفقتهم إلا ضياعا وحرمانا قاتلهم الله أنى يؤفكون فلو آتت جهودهم المشؤومة ثمارها لما بقي اليوم على الكوكب الأرضي من الإسلام إلا اسمه ولطمس في متاحف التاريخ تحت الغبار رسمه! والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون!

ومن جملة تلك الأباطيل التي في ظلام البيوت المغلقة حاكوها وخلف الأبواب المسدودة خاطوها وصار ينعق بها أجراؤهم وينهق بها عملاؤهم ما اختلقه المستشرقون[1] أولا عن غدر وكيد ثم تابعهم عليه – عن علم أو غير علم– بعض من المتتلمذين عليهم من أصحاب الرؤوس

(١) انظر يوسف القرضاوي، **المرجعية العليا للقرآن والسنة**، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت ١٤١٤/١٩٩٣، ص ١٩٣.

المأجورة والأدمغة المغسولة في مختلف البلاد الإسـلامية ضـد كتـاب الإسلام في الآونة الأخيرة وهو زعمهم أنه كتاب تاريخـاني بأحكامـه وخطابه حيث خاطب بأحكامه أو بجملة خطاباته عصرا محددا فقـط ثم درس عليه الزمن و لم يبق له في هذه الدنيا المتمدنة مفعول إجرائي لا مـن الناحية التشريعية ولا من الناحية الخطابية، انتهى دور خطابه وتشـريعه جميعا.

فكان لزاما على علماء المسلمين ومنوريهم وكتابهم ومثقفيـهم أن يتصدوا لرد هذا الاختلاق الذريع والافتراء الشنيع الـذي رده القـرآن بمتعدد آياته وغزير مضامينه وجزيل مفاهيمه وبديـع مبادئـه وجميـل تعاليمه، وحكيم رسالاته ويتحتم عليهم أن يردوه ردا علميـا أكاديميـا رصينا يقتنع به أرباب الخبرة والحكمة وينتفع به أصحـاب الرويـة و البصيرة كما سنذكر ذلك إن شاء الله تعالى فيما يلي.أردنا أن نتنـاول الموضوع حسب جهدنا دفعا لطرف من المسؤولية تجاه كتاب الله فـإن هذا المدخل خطير يتزلق فيه كثير من الناس وينبهر بتزاويقـه الخارجيـة ويفتتن بتزيينات واجهته الظاهرة فئة غير قليلة منهم إضافة إلى أنه يغتر به إلى جانب هؤلاء بعض غير قليل من المثقفين والمنورين أيضا. فـالضرورة الإيمانية تلح بسد هذه الثغرة التي طالما انتظر الأعداء سنوح الفرصة كـي يقتحموها، فولينا وجهنا شطر الموضوع نطل عليه أولا من بعيد ضمـن

كلمة في رسالة أو ما في مجلة من مقالة، لكن رأينـــا أن الأمــر جلـــل ويقتضي شد ساعد وجد جاهد ويتطلب كشفا عن ساق ورفعـــا عـــن باق، فدخلنا ببضاعتنا المزجاة في الموضوع في حناياه وزواياه واسـتقصينا قدر جهدنا خباياه وخفاياه ولم نأل جهدا. علما منا أن الأمر يقتضـــي جهدا جهيدا ورصدا عتيدا، لكن استأنسنا عبر مساعينا بالحكمة الشـائعة بين العامة: "مالا يدرك كله لا يترك كله" آملين أن يكون هذا العمـــل الافتتاحي في الموضوع حافزا لغيرنا كي يتدارك ما في الموضوع من نقص وخلل فإنه لا يخلو أي جهد بشري -مهما أتقن وأحكم- من قصـور أو فطور والكمال لله وحده:

من ذا الذي ما ساء قط * ومن له الحسنى فقط

ومن ذا الذي ترضي سجاياه كلها * كفى المرء نبلا أن تعد معائبه

وليس ذاك إلا جهد المقل.ولا أنسى الشكر الجزيل لزميلنا فضيلـــة الدكتور سعيد الفلاح عضو هيئة التدريس في جامعة الإمـــام بالريـــاض حيث قام مشكورا ومأجورا بمراجعة قسم كبير من الكتاب وفي البـــدء والختام أسأل الله القبول وأن يجعله في موازين أعمالي والله ولي كل توفيق وإنعام

محمد خليل جيجك

١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م

تمهيـــد :

إن قضية عالمية القرآن من أهم العوامل الديناميكية المحركة للجامعـــة الإسلامية إلى أن تحمل دعوة القرآن ورسالته للآخرين قديما وحديثا ومن أهم القضايا الحيوية في عقائد المسلمين التي ينبني عليه كثير من تصوراتهـم الدينية واتجاهاتهم الدنيوية التنظيمية والسياسية والحقوقيـــة في ماضيـــهم وحاضرهم ومستقبلهم والتي هي منطلقهم الوحيد في انفتاحهم إلى العـلم ساعين ومجدين لتوصيل رسالته إلى الآخرين حتى يفوزوا في ظل قيمـــها وتعاليمها بأسعد أنماط الحياة ويسعدوا في جوها بأفضل أنواع الكمالات الإنسانية كما أن عالمية القرآن من أعظم الأمور التي تبين عن أبعاد رؤيـة المسلمين المعرفية ونظرهم إلى الكون والإنسان والحياة فهي ليست قضيـة يمكن للمسلمين أن يتساهلوا فيها ويتغاضوا عنها وألا يهتموا بها كثـــيرا ويمروا عليها مرا عابرا فإن وجهة نظر الإسلام إلى الحياة مرتبطة بهـــا ولا ريب. وهذا ما جعل سلف الأمة الصالح يـــهرعون في إيصـــال تلـــك الرسالات القرآنية الخالدة إلى العالم جميعا بدون تخاذل وتجاهل.

إن هذه النظرة العالمية للقرآن أو عالمية نظرة القرآن تشد من جـــانب جميع امتدادات الجامعة الإسلامية بعضها ببعض وتجعل منـــها بكيانهـــا المتشعب المتفرع في عالم الكوكب الأرضي وجغرافيته بنيانا مرصوصـــا

يشد بعضه بعضا وتجعل منها وحدة سياسية قوية متماسكة تخضع القوى الأخرى لها كما تشد تلك الجامعة بالحياة بجميع أبعادها واتجاهاتها فتلون الحياة حسب ألوانها التعبدية، وتصوغها حسب صياغتها التوحيدية؛ تحتوي تلك الصياغة التوحيدية على جميع الأمور الجوهرية التي تتطلبها الحياة الإنسانية الكريمة الفاضلة؛ فنسقت تلك الصياغة التوحيدية مناهج الحياة الإنسانية صياغة جديدة طريفة احتوت على ميزات وسمات تتسم بالسمو والكرامة والعز والشهامة، أهم تلك الميزات الوسطية التي تزن الأمور بميزانها الفاضل الذي لا غلو فيه ولا شطط ولا اعتداء فيه ولا سقط ولا إفراط فيه ولا تفريط ولا إسراف فيه ولا تقتير؛ كما تشد شدا بليغا الحياة بمختلف مراحلها بالتوجيه القرآني المطلق لأن صلة القرآن بالكون والحياة والإنسان هي صلة المطلق الغير المحصور اللامتناهي بالمقيد المحصور المتناهي وهذه الميزة هي التي تجعل القرآن يتجاوز حدود الزمان والمكان والمستويات البشرية المحدودة. ثم إن عالميته من مقتضيات خاتميته ومن أهم أسرارها فلو لم يكن عالميا لم يكن خاتما وإذا لم يكن خاتما يلزم بطبيعة الحال أن تردف بنبوة أو نبوات أخرى لكن اللازم باطل فالملزوم مثله.

ولما لعالمية القرآن من الأهمية القصوى في منظوره هو أيضا تراه يبين ذلك بتكرار بالغ فيه إيقاع قوي وتأكيد شديد عبر نصوصه المبينة لا

ترى ذلك لغيره من الأوصاف القرآنية من **الهداية، والشفاء، والبيـــان، والنور، والرحمة**، فلم يذكر أحد من هذه الأوصاف القرآنيـــة بذلـــك التأكيد الشديد والإيقاع البالغ كما ذكر وصف عالميته بهمـــا؛ فلكـــون القضية من البداهة بمكان مكين نرى أن من فضول القول أن نقـــول إن تلك العالمية إنما هي باعتبار جميع رسالاته التي تهدي البشرية للـــتي هـــي أقوم لا في الجانب العقدي فقط بل في جميع ما أتى به القرآن من المبـادئ والقيم والأحكام والأخلاقيات وسائر الأصول والضوابط المتعلقة بتنظيـم الحياة؛ وفي هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هـــو إلـــه واحـــد وليذكر أولوا الألباب.

فلما لعالمية القرآن من هذه الأهمية الحيويـــة في مجـــالات العقيـــدة والتشريع والتنظيم والأخلاق والقيم الأخرى بحيث لا يمكن للمســـلمين أن يتنازلوا عنها أبدا مهما كان الأمر (لأن الله سبحانه لم يعطهم حـــق التنازل عنها أبدا لما بين من عالميته بإحكام وإصرار بالغين في كثير مـــن النصوص الصريحة الفصيحة) يتحتم على علماء المسلمين المعـــاصرين أن يبينوها ويذكروا وجهة الصواب فيها وينافحوا عنها بـــالحجج النقليـــة والبراهين العقلية والأدلة الناصعة والشواهد المقنعة لأنه قد خرج في هـــذا العصر أولا بين المستشرقين ثم ثانيا في الأوساط المسلمة-في مختلف بـــلاد العالم الإسلامي- من ينكرون عالمية القرآن بزعـــم تاريخانيتـــه -كمـــا

أسلفنا- مع أننا نحن معاشر المسلمين - سلفا وخلفا منذ أن أنـــزل الله هذا الكتاب إلى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها- نعتقـد جازما بلا ريب ولا شك اعتقادا هو جزء أساس من عقيدتنا الأصيلة ولا تصح عقيدتنا بدونه - انطلاقا من نصوص كثيرة وأدلة ناصعة وحجـج قاهرة وبراهين باهرة- أن القرآن كتاب الله الذي خاطب بـه البشـرية جمعاء لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميـد، وأنزله بحيث يكون صالحا لأن يقود البشرية ويسوسها سياســة فاضلـة رشيدة إلى يوم القيامة بلا تقيد بزمان دون زمان أو مكان دون مكان أو جنس دون جنس أو طبقة دون طبقة وقد أشرنا إلى ذلك ضمنا كمـا أن رسالة محمد عليه الصلاة والسلام أيضا ليست موجهة إلى شـعب دون شعب، ولا إلى بيئة دون أخرى، ولا للون دون لون، ولا لجنـس دون جنس، ولا لزمان دون زمان، إنما هي موجهة للنـاس جميعـا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [٢]، ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ ﴾ [٣]، ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوۡعِظَةٌ لِّلۡمُتَّقِينَ

(٢) البقرة ٢/٢١.

(٣) البقرة ٢/١٨٥.

﴾[4] بل إن الأمر يجيء إلى الرسول ليبلغ العمـــوم: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾[5] فبذلك تتضح عموميتـــها وعالميتها وتتجلى إنسانيتها هي الأخرى في بعثة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم للناس أجمعين.[6]

خاطب القرآن الناس جميعا بما يسعدهم في دنياهم وأخراهم وكلفهم من العقائد المقدسة بما يليق بعظمة الخالق العظيم وأمرهم من العبـــادات المعظمة بما يناسب جلال الفاطر الحكيم وما يجدر بقدسه وكبريائه وأتـــى لهم من نظم الحياة بما يرفع مستوى إنسانيتهم ويميزهم من غيرهم مـــن المعاني النبيلة والأحكام الرفيعة والأخلاق الفاضلـــة والتعـــاليم العاليـــة والمبادئ السامية التي يسمو بها بنو البشر –إذا طبقوها وعملـــوا بهـــا– روحا ونفسا ومادة ومعنى وفردا ومجتمعا. فالقرآن كما قـــال **الحـــارث المحاسبي** رحمه الله (ت ٢٤٣): "أنزله الله على عباده ليعرفهم به نفســـه، ويذكرهم به أياديه، وينبههم من رقدات الغافلين، ويحيي قلوبهم، وينـــور

(٤) آل عمران، ١٣٨/٣.

(٥) يونس، ١٠/ ١٠٨.

(٦) عبد الحكيم سرور، **إنسانية الإسلام**، مجلة الجديد- مصر، العدد ٢٦،فبراير ١٩٧٣،ص ٥٢.

به أبصارهم، ويشفي به الصدور، ويزيل جهلها، و ينفي شكوكها، ويغسل به دنسها وزيفها، ويوضح به سبيل الهدى، ويكشف به العمى والشبهات، ويزيل نوازع الشيطان ووساوس الصدور، ويغني به من فهمه، ويقربه من عقله، وينعم به من كرر تلاوته، ويرضى به عمن اتبعه... هو حبل الله المتين الذي لا انقطاع له من تمسك به نجا، ومن لها عنه عطب، ومن ابتغى في غيره ضل، ومن فهمه نطق بالحكم، وجرى لسانه بحسن الموعظة، وكان من العلماء بالله جل وعز."[٧]

وهو كما قلنا في كتابنا « **ثراء المعنى في القرآن الكريم** »: "إن هذا الفرقان الحكيم كتاب أنزله الله لسعادة البشر وهدايتهم إلى خيري الدنيا والآخرة، وهو رسالة جامعة للعالم أجمع، وتنعكس من رسالته أنوار الخير والهدى والفضيلة على جميع قطاعات البشر، ويحوي هذا الكتاب المجيد جميع ما للإنسان فيه خير وصلاح وبر وسلام على الصعيد الفردي أو الجماعي. وقد جمع بين أحضانه كل ما يتحتم لسعادة الفرد والمجتمع في جميع أطوار الحياة المتشابكة المتداخلة المتفاعلة".[٨]

---

(٧) الحارث بن.أسد المحاسبي، **فهم القرآن**، تحقيق حسين القوتلي، دار الكندي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢/١٩٨٢، ص ٣٠٦-٣٠٧.

(٨) محمد خليل جيجك، **ثراء المعنى في القرآن الكريم**، دار السلام، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤١٩/١٩٩٩، ص ٤٢.

ويتطور المجتمع المتكيف بالكيفية القرآنية علما ومعرفة وتفكيرا وفلسفة بفهمه إياه والعمل بما تحتوي عليه تلك المبادئ القرآنية من الديناميكية العظيمة والطاقات المحركة يتطور ويتقدم إلى آفاق شاسعة ويتجول في مجالات واسعة في كل مما ذكرنا. فهو وحده القادر على تقديم بديل حضاري متضمن لأفضل الأسس لأكرم حضارة عالمية ربانية إنسانية تنقذ البشرية البائسة مما منيت به من الحضارة الغربية التي لم تستطع أن تسعد الإنسان لا فردا ولا جماعة في سوى جوانب طفيفة مادية تلوكها أحناك المادة وتقيئها معدة الروح والمعنى واللهم إلا أفرادا قليلين جدا استهوت عليهم شهواتهم فاستلبت منهم مداركهم فصاروا مثل الأنعام والبهائم لا يتفكرون في شيء سوى جيوبهم وبطونهم وفروجهم ولا يسعدون إلا بما له صلة بهذا الثالوث الملوث فهذه الحضارة بدورها هذا لا تكفي وحدها في إسعاد البشر وليس ذلك بمستطاعها أبدا.

إن القرآن يتضمن بين دفتيه الرسالة الخاتمة بغالب كمياتها وأبعادها التي جاءت تعرض الإسلام في صورته النهائية الأخيرة ليكون دين البشرية كلها، ولتكون شريعته هي الموجهة لمسار الكون و للناس جميعا ولتهيمن على كل ما كان قبلها وتكون هي المرجع النهائي، ولتقيم منهج الله وفق تعاليم القرآن ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ

أَقْوَمُ ﴾[٩]. وستظل هذه الرسالة ترفد الكون كله بهذه الهداية لتدور حياة البشرية حول محورها استمدادا للتصور الاعتقادي والنظام الاجتماعي وآداب السلوك الفردي والجماعي حتى يرث الله الأرض ومن عليها لأنها الحق الباقي.[١٠]

انطلاقا مما سلف يبدو أن عالمية القرآن من أوسع القضايا القرآنية مساحة وتغطية ولكن لا يسعنا مع بضاعتنا المزجاة إلا إشارات خفيفة لطيفة إلى هذا الموضوع الهام لعل الله يقيد له في مستقبل الأيام من رجالات العلم النبغاء من يعطيه حقه.

ولكون القضية من البدهيات عند المسلمين بحيث لم يناقش فيها أحد عبر التاريخ الإسلامي كله (وكيف يجوز لهم المناقشة فيما نص القرآن فيه بتكرار كثير على الموضوع نصا ظاهرا محكما لا لبس ولا غموض فيه من أي جانب؟) نرى أن علماء الإسلام ما كتبوا في الموضوع ككتاب مستقل شيئا يعتد به سوى بعض تلك المعلومات التفسيرية التي كتبوها

---

(٩) الإسراء، ٩/١٧.

(١٠) أحمد محمد علي الإمام، **هيمنة القرآن وعالميته وخلوده**، **مجلة نهج الإسلام –سوريا**، العدد ٦٧–٦٨، ذو الحجة ١٤١٧، نيسان ١٩٩٧، ص ٥٤. ونشر مقال لي كان البذرة الأولى لهذا الكتاب باسم **عالمية القرآن** في مجلة **البيان** العدد ١٥٥ السنة الخامسة عشر رجب ١٤٢١ أكتوبر ٢٠٠٠ انظر ص ١٨–٢٥.

بمناسبة تفسير تلك الآيات التي تدل على عالمية القرآن. وتلك المعلومات التفسيرية كثيرة جدا. فما ترى أحدا من المفسرين إذا جاء تفسير تلك الآيات الدالة على عالمية القرآن إلا وأدلى فيها بدلوه قليلا أو كثيرا فمنهم من يسهب و يطنب ومنهم من يختصر و يقتصر. ومن غير ذلك ترى بعضا من الكتاب الأقدمين والمعاصرين يتطرق أيضا إلى الموضوع بين فينة وأخرى في ثنايا كتابه أو بحثه بمناسبة ذكر الرسالة الأحمدية أو الشريعة الإسلامية.

وأما ذلك البحث العلمي الأكاديمي المستقل في موضوع عالمية القرآن المشتمل على جميع أبعاد الموضوع وفلسفته وتحاليله اللفظية وملابساته المعنوية وتفاصيله الفلسفية ومنجزاته التاريخية والمتضمن لما على الموضوع من اعتراضات و انتقادات وما له من براهين و حجج فموضوع بكر ما دخلت فيه الأقلام بعد إلا قليلا. والداخلون فيه إنما يمرون على القضية مر عابر سبيل.

لم نطلع أثناء بحثنا في المكتبات وغيرها على ما يروي غليلنا ويشفي عليلنا من المؤلفات. ولم نجد في الموضوع سوى بعض المقالات القصيرة لبعض العلماء فقط: مقالة لمناع خليل القطان باسم « سمو الإسلام وعالميته » نشرت بالرياض في مجلة الدارة عدد ٣/شوال ١٣٩٨هـ/سبتمبر ١٩٧٨، ومقالة لأحمد محمد علي الإمام باسم « هيمنة القرآن وعالميته

وخلوده » نشرت بسوريا في مجلة نهج الإسلام عدد ٦٧-٦٨/ ذي الحجة ١٤١٧/نيسان ١٩٩٧ وعدد ٦٩ ربيع الأول/١٤١٨ تموز/١٩٩٧، ومقالة أخرى لأحمد عبد الرحيم الساير باسم « **عالمية الإسلام في القرآن والسنة** » نشرت بالرياض في مجلة الدفاع عدد ٩٣ شعبان ١٤١٤ وناول الموضوع مناولة عابرة **طه جابر العلواني** في كتيبه « **حاكمية القرآن** » من منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي.[١١]

وقد تناول **محمد أبو القاسم حاج حمد** موضوع عالمية الإسلام في كتاب له تحت اسم « **العالمية الإسلامية الثانية** » (طبع الطبعة الثانية بين منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي عام ١٤١٦/١٩٩٦ وقدم له طه جابر العلواني. الكتاب يقع في مجلدين تتجاوز صفحاتهما ألف صفحة).بما يدخل فيه عالمية القرآن لأنه طالما لم يكن القرآن عالميا فكيف يكون الإسلام عالميا فهما متلاصقان ومتلازمان دائما إن المؤلف ناول الموضوع من ناحية عالمية حضارة القرآن حيث يقول: "سيلد القرآن من جديد أمة تحمل إلى العالم نهجا حضاريا كونيا بديلا"[١٢]

---

(١١) أنظر طه جابر العلواني، **حاكمية القرآن**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤١٧/١٩٩٦، ص ٣٤-٣٨.

(١٢) أسامة خليل، مقال نشر باسم **العالمية الإسلامية الثانية نقد وآراء**، في العدد الأول من مجلة **التجديد** التي تخرجها الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا عام ١٤١٧/١٩٩٧، ص ١٤٩.

كما قدم في مؤتمر « **نحو فهم عصري للقرآن الكريم رسائل النور أنموذجا** » المؤتمر العالمي الرابع حول بديع الزمان سعيد النورسي المنعقد باستانبول في ٢٠-٢٢ **سبتمبر ١٩٩٨ ورقتان** عن عالمية القرآن إحداهما للأستاذ وهبة الزحيلي باسم « **عالمية القرآن الكريم وبديع الزمان النورسي** »[١٣] وثانيتهما لرشيد هايلاماز (باحث تركي) باسم « **عالمية القرآن الكريم قراءة في رسائل النور** »[١٤] ومن سوء الحظ أن هذه الأخيرة ترجمت إلى العربية ترجمة سيئة بحيث غطت على أصالة الموضوع وما يهدف إليه من عرض مضامين جدة جديرة بأناقة أسلوب ورشاقة بيان.

وأما تناولنا للموضوع فأكثر ما نقول عنه إنه جهد المقل ودعوة لمهرة العلماء إلى الكتابة في الموضوع بتدقيق جاد وبيان شامل على جميع أبعاد الموضوع، إن الأمر جد أكثر مما يظن، وأخذت الفتنة تغزونا في قعار بيوتنا وافتتن بها كثير من أبنائنا، ترى كثيرا من أصحاب المناصب الفخمة و كثيرا من أرباب العناوين المزخرفة والشارات المطرزة و كثيرا ممن لهم صوت في بلادهم وسائر البلاد يكررون مفتخرين ومتبجحين تلك المقولات المعارضة والآراء المضادة لعالمية القرآن على شتى الأصعدة

---

(١٣) انظر من كتاب المؤتمر الذي طبعته شركة سوزلر للنشر القاهرة، ص ٣٧٠-٣٨٨،

(١٤) انظر المصدر المذكور ص ٤٣٤-٤٥٧.

من غير خجل ولا وجل. ظانين أنهم بذلك سيكونون حداثيين، متمدنين، متطورين فالحذر الحذر! إن كثيرا من الأعداء يتحينون الفرص ويريدون أن يقتحموا على الإسلام من هذه الثغرة الخطرة!

نعم إن كان منطلق الذين يحومون حول قضية عالمية القرآن من أبناء البلاد العالم الإسلامي هو الإسلام فهذا المنطق -الذي أسلفناه آنفا- هو الذي تقضي به النصوص المتوافرة المتضافرة من الكتاب والسنة كما سنلقي عليك قولا ثقيلا منها؛ وإن كان منطلق هؤلاء الذين يظنون أنهم — بزعمهم تاريخانية القرآن —كشفوا الدنيا من جديد هو منطق الفلاسفة الغربيين ومن لف لفهم من إمعتهم المتفلسفين المسلمين فنقول إن تسعا وتسعين بالمائة من هؤلاء من الأعداء الألداء لشرعة الإسلام وكتابه ونبيه ومعلوم في شريعة القضاء عند أهل الحزم والحكمة أن العدو متهم في جميع ما يدعيه على خصمه ولا يقبل جميع ما يزعمه على علاته فما يدعونه من تلك الدعاوى العريضة تجاه القرآن إنما تكون ملزمة إذا كان النسيج المنطقي لأدلتها مما يقبله من ليس خصما منحازا لأي من الطرفين بل كان حيديا تاما موضوعيا بمعنى الكلمة ففي هذه النقطة يتوجه إليهم أن يأتوا ببينات مثبتة و حجج مقنعة لأن البينة على المدعي واليمين على من أنكر وأنى لهم ذلك سوى تفلسف عقلي لا يسمن ولا يغني من جوع!

وقبل عرض موضوع عالمية القرآن باعتبار مضمونه ومحتواه نـرى أن نقدم بكلمة مختصرة عن التاريخانية ونشأتها فهي التي ساقتنا إلى تنـــاول هذا الموضوع.

١- ما التاريخانية وكيف ظهرت

التاريخانية بمعناها المصطلح المراد حينما يطلق على القرآن أو غيره من النصوص عبارة عن الحكم على نص ما بأنه مقيد خطابه أو حكمه بفترة معينة من فترات التاريخ لا يتجاوزها حكما أو خطابا إلى غيرها من الفترات.

كما أن الكلمة ككونها مصطلحا فلسفيا لها معنى آخر له حدوده وأبعاده فهي بكيانها الفلسفي هذا بمعزل عن موضوعنا.

فحري بنا هنا أن نسلط الضوء بشيء من التفصيل على تاريخ هذا المصطلح الذي هو مسيحي غربي بعجره وبجره اكتمالا لجوانب الموضوع:

إن مصطلح التاريخانية قد ظهر أول ما ظهر في الغرب وتغذى بألبانه وترعرع بين أحضانه وحيكت فيه ثيابه على أبدانه، فهو باعتباره حدثا فكريا يحاول الإبانة عن أن بعض النصوص الدينية إنما خاطب بفحواه ومغزاه قطعة محددة من التاريخ فقط.

فقد طلعت التاريخانية أول ما طلعت في الأوساط المسيحية ككونها منهجا يحاول علماء النصارى أن يفسروا ويأولوا على ضوئها نصوص العهدين القديم والجديد حيث رأوا عن كثب أنه لا يمكن مماشاة كثير من

تلك النصوص مع معارف كثير من القرون المتأخرة، وعلى الخصوص المتطورة منها.

إن المعتقد/التفكير المسيحي الغربي تجاه الكتاب المقدس كان يحمل في بداية عهوده طابعا عقديا نصيا (دوغماتيئيا) لا يقبل أي تأويل وكانت تفاسير الكتاب المقدس متوجهة إلى هدف أن تصدق وجود شخصية المسيح في عيسى عليه السلام. وهذا الطابع العقدي (الدوغماتيئي) يتضمن في جل كيانه موت عيسى ثم حياته مرة أخرى وإنقاذه للبشرية. وكانت رخصة التفسير والتأويل (لنصوص الكتاب المقدس) لتلك الفترة في قبضة الكنيسة فقط و كان جميع ما تطور من مناهج التأويل متوجها إلى إثبات هذا المذهب الاعتقادي فقط.فكانت الجهود المصروفة لتفسير الكتاب المقدس إنما تجرى في دائرة مسدودة وهذا يدل على مدى خوف التفكير المسيحي الغربي من التاريخ. إن ألبرت شوايتزر (Albert Schweitzer) يقول في كتابه The Quest of The Historical Jesus "إن المسيحية التي تقبل إلهيات بولس تهرب من عيسى التاريخي وإن قبول عيسى ككونه شخصية تاريخية يظهر التناقضات العظيمة في إلاهياتها، وذلك سيشكل أكبر مشاكل العالم ولكن هذا الإطار العقدي النصي (الدوغماتيئي) للمسيحية بدأ ينكسر بما ظهر في القرن السادس عشر للميلاد من حركات التجدد.فأولا رفع سلطة الكنيسة المفروضة

على التفكير والتفسير فبدأ بعض الحركات الفكرية تظهر في مجال الإلهيات بما لاقت فيها الفكرة الديكارتية من القبول فمن ذا صارت مضامين الكتاب المقدس يبحث عنها ويتساءل عن مدى صدقها وواقعيتها على ضوء ما استجد وتطور من العقلانية وما تابعها من مختلف الاتجاهات.وأول عملية أجريت في هذا الصدد كان في القرن السادس عشر للميلاد من راهب فرنسي اسمه ريشارد سيمون. فشاهد القرن السادس عشر والسابع عشر للميلاد فترة تطور المناهج العقلية والتاريخانية- الانتقادية.فتابع هذه المسيرة في تطوير الموازين العقلية لتفسير البروتستانية الفلاسفة الإلهيون في جامعة هاله (Halle) التي تعرف بمركزيتها للإلهيات البروستانية وخصيصا من بين هؤلاء إن مشروع صالومو سملر التاريخاني الانتقادي الهرمنوطقي كان يضع اتجاها آخر نحو نصوص الكتاب المقدس واعتقادياته وذلك صار بداية لفترة جديدة في إلاهيات البروتستانية ولأول مرة كان سملر ينظر إلى الكتاب المقدس نظرة مؤرخ أديان ونظرة مؤرخ منتقد و حسب رأيه هو يلزم أن يبدأ بقراءة المتون (متون الكتاب المقدس) قراءة انتقادية فإن الهدف من الهرمنوطيقا[١٥] هو المحاولة للوصول إلى فهم المتن كما فهمه أول من ألفه

---

(١٥) الهرمنوطيقا: نزعة غربية نشأت في الغرب عبارة عن أصول جديدة ظهرت في الغرب كمحاولة لقراءة الآثار الفنية والنصوص الأدبية وخصيصا منها الدينية قراءة جديدة فهي=

(أو فهما مغايرا وأكثر صوابا) فإذا يلزم أن ينتقل من فـــهم النصـــوص المقدسة الفهم اللازمني (syncronic) أي الغير المختص بزمن ما (بـــأن يستمر مع استمرار الزمن) إلى الفهم الزمني (diachronic) المختص بزمن معين فقط[١٦] (زمن الترول مثلا) ... إلخ

فبذلك وضع اللبنات الأولى للتاريخانية التي هي من محاصيل الفكـــرة العقلانية الديكارتية التي وضعت في اتجاه معاكس للعقيدة المســـيحية[١٧] و هذه الاتجاهات من الهرمنوطيقا والتاريخانية والانتقادية إنمـــا تمخضـــت وتكونت بين مشاكل المسيحية وتم تحديد وتشكيل كيانها حسب التقـاليد المسيحية بالإضافة إلى أن جميع ما تحمله من ردود فعل إنما هي متجهة نحـــو

= بمترلة أصول التفسير للكتاب المقدس لكن الفارق هو أن في الهرمونطيقا أصـــولا يحـــاول القارئ من خلالها تفهم النص تفهما موافقا للظروف الراهنة وربما أكثر صوابا مـــن فـــهم واضعه الأول فهي إذا طبقت على تفسير القرآن يكون المفسر أكثر صوابا في فهمه من مترله الأعلى جل جلاله ؟! كما يتأتى للمفسر بها أن يفسر القرآن تفسيرا مغايرا لمراد الله سبحانه . Ali Bulaç Kuranı Okuma Biçimi olarak Hermonotik İslami Araştırmalar c.٩ sayı ١ ٢ ٣ ٤ ١٩٩٦.Ankara s.١١٥*١١٦.

فيا ترى هل يمكن تطبيق هذا المنهج الذي فيه خلط كبير وزيف كثير وانحراف ظاهر وتزوير واضح على تفسير القرآن سواء من ناحية الإصابة في التفسير وسواء من ناحية العقيدة وحتى قل من ناحية اللغة أيضا.

(١٦) Mehmed Paçacı **Kur'an ve Ben ne Kadar Tarihseliz İslami Araştırmalar** c. ٩. sayı ١.٢.٣.٤ sh. ١١٩-١٢٠.

(١٧) نفس المصدر السابق ص ١٢٠.

ضغوط سيطرة العقيدة المسيحية فعلماء الإلهيات المسيحية والهرمنوطيقيون طبقوا هذه المقاربات التاريخانية والانتقادية في كتابهم (الاجيل) كما أنهم بذلك طوروا الهرمنوطيقا الدينية وسائر الاتجاهات الانتقادية للكتاب المقدس.[١٨]

وبهذا استبان لنا أن الترعة التاريخانية ولدت أول ما ولدت في البلاد المسيحية وتطورت بين أحضان الكنيسة و جدرانها ونمت وترعرعت كرد فعل عملي من أبنائهما لضغوطهما الفاقرة وربما كان الحق للقوم بعض الشيء حيث إن أبناء الغرب كانوا يعانون من الضغوط الكنسية والتقاليد المسيحية آلاما مريرة فبطبيعة الحال كانوا ملجئين إلى اتجاه يخفف عنهم بعض تلك الآلام المريرة فاتخذوا بعض تلك الاتجاهات الجديدة التي كانت ترى كفرا بواحا للعقيدة وجحودا صريحا للمسيحية وحربا سافرا على الدين ومعالمه فوجدوا متنفسا مما كانوا يعانونه من آلام المسيحية المريرة ويقاسونه من الضغوط الكنسية الفظيعة .بما تخلصوا من سيطرهما ، وصارت لهم من أمرهم فرجا ومخرجا.

ولعدم ثقة التعاليم المسيحية بنفسها ولخوف السلطة الكنسية من ضياع سلطانها وقع عبر التاريخ تلك الأحداث المأساوية الفظيعة في محاكم التفتيش وحورب العلم والتجدد والتطور في الفكر محاربة لم

---

(١٨) نفس المصدر.

يشهد التاريخ مثيلها ولذلك أيضا كبل العقل بأثقل الكبول ومنع من التجول الحر في ملكوت السموات والأرض ولكن إذا أراد الله أمرا هيئ له أسبابه فلم ينفع جميع تلك الضغوط لا في قليل ولا كثير فكسر العقل جميع ما عليه من الأغلال والقيود وتعدى جميع السدود والبنود ووقع ما أراد الله؛ يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد.

أما التاريخانية في قالبها الحديث الملصق بالإسلام وكتابه فقصتها لا تخفى على أرباب البصيرة حيث إن ما وقع في الغرب من الثورة الصناعية وانفجار المعلومات وما وقع من طوفان الأفكار والفلسفات وما أتى من ذلك السيل العرم من التطورات والحريات أثر تأثيرا بالغ المدى في غير الغربيين من أبناء ما يسمونه بالعالم الثالث وخصيصا منهم مثقفو العالم الإسلامي فبعضهم انبهر إعجابا بها وبعضهم تأثر بها أكثر إما أسى وحزنا على ماضيهم المجيد وإما للسنة الكونية من تأثر الضعيف بالقوي فهؤلاء المتأثرون بشعاع الغرب لم يستطيعوا الصمود أمام أعاصير الغرب الفكرية والفلسفية والسياسية فصار جلهم متقبلا لكل ما هب ودب من الغرب من غير فرق بين سليم وسقيم أو غث وسمين وبعد ما طلعت القضية المشؤومة من تحت قرن شيطان الاستشراق أخذ البعض منهم يستوردها على علاتها كي يطبقها على القرآن فصيغت القضية صياغة جديدة في قالب من الحداثة فطلعت على المسلمين في زيها الحداثي

المزخرف المنمق فلاكها بألسنتهم مقلدوهم وعملائهم الفكرية من مثقفي المسلمين عامدا بعضهم إلى ما تأتي به من العاقبة السيئة —على المسلمين— وغير شاعر البعض الآخر منهم بمغبتها المشؤومة ونتيجتها الخبيثة التي أقلها زحزحة عقيدة بعض غير قليل من المسلمين وإضعاف ثقتهم بالقرآن — وهو الهدف الوحيد الذي يسعى إليه بكدح بالغ المستشرقون وأذنابهم— لأنها لا تتواءم مع العقيدة الإسلامية الحقة لا في قليل ولا كثير ولأنها إنكار وجحد لنصوص كثيرة من الكتاب[١٩] والسنة كما تتنافى مع علم الله المطلق و تتنافى مع حقيقة خلود رسالة القرآن وأحكامه مدى العصور إلى أن يرث الله الأرض و من عليها.

وأهم أهداف التاريخانية التي خططها لها شيطان الاستشراق ضمن خطة مزورة مغطاة بحلل العلمية والموضوعية(!) محلاة بحلي التفكير الحر السليم (!) أهم أهدافها هو الإبانة - بعد زمن غير بعيد ريثما استقرت الفكرة في أوساط المسلمين— عن أن القرآن عتق مع الزمن وأبلاه كر الليالي وأخلقه مر العصور حيث كان كتابا تاريخانيا بأحكامه وشرائعه

(١٩) منها آية: البقرة، ١٨٥/٢، النساء، ١/٤، ٧٩، ١٧٠، ١٧٤، الأعراف، ١٥٨/٧، يونس، ٥٧/١٠، ١٠٨ ،٩٩، ١٠٤، ١٠٨، يوسف ١٠٤/١٢، الإسراء، ٨٩/١٧، ٩٤، ١٠٥،١٠٦، الأنبياء ١٠٧/٢١، الحج، ١/٢٢، ٥، ٢٧، ٤٩، ٧٣، الفرقان ١/٢٥، ٥٠، ٥١، ٥٦، الأحزاب، ٤٥/٣٣،٤٦، سبأ ٢٨/٣٤، فاطر، ٢٤/٣٥، ص ٨٧/٣٨، القلم ٥٢/٦٨، التكوير ٢٧/٨١،

خاطب بها كتلة محدودة من البشر في قطاع خاص من التاريخ والزمن وكان في مستطاعه في تلك الأزمنة المحددة الابتدائية تقديم حلول نافعة لتلك الكتلة الخاصة من البشر في ذلك القطاع الخاص من الزمن وأما بعد ما حدث ما حدث من ثورات عظيمة في معظم صفحات حياة الإنسان الفردية والاجتماعية والإدارية والسياسية والاقتصادية والفكرية والفلسفية و غيرها من الجوانب فلم يبق القرآن بدوره التاريخاني قادرا على الإيفاء بتقديم حلول فاضلة صالحة لتلك المجتمعات الراقية في جميع تلك الجوانب المعقدة المستجدة في الحياة! هذا هو ما يهدفه أولئك الظالمون تعالى القرآن عما يقولون علوا كبيرا.

فإذا الهدف اللئيم الأثيم لهذه الخطة الغير الرشيدة هو ما يسعى له جميع أولئك الأطراف العلمانية والليبرالية والماسونية والصهيونية الغربية والشرقية وأذنابها من إقصاء القرآن بدوره الفعال في التنظيم والتشريع والسياسة من جميع نواحي الحياة، وهو ما يكدح له هؤلاء صباح مساء ويسهرون عليه ليل نهار عبر تخطيطاتهم واستراتيجياتهم العالمية للكيد بالإسلام وكتابه ونبيه. فهدف الكل أن يجعل رسالة الإسلام والقرآن عبارة عن أمور أخلاقية وجدانية، في دائرة ضيقة لا صلة لها بتوجيه الحياة بمعناها الشمولي ولا مساس له بتسييرها أصلا بل إنما هي بعض شعائر تعبدية تؤدى في زوايا المعابد، بين المرء وربه لا غير! غير صالحة

للتدخل في أمور الحياة وتسييرها. وهذه الصورة الشوهاء المختلقة عن رسالة القرآن التي يمليها الاستعمار الغربي والتنصير العالمي والكيان الصهيوني على عملائه الخونة وأذناهم المرذولة في البلاد الإسلامية كي يذيعوها عن الإسلام وتعاليمه السمحة هي نفس كيان النصرانية التي باءت بالفشل والبوار لا في الإصلاح الجماعي فقط بل حتى في الحفاظ على كيانها الشخصي أيضا في صميم بلادها وكفى درسا وعبرة لها ولأبنائها!

مع أن من المجمع عليه بين جميع أهل الملة أن الواجب العقدي لجميع المؤمنين أن يؤمنوا إيمانا كاملا لا ريب فيه أن شريعة القرآن ليست شريعة موقوتة بزمن ما أو مجتمع ما بل هي شريعة عامة عالمية وأبدية تكفل للبشرية مطامحها المشروعة[٢٠] وأن القرآن وحدة لا تتجزأ، في تعاليمه وأحكامه مترابطة متماسكة لا تتقطع في مبادئه وقيمه، بين بعضها وبعض ما يشبه الوحدة العضوية بين أعضاء الجسم الواحد، فبعضها يؤثر في بعض إذا اشتكى جزء منها تداعى له سائر الأجزاء بالسهر والحمى؛ فلا يجوز أن يفصل جزء أو أكثر منها عن سائر الأجزاء لا اعتقاديا ولا عمليا؛ كما أن إنكار أي جزء منه –مهما كان قليلا–

---

(٢٠) محمد عبد الله دراز، **دستور الأخلاق في القرآن**، تعريب عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة الطبعة العاشرة بيروت ١٤١٨/١٩٩٨، ص ١٦.

ثبوتا أو حكما أو وقوعا إنكار للكل. ومن جانب آخر العقيدة في المنظور الإسلامي تغذي العبادة والعبادة تغذي الأخلاق، وكلها تغذي الجانب العملي والتشريعي في الحياة.[٢١] ومن هنا ترى أن القرآن يمزج في عرضه الحكيم بين المبادئ الاعتقادية والعناصر الأخلاقية والأحكام الفقهية مزجا دقيقا ويقدمها للمؤمنين مختلطا بعضها ببعض [٢٢] فلا يتصور انفصال أي جانب منها من الجانب الآخر والكل يشكل نظاما عمليا واحدا ووحدة عملية متكاملة محيطة بجميع جوانب حياة الفرد والدولة يسمى ذلك النظام بالإسلام؛ ومن خلال مراقبة يسيرة لحياة المسلمين العملية اليومية يستبين ذلك واضحا لكل منصف عاقل ؛ فلا ينبغي أن يختلف في ذلك اثنان أو ينتطح فيه عتران.

إن الله سبحانه حينما أنزل هذا الدين لم يجعل لعباده المؤمنين الذين رضوا به ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا الخيارات المتعددة تجاه أحكامه المنزلة في كتابه بأن يؤمنوا إذا شاءوا، ويكفروا إذا شاءوا؛ أو يؤمنوا ببعض إن شاءوا، وينكروا البعض الآخر إن شاءوا؛ أو يطبقوا البعض إن شاءوا، ويؤجلوا العمل بالبعض الآخر إن شاءوا. فلم

---

(٢١) يوسف القرضاوي، **المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة**، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت ١٤١٤/١٩٩٣، ص ٢٨-٢٩.

(٢٢) وخير الأدلة على ذلك أواخر سورة الفرقان:٦٣-٧٧ وأوائل سورة المؤمنين: ١-٩ ومن سورة الإسراء:٢٢-٣٩.

يجعل لهم هذه الخيارات بعد ما دخلوا فيه وأعلنوا أنهم مؤمنون به رغما من أن خيار الرد والقبول كان موجودا لهم قبل الدخول في ساحة الإيمان. ترى أن القرآن يحسم ذلك الخيار ببيانه الصريح الفصيح: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[٢٣]، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[٢٤]، ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[٢٥]، ﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٥٠ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[٢٦]

هذه النصوص صريحة حاسمة لا تقبل التأويل في تحديد موقف

(٢٣) النساء، ٤/٦٥.

(٢٤) النساء، ٤/٦٠.

(٢٥) المائدة، ٥/٥٠.

(٢٦) النور، ٢٤/٥٠-٥١.

المسلمين تجاه شرعة الكتاب وفي بيان أن ليس للمسلمين الخيار البتة تحله التحاكم إلى شريعة الله أو إلى غيرها من الشرائع سواء كانت بشرية أم إلهية بل يتحاكمون إليها وحدها فقط يقول ابن أبي العز (ت ٧٩٢): "فالواجب اتباع المرسلين واتباع ما أنزله الله عليهم. وقد ختمهم الله بمحمد صلى الله عليه وسلم فجعله آخر الأنبياء، وجعل كتابه مهيمنا على ما بين يديه من كتب السماء، وأنزل عليه الكتاب والحكمة، وجعل دعوته عامة لجميع الثقلين: الجن والإنس، باقية إلى يوم القيمة، وانقطعت به حجة العباد على الله، وقد بين الله به كل شيء، وأكمل له ولأمته الدين خيرا وأمرا، وجعل طاعته (الرسول) طاعة له ومعصيته معصية له، وأقسم بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكموه فيما شجر بينهم، وأخبر أن المنافقين يريدون أن يتحاكموا إلى غيره، وأنهم إذا دعوا إلى الله والرسول – وهو الدعاء إلى كتاب الله وسنة رسوله- صدوا صدودا، وأنهم يزعمون أنهم إنما أرادوا إحسانا وتوفيقا".[٢٧]

فانطلاقا مما مر بنا من النصوص الواضحة المستنيرة لا يسوغ في منطق الإيمان ولا منطق العقل أن يؤمن المسلم ببعض الكتاب ويكفر ببعض فمثلا إذا قرأ قول الله جل في علاه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ

---

(٢٧) علي بن علي بن محمد بن أبي العز، **شرح العقيدة الطحاوية**، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، بيروت ١٤١٣/١٩٩٣، ص ١٤-١٥.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾٢٨ قال: آمنا وصدقنا. وأما إذا قرأ قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ﴾ ٢٩ قال: سمعنا وعصينا. لماذا؟ لأن الآية الأولى في العبادات والأخرى في العقوبات. ومعنى هذا أن الإنسان أصبح معقبا لحكم الله تعالى يأخذ منه ويدع، ويقبل منه ويرد، ما بهواه وحده. والله لا معقب لحكمه. ٣٠

٢- تحرير محل النزاع بين العالميين والتاريخانيين

إن أي بحث إذا كان دائرا حول مناقشة موضوع أو قضية بين أطراف معنية فأهم شيء - سواء بالنسبة للطرفين المتنازعين وسواء بالنسبة للباحث وسواء بالنسبة لمن سواهما من القراء والباحثين- تحرير محل النزاع، لأن كلا الطرفين المتنازعين إذا لم يعلما أن تحاورهما حول أي

(٢٨) البقرة، ١٨٣/٢.

(٢٩) البقرة، ١٧٨/٢.

(٣٠) القرضاوي، المصدر السابق، ص ٢٩.

موضوع أو إذا اعترض السائل (المعترض) منهما على ما لم يدعه المعلل (المجيب) من الطرف الآخر أو بالعكس بأن أجاب المعلل عما لم يقصده السائل فهذه المناقشة لا تجدي شيئا ولا تفي بأية نتيجة في استبانة وجه الصواب من القضية المتناقش فيها لأن الاعتراض والإجابة لا تردان على محل واحد حتى يستنتج من المناقشة نفي الموضوع أو إثباته وكذلك لا يصل الباحث أيضا إلى نتيجة علمية سليمة تهش لها الأنفس. فعلينا إذا أن نحرر أولا محل التراع في قضية عالمية القرآن ثم نولي وجهنا شطر الإجابة عما أوردوه من الاعتراضات وما عدوه من الإشكاليات حسبما أوتينا من قدرة واستطاعة.

إن الذين ينكرون عالمية القرآن زاعمين تاريخانيته ينقسمون فيما بينهم إلى قسمين: ١-المستشرقون، ٢- أذنابهم من المسلمين.

أما المستشرقون فإلى جانب إنكارهم لسماوية القرآن وربانية مصدره ينكرون عالمية دعوته بأجمعها أيضا من عقائده إلى قيمه ومبادئه وأحكامه. حيث يقول بعضهم: إن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يدع في أول أمره إلى رسالة عالمية و لم يدع ذلك و لم يفكر فيه. بل كل ما فكر فيه هو دعوة أهل مكة ومن حولها وخصوصا عشيرته الأقربين. أما عالمية الدعوة فلم يفكر فيها إلا بعد صلح الحديبية، وحين أرسل إلى كسرى وقيصر وغيرهما... وعندئذ تطور تفكيره وفقا للواقع الذي

يعيشه، إلى أن أعلن العالمية.[٣١] ويدعون أن القرآن المكي من مثل آية : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[٣٢] وقوله تعالى: ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾[٣٣] يشكل دليلا على مزاعمهم الباطلة تلك.

وليس كذلك بتاتا لأنه ليس المقصود منهما كما يتصيد أعداء الإسلام من المستشرقين -وأذنابهم- أن تقصر الدعوة على أهل مكة ومن حولها أو عشيرته الأقربين فقط فهم يقتطعون هاتين الآيتين من القرآن كله ليزعموا أن محمدا صلى الله عليه وسلم ما كان يقصد في أول الأمر أن يوجه دعوته إلا إلى أهل مكة وبعض المدن حولها. وأنه إنما تحول من هذا المجال الضيق الذي ما كان خياله يطمح في أول الأمر إلى أوسع منه... لمصادفات لم يكن في أول الأمر على علم بها بعد هجرته إلى المدينة وقيام دولته بها... وكذبوا..ففي القرآن المكي وفي أوائل الدعوة نزل مثل قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[٣٤] وقوله سبحانه ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ

(٣١) القرضاوي ، المصدر السابق، ص ١٩٣-٢٩٤.

(٣٢) الشعراء، ٢٦/٢١٤.

(٣٣) الأنعام، ٦/٩٢.

(٣٤) الأنبياء ٢١/١٠٧.

﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[٣٥] بينما كانت الدعوة يومذاك محصورة في شعاب مكة يحيط بها الكرب والابتلاء[٣٦] كما أنهم يتغافلون عن علم ويتعامون عن قصد من سائر الآيات التي تدل على عالمية القرآن في القرآن المكي نفسه من مثل قوله تعالى في هذه السور التي كلها مكية: في الأنعام: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾[٣٧] وفي يوسف ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٌ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[٣٨] وفي يونس: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾[٣٩] وفي إبراهيم: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾[٤٠] وغيرها من الآيات المكية الكثيرة التي تفند مزاعمهم وتدحض آرائهم تلك كما سيأتي.

مع أنه يبدو من خلال النظرة الفاحصة الدقيقة في القرآن المكي أن مقاصد التشريع العليا وأسسه الكبرى وقواعده الكلية تم إرساؤها فيه

---

(٣٥) سبأ ٣٤/٢٨.

(٣٦) سيد قطب في ظلال، ج ٢، ص ١١٤٨ بتصرف قليل.

(٣٧) الأنعام، ٦/٩٠.

(٣٨) يوسف، ١٢/١٠٤.

(٣٩) يونس، ١٠/١٠٨.

(٤٠) إبراهيم، ١٤/١.

جنبا إلى جنب مع أصول العقيدة وأسسها[41] يحرر ذلك الإمام الشاطبي (ت ٧٩٠) من خلال قوله: القواعد الكلية هي الموضوعة أولا والتي نزل بها القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ثم تبعها أشياء بالمدينة كملت بها القواعد التي وضع أصلها بمكة...[42] ويطول الشاطبي في شرح ذلك بإفاضة وتفصيل دقيق.

أما موقف المستشرقين الانحيازي الذي يكونون فيه مع أهوائهم وأغراضهم المملية عليهم تلك الدسائس لا للحق ومع الحق فليس بمستغرب عليهم وهو مقتضى طبيعة كفرهم وعنادهم وعدائهم للإسلام وكتابه ورسوله. فهم يأتون -بما لهم من قوة وقدرة- تشكيكا في الإسلام وكتابه ورسوله بكل ما وصلت إليه أفهامهم من الافتراآت والأكاذيب والأباطيل ولا يرقبون في ذلك الصدد إلا ولا ذمة. وكثير من مزاعمهم حول الرسول والقرآن وتاريخ الإسلام أبعد شيء عن الموضوعية الغير المنحازة والجدية العلمية والتحقيق الأمين بل أثر الحقد والضغينة والتفكير المنحاز السيئ والبعد عن التحقيق العلمي باد عليه لكل من أبصر وتبصر. فهو صنو الأكاذيب و شبه الأساطير.

---

(٤١) أحمد الرسوني، **نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي** الطبعة الرابعة من منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي فيرجينيا الولايات المتحدة الأمريكية ١٩٩٥، ص ١٧٣.

(٤٢)الشاطبي، الموافقات، ج ٣ ص ١٠٢.

وأما مقلدوهم فهم لا ينكرون -أو على الأقل لا يتفوهون بذلك ظاهرا وإن اعتقدوه تبعا لسادقم الغربيين باطنا- عالمية الدعوة القرآنية كدين ختم الله به النبوات ويحتوي على أسس اعتقادية راسخة حول التوحيد والإيمان بالآخرة والرسل والكتب السابقة ويتضمن مبادئ أخلاقية عالية لا غنى عنها لأي مجتمع مهما تطور وتقدم فلا ينكرون في ظاهر الأمر كل هذه، بل ينكر البعض منهم عالمية خطاب القرآن (ولعمري إن إنكار عالمية خطاب القرآن إنكار في حقيقة الأمر لمعظم خطاباته ومبادئه وأحكامه وقيمه إما مباشرة أو غير مباشرة) والبعض الآخر منهم ينكر عالمية أحكام القرآن وشرائعه فيزعمون أنه لا يمكن أن تكون أحكام وضعت قبل أربعة عشر قرنا لتلك المجتمعات الابتدائية المتخلفة صالحة نافعة ومقبولة مستحسنة لمجتمعات عصرنا الراقية. فيرفضون أن يكون جميع ما في القرآن من الأحكام عالمية تكون فوق الزمان والمكان تخاطب الأجيال كلها.

فإذاً يمكن لنا أن نحرر محل النزاع كما يلي:

١-إنكار عالمية جميع القرآن بما يحتوي عليه من مبادئ دعوية وأسس اعتقادية، وتعاليم أخلاقية، وتكاليف شرعية وأحكام تشريعية،وهو ما عليه المستشرقون و لم نر من المسلمين من تفوه بهذا.

٢-إنكار عالمية خطاب القرآن وهو ما عليه البعض من محترفي العمالة الفكرية للغرب من الحداثيين في بلاد العالم الإسلامي الذين يرون الحق مع الغرب أينما دار وكيفما صار. وفي نتيجة الأمر لا فرق بين هذا وبين ما يزعمه المستشرقون بل كل الفرق أن الغربي يصرح بفكره بدون تورية أو تغطية وأما هؤلاء فيلبسون الحق بالباطل ويشعوذون ويزينون الوجه المرئي من باطلهم بمكياج جاذب كاذب فهم غير صرحاء مع الناس ويخفون باطلهم منهم إما تفاديا عن وصمة الكفر والارتداد أو استتارا بلعبة الألفاظ والكلمات. وهذا الانحطاط الخلقي والفكري فيهم لتأثرهم البالغ بتلك الأفكار الوافدة من الغرب واتجاههم في تفكيراتهم نحو منابع الغرب الفكرية يستقون منها معارفهم وثقافاتهم. وقدوتهم في ذلك أمثال وات (Watt) وبارت (Paret) الحاقد وجادمير (Gadamer) وجولديستهر (Goldizher) وغيرهم من فلاسفة الغرب ومستشرقيه لا الشافعي والغزالي ولا النووي والشاطبي ولا ابن تيمية وابن قيم الجوزية ولا رحمة الله الهندي وشاه ولي الله الدهلوي وغيرهم من ثقات علماء المسلمين المحققين الأثبات.

٣- إنكار عالمية أحكام القرآن من غير تعرض لاعتقادياته وأخلاقياته وسائر وجوه هدايته وقدوة بعض هذا الفريق وحجته البالغة في ذلك **فضل الرحمن الباكستاني** الذي عاش في أمريكا ردحا طويلا من

الزمن إلى أن وافته منيته و**محمد آركون** العلماني الجزائري الذي استوطن فرنسا فتربى بين أحضان الغرب وارتضع من ألبانها وتنفس طيلة عمره جوها فصيغت الصياغة الغربية جميع كياناته الفكرية والعلمية والعقدية — ربما على كره منه وليس عن طواعية.

ومستندات كلا الفريقين متداخلة يدخل بعضها في بعض كما سنذكر. فلنذكر مستنداهما كي يتضح الأمر أكثر.

وقبل أن نخوض في عرض مستنداهم لا ننسى أن نذكر أنه ليس هناك من علماء المسلمين من يدعي أن جميع أحكام القرآن ومضامينه عالمية يخاطب بها الجميع في كل الأزمة والأمكنة لأن علماء المسلمين ذكروا فيما قبل هؤلاء بكثير أن بعضا من أحكام القرآن وخطاباته كانت زمنية متوجهة للمخاطبين في تلك الفترة محددة بزمن النزول[٤٣] وسنذكر ذلك فإذاً محل النزاع بيننا وبين هذا الفريق هو أن التاريخانية عند جميع علماء المسلمين سلفا وخلفا تنحصر في حدود أحكام معينة وخطابات محددة يستبين من ميزة مضمونها ومن طبيعة مفهومها أنها تخاطب تلك الفترة فقط أو تخاطب الموجودين فيها فقط. ولا تتعدى التاريخانية حدود هذه الطائفة من الخطابات والأحكام أبدا وأما الفريق

(٤٣) انظر محمد علي الشوكاني، **فتح القدير الجامع بين فني الدراية والرواية من في التفسير**، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية مصر ١٣٨٣/١٩٦٤، ج ٥، ص ٢١٤-٢١٥.

المقابل فيرى أنها تتعدى كل ما لا يوائم طبيعة هذا العصر الاجتماعية والإدارية والسياسية والحقوقية والاقتصادية وحتى الأبيستمولوجية والثقافية فخذ مثلا من شهادة المرأة وميراثها، إلى تعدد الزوجات، إلى حرمة الربا، إلى القطع في السرقة، إلى كثير من غيرها من الأحكام بحيث لا يبقى بعد في الجعبة شيء، ويصير الإسلام حينئذ أجوف خاليا من المعنى والمضمون، أقرب إلى المسيحية منه إلى الإسلام. علما منا أنهم لا يقفون عند هذا الحد ولا يكتفون بهذا القدر إذا أجابتهم الجماهير إلى مزاعمهم الباطلة وظنونهم الكاذبة بل سيتسربون بعد برهة من الزمن مع جملة من أعداء الإسلام إلى صميم الإسلام ولبه: العقيدة والشريعة بكاملهما، وهما أهم معاقل الإسلام، فيحاولون تبديل عقائده إلى ما يوافق أهواء سادتهم المستشرقين وإلغاء شرائعه كافة محتكمين إلى خزعبلات الديمقراطية التي ما عرفنا مثلها منافقة ومخادعة.

ثم إن محاولات هذا الفريق من الناس ليس من حماسة دينية أو غيرة على الإسلام وأهله حتى يكون لهم شيء من العذر بل ليس جل محاولات معظم من في هذا الفريق إلا من مركب النقص في صدورهم والعقدة النفسية في أنفسهم.

القسم الأول عالمية القرآن رسالة

المبحث الأول شبهات التاريخانيين والإجابة عنها

أ- مستندات التاريخانيين في رد عالمية القرآن

إن من شأن الباطل كي يكون باطلا أن لا يكون له منطق صحيح ومستند قوي من الاستدلال والاحتجاج. وما يرى له في بعض المواضع من قوة برهان وصلابة دليل فإنما هو في ظاهر الأمر وبالنظر السطحي الساذج فقط، فإذا أنعم الحازم اللبيب النظر وكان على بصيرة من الرشد والثبات على الحق فهم بلا كثير معاناة أنه تزويق خارجي وتقو في المظاهر فقط لا ثبات له ولا قرار في نظر الحقيقة أبدا لأن حجته داحضة وأدلته ساقطة. فما يستند إليه منكرو عالمية القرآن من التاريخانيين لا يتعدى أصلا أن يكون من هذا الباب؛ فليس لهم قوة دليل، ولا متانة حجة، ولا ثبات حق، ولا تماسك منطق، ولا موافقة حكمة؛ وإنما هو صلف لفظي وأمور سخيفة، ومستندات ضعيفة، وادعاآت واهية، واحتجاجات زائفة ومشاغبات فلسفية وتمويهات مبهرجة وتضليلات مزوقة لا تستهويها إلا أنفسهم ومن على شاكلتها فحسب؛ لا تستحق أن تسمى حجة أبدا؛ فمثلهم كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون، أملت عليهم أنفسهم وعداؤهم للإسلام والحق المبين تلك الظنون الكاذبة والأوهام الباطلة إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا؛. فيها إغماض وتحامل

وإنكار وتجاهل وتعسف وتخاذل، ظلمات بعضها فوق بعض، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

أهم مستندات المستشرقين ومن لف لفهم في دعواهم عدم عالمية القرآن كما ذكر **طه جابر العلواني** وهو الخبير بها لأنه يعيش بين ظهرانيهم ما يلي:

١- عربية لغة القرآن،

٢- تقيده بأسباب نزول تختص بالعرب،

٣- تطرقه إلى ما يختص بالبيئة العربية من أمثال قوله تعالى ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾[٤٤]

٤- تصدى القرآن لأعراف العرب في التبني وتعدد الزوجات وغيرهما،

٥- ذكره لتلك الصراعات الخصوصية الواقعة بين المسلمين وغيرهم من بني قريظة وبني النضير وغيرهما،

٦- اقتصاره في سرد قصص الأنبياء على أنبياء ما بين النيل والفرات.

٧- إنه لا يمكن لنصوص محدودة أن تستوعب حركة البشرية

(٤٤) الغاشية، /١٧.

كلها.[٤٥]

هذه هي الأمور التي يستند المستشرقون ومن لف لفهم إليها في مزاعمهم المختلقة.

وأما المنكرون لعالمية أحكام القرآن من زاعمي تاريخانيته من أبناء المسلمين فمن هؤلاء الأمور تجد أن أكثر ما يتعلقون به ويكثفون عليه في مزاعمهم الباطلة هو أسباب النزول وعدم إمكان استيعاب نصوص محدودة المعنى والمبنى لحركة البشرية كلها والناسخ والمنسوخ إلى جانب ما يتشبثون به من بعض الأحكام التي يزعمون أنها لا تصلح لهذا العصر المتطور! كما ذكرنا قبل من مثل تعدد الزوجات والقطع في السرقة وحرمة الربا وغيرها.

علما منا أن أكبر العوامل التي حملتهم على سلوك هذا المسلك الخطير في كتاب الله نزعة ذات اتجاهين أخراهما نتيجة أولاهما وهما التأثر بالغير والتفلسف العقلي حول بعض ما نزل من الأحكام في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم حيث يحاولون أن يجدوا لبعض تلك الأحكام بعض الملابسات التاريخية التي تحدد واقعيتها – حسب مزاعمهم – بذلك العصر أو ما بعده من العصور القريبة منه. فكدليل على الأول مثلا ترى الدافع الأكبر لهم على التاريخانية في بعض الأحكام الذي لم

(٤٥) طه جابر العلولني، **حاكمية القرآن**، ص ٣٤-٣٥.

يرد أي نص من العقل والنقل في تخصصه وعلى ادعاء تقيده بزمن النزول فقط مثل القطع في السرقة وغيره هو ما تأثروا به من النزعة الإنسانية الوافدة إليهم من الغرب (Humanızm) ومن حقوق الإنسان المصطنعة. فحينما ينكرونها أو يحاولون أن يضعوا لها بديلا إنما يفعلون ذلك بما يرون أن قطع اليد مثلا يتنافى مع النزعة الإنسانية وأنه مخالف لحقوق الإنسان فيجعلون من تلك الحقوق المصطنعة بأيدي الذين هم أشد الناس ظلما وعدوانا وتعديا على حقوق الإنسان يجعلون منها حاكما مهيمنا على آيات الله وسنة رسوله وذلك هو الخزي المبين.

(ونحن – بصفتنا مسلمين- لسنا معارضين لحقوق الإنسان أيا ما كانت، وفي يد من كانت، ولكنا نريد بهذا عدم صدق الغرب وعدم التزامه هو بما أسسه من المبادئ أبدا إذا لم تتواءم مع مصالحه السياسية وأهدافه الاستغلالية* وهذا من أكبر أمارات النفاق ومخادعة الغير.

(*) فإن من البداهة بمكان أن الغالبية العظمى مما يجري على ساحة دول العالم الثالث من هتك أبسط حقوق الإنسان إلى أعظمها وأعقدها إنما تجري بتلك المناورات والمكائد التي يديرها ويدبرها الرجل الأبيض خلف الأبواب المسدودة أو على أدنى الاحتمالات يدعم جانبا من الطرفين المتناحرين حتى يستمر الحرب أكثر فيستفيد من تسويق أسلحته إلى الجانبين أزيد وغيرها من مآربهم الخبيثة فخذ مثلا حرب العراق مع إيران وحرب الخليج التي لا تزال آثارها الاستغلالية والدينية السيئة تجري في دول الخليج على أبشع الصور وتلك المخططات السيئة العالمية كضرب اقتصاد الشرق الأقصى وغيرها من المخططات التي تنتهك فيها=

والعجب كيف يقلد هؤلاء الإنسانيون من الشرق أولئك الحقوقيين من الغرب وقد بدا عارهم وشنارهم وازدواجيتهم في مبادئهم وقواعدهم وتناقضهم مع أنفسهم في كثير من مواقفهم لكل أحد بوقائع عديدة كما بينا في الهامش ولكنه القوة قاتلها الله حيث تجعل من الكتلة الغاشمة الظالمة رحماء عدلاء وتجعل من الجماعة المستعمرة المعتدية حماة حقوق فضلاء ينبغي أن يحتذى على منوالهم ويقتدى بمثالهم!!)

=حقوق الآلاف المؤلفة من جماهير الناس على مرأى ومسمع من الغرب حامي حقوق الإنسان! كل أو جل هذه المكائد والمناورات إنما تجريه دول الغرب إشباعا لنهمها الاستغلالي. و لا تأبه في ذلك الصدد لا بحقوق الناس ولا بحقوق رب الناس! ألم تهدر دماء آلاف الأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ؟ ألم تنتهك كرامات عشرات الآلاف من النساء في حروب كل من بوسنة وكسوفا و الشيشان؟ ألم يقتل فيها الأطفال بعشرات الآلاف ؟ ثم إن ما جرى في الربع الأخير من قرن العشرين ولا يزال يستمر لحد الآن في بعض البلاد الإسلامية على أيدي عملاء الغرب وبتخطيط منهم أنفسهم من اضطهاد للمسلمين (وتبريرا لاعتداءاتهم الغاشمة وتيسيرا للوصول إلى أغراضهم الخبيثة أمام الرأي العام يسمونهم الإرهابيين أو الأصوليين) وتعذيب وقتل وتشريد ومجازر جماعية ومنع لكثير من الحقوق والحريات التي بها يجد الإنسان شخصيته من منع حق التعلم إلى إلجاء النساء إلى السفور وإلى كثير من غيرها فما يجري من هؤلاء الأمور مل ء السمع والبصر يعلم به ويسمع عنه الجماهير. في مشارق الأرض ومغاربها فأين كان رعاة حقوق الإنسان وحماته البيض ؟ أو لأن المسلمين لم يبلغوا في نظرهم إلى درجة الإنسانية بعد فلا يستحقون الكرامة والحرية!!!

وكدليل على الثاني مثلا: إن من أهم أساطين هذه الفكرة بين المسلمين **فضل الرحمن الباكستاني** -كما أسلفنا- الذي لا يزال الحداثيون من أبناء العالم الإسلامي يهتدون بسيره في كثير من اتجاهاتهم الحديثة. فهو حينما يحاول أن يبين الملابسات التاريخية لبعض من تلك الأحكام الذي يراه هو محددا بزمن النزول -كتعدد الزوجات وقطع السرقة- قاصدا من تلك الملابسات التاريخية بيان الأسباب المخصصة للحكم بتلك الفترة المحددة فتراه حينما يسرد وجهة نظره في القضية في بعض كتبه لا يأتي بنقير ولا قطمير من الأدلة النقلية الملزمة أو الحجج النصية المقنعة، بل يكتفي بتوجيهاته العقلية فحسب تلك التوجيهات التي ليست مقبولة لدى الجميع ولا يعلمها ولا يقبلها إلا القليل. ولا شأن لنا بالتوجيهات العقلية وحدها في تفسير النصوص بعد وجود ما يعارضها ويفندها من النصوص القاطعة الصريحة ومن عمل الرسول صلى الله عليه وسلم وعمل الأمة وإجماعها وبعد ما لم يوجد ما يؤيدها أيضا من تفسير أو عمل من القرون الأولى والذين اتبعوهم بإحسان.

علما منا أن التفلسف العقلي بدون النص لو كان مبررا كافيا لخرق الإجماع وتحديد النصوص أو تقييد أحكامها ببعض الفترات التاريخية ورفع أحكامها فيما بعد من العصور التالية لصار الإسلام نهبا لعقول المتفلسفين وأراء العقلانيين. فكل من جاء ورأى أن الصواب فيما ارتآه

بفلسفته المموهة أو أن الحق فيما ارتأاه بعقليته المحددة رفع شيئا من الأحكام إلى أن لا يبقى من الدين بقية، وهذا نفس ما تبتغيه وترتضيه الجهات المعادية للإسلام من التفسير الجديد للدين حسبما أوحت إليهم شياطينهم.

يشير **الشاطبي** (ت ٧٩٠) إلى طرف من رجحانية الاستدلال النقلي ولزوم التمسك به في مقابل الاستدلال العقلي بقوله: إذا تعاضد العقل والنقل على المسائل الشرعية، فعلى شرط أن يتقدم النقل فيكون متبوعا ويتأخر العقل فيكون تابعا، فلا يسرح العقل في مجال النظر إلا بقدر ما يسرحه النقل. والدليل على ذلك أمور:

الأول أنه لو جاز للعقل تخطى مأخذ النقل، لم يكن للحد الذي حده النقل فائدة، لأن الفرض أنه حد له حدا؛ فإذا جاز تعديه صار الحد غير مفيد. وذلك في الشريعة باطل. فما أدى إليه مثله.

والثاني ما تبين في علم الكلام والأصول، من أن العقل لا يحسن ولا يقبح، ولو فرضناه متعديا لما حده الشرع كان محسنا ومقبحا. هذا خلف (أي تناقض).

والثالث أنه لو كان كذلك لجاز إبطال الشريعة بالعقل (كما يفعله الحداثيون عن علم أو دون علم)؛ وهذا محال باطل. وبيان ذلك أن معنى الشريعة أنها تحد للمكلفين حدودا في أفعالهم وأقوالهم واعتقاداتهم، وهو

جملة ما تضمنته. فإن جاز للعقل تعدي حد واحد، جاز له تعدي جميع الحدود؛ لأن ما ثبت للشيء ثبت لمثله؛ وتعدي حد واحد هو معنى إبطاله، أي ليس هذا الحد بصحيح؛ وإن جاز إبطال واحد، جاز إبطال السائر، وهذا لا يقول به أحد، لظهور محاله[٤٦] عند كافة علماء المسلمين لأن في إبطال أي حد لم يكن محددا من الشارع إخلالا بعقيدة صلوحيته لكل زمان ومكان لتروله من العليم الخبير الذي له العلم بما كان وسيكون.

ثم إن الأدهى الأمر من كل ذلك أن الذين ينصبون أنفسهم للدفاع عن التاريخانية ليسوا أناسا آمنين موثوقين في دينهم وعقيدتهم حتى يؤتمنوا على ما يأتون به من التفسير الجديد لبعض النصوص أو الاتجاه الجديد لبعض الأحكام — غير ناسين أن الثقة في الدين والأمان في العقيدة بدون أرضية من الأدلة الصحيحة الملزمة لا تكفيان وحدهما - بل جلهم ضعاف العقيدة، خفاف البصيرة، على قلوبهم رين، وفيها زيغ، يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله. إلى جانب أن سيرة معظمهم سيرة دنسة ملوثة وترى عقائدهم عقائد محطمة بالية تذوب أمام الشكوك الوافدة ذوبان الجليد في اليوم الحار كما تراهم أذنابا غير أعزاء وإمعة في

(٤٦) إبراهيم أبي إسحاق بن موسى الشاطبي، **الموافقات في أصول الشريعة**، تحقيق اللجنة، دار الكتب العلمية، بيروت بلا تاريخ، ج ١، ص ٦١.

أفكارهم واتجاهاتهم وميولهم للغرب الذي لا يزال يكن في صدره أعظم الأحقاد على الإسلام وأهله. أليس من المضحك المبكي أن هؤلاء التاريخانيين الحداثيين يعيبون على المسلمين كلاسيكية اتجاهاتهم وتقليدهم لأسلافهم في بعض من المعارف والتفكيرات ويدعون إلى تحرر العقول والأفكار؟ ولكنهم أنفسهم يعيشون أشنع أنواع التقليد وأرذله حيث يقلدون أعداءهم الحاقدين أسوء تقليد بدون هدى ولا بصيرة وليسوا بذلك شاعرين. يعني بكلمة أوضح عنوانا يرضون مثلا بتقليد أمثال جولدزهير وشبرنجلر من المستشرقين ولا يرضون بمتابعة الغزالي والشاطبي من علماء المسلمين فكيف يوثق بمن هذه سيرته وسريرته في تفسيره وتأويله أهم النصوص حيوية وتأثيرا في حياة المسلمين؟ وكيف يؤتمن في تفسيره الذي أهدته إليه أهواؤه وميوله لا دينه وخوفه من ربه؟

نعم لا ينكر أحد من علماء المسلمين أن في القرآن آيات نزلت لسبب خاص فيها ذكر لبعض الحوادث التاريخية الخاصة التي لها صلة بزمان وقوعها أو الأشخاص التي كانت لهم علاقة وثيقة بها كما في آيات تحريم النبي صلى الله عليه وسلم بعض ما أحل الله له بسبب بعض أزواجه[٤٧] أو بعض آيات الممتحنة. حتى إن البعض من المفسرين ذكر أن ما ورد في الآية العاشرة (وكذا الآية الحادية عشرة) من سورة الممتحنة

(٤٧) انظر الآيات ١-٦ من سورة التحريم.

مخصوص بذلك الزمان في تلك النازلة بإجماع المسلمين.[٤٨] وقد أشرنا إلى ذلك سابقا ومع ذلك فقد استدل إمام الحرمين (ت٤٧٨) بهذه الخصوصية الموجودة في هذه الأحكام الخاصة على عالمية القرآن حيث يقول: والخصائص بالإضافة إلى أحكام العموم قليل من كثير وكونه خص بعض أصحابه بالنص فيه دليل وإعلام بأن الأحكام الشرعية خارجة عن قانون الاختصاص.[٤٩]

فنؤكد مرة أخرى ونقول محل التزاع بيننا وبينهم ليس هو أنه لا يوجد في القرآن بعض من تلك الآيات التي تخاطب قطاعا خاصا وأن كل ما فيه من الأحكام على علاتها عالمي بل محل التزاع هو أنهم من جانب يعممون الخصوصية على القسم الغالب من آيات الأحكام التي أجمع علماء الأمة سلفا وخلفا على سريان مفعوليتها لكل زمان ومكان من مثل آيات الحدود كآية القصاص وآية قطع السرقة وآية الجلد في الزنا وآيات حرمة الربا وغيرها أي يجعلون جل تلك الأحكام مما لا يوافق أهوائهم تاريخانيا ومن جانب آخر يجعل البعض الآخر منهم

(٤٨) انظر محمد بن أحمد القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٦٦، ج ١٨، ص ٦٨؛ محمد بن علي الشوكاني، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، مطبعة مصطفى البابي، الطبعة الثانية، مصر ١٣٨٣/١٩٦٤، ج ٥، ص ٢١٦.

(٤٩) يوسف العالم المقاصد العامة للشريعة، ص ٤٣.

خطاب القرآن تاريخانيا كما أسلفنا ومعنى هذا أن الزمان أعفى على خطاب القرآن و لم يبق له مفعوله التكليفي ويؤول هذا –وإن لم يبوحوا به– إلى أن البشرية محتاجة إلى نوع آخر من الخطاب يلائمهم وهذا عين ما يهدفه المستشرقون من أبحاثهم الاستشراقية وخصيصا منها القرآنية وهي الطامة الكبرى لو تعقلها عاقل أو تبصرها بصير فالقوم لتشبعهم البالغ بالثقافة والعقلية الغربية النامية على روح الوضعية الملحدة التي لا تعرف لا خالقا ولا دينا ولا عقيدة ولا شريعة ولا تعترف بأي مقدس آخر، فلتشبعهم بهذا يجعلون من عقولهم الغربية وثقافتهم الليبرالية وخلفياتهم الديمقراطية وتصوراتهم العلمانية حاكما مهيمنا على كتاب الله وشرائعه وسنة نبيه وذلك أمر ما أنزل الله به من سلطان. ويرون بذلك أنهم مصلحون، متقدمون، متحررو الأفكار، منورو العقول. وأما إذا أثبت لهم بالأدلة النقلية القاطعة أن هذا يتنافى مع عقيدة الدين الحق والتسليم له –الذي هو أهم سمات العقيدة– فلا يأبهون بذلك ولا يلقون له بالا. ويرون أن المدعي لذلك متشدد، متزمت، كلاسيكي لم يتفاعل مع ثقافة العصر، و لم يتنور قلبه وعقله، و لم يتحرر فكره وبصيرته فهو أقرب عندهم إلى الخرافة من الحقيقة وإلى الضلال من الصواب.

مع أننا لا ننسى أن تلك الأحداث المذكورة في القرآن بصياغة خاصة وإن تقولبت في قالب من الخصوصية التي ترى أنها تخص زمنا

معينا أو أشخاصا محددة أو حالة محددة- ربما تقتضي تلـــك الأســـباب تاريخانيتها على زعم زاعميها!- إلا أن كل واحد منها يدل على معـان، ويشير إلى أحكام، ويرمز إلى عبر، ويحتوي على أصـــول، ويومـئ إلى دروس، لا تخلق مدى الدهور ولا تبلى بكر العصور ولا غناء للإنســانية عنها أصلا وكفى كل هذا شاهدا عدلا في عالمية نصوص القرآن.

ونذكّر هؤلاء القوم بحديث رواه أبو داود في ســـننه: « **المــراء في القرآن كفر** »[٥٠] فهل ترى معنى الحديث أن المراء في تفسيره كفر كـلا! بل نرى أنه يدخل في هذا المراء الذي يسبب الكفر مثل ما يثيره هـــؤلاء العقول المستأجرة والقلوب المحتلة من الشكوك والريوب والجدل المغـرض حول بعض القضايا القرآنية من مثل عالميته وغيرها من تلك الأمور الماسة بقداسة القرآن مما يزحزح عن قلوب المسلمين جلالته ويضعف ثقتـــهم بكتاب ربهم.

نستهدف في بحثنا هذا بجميع ما أوتينا من جهد أن نثبـــت عالميـــة القرآن لمنكريها من أبناء البلدان الإسلامية. ونلاحظ أن قسم المستشرقين من هؤلاء المنكرين، للكلام معهم مجال آخر، فهم معنا في قبول ورد مــا نعرض عليهم من الأدلة القرآنية كالنعامة حيث إذا قال لهـــا الصـــائد: "طيري" تقول: "أنا ناقة" وإذا قال لها: "فإذاً خذي على ظهرك الأحمـلل"

(٥٠) أبو داود، السنة/٥.

قالت: "أما ترى أني طير من الطيور" فكذا هؤلاء إذا سردنا لهم تفنيدا لمزاعمهم الباطلة نصوص الكتاب والسنة يقولون لنا ألستم تدرون أننا لا نؤمن بهذه النصوص حتى تفحموننا بها؟ وإذا قلنا كمؤمنين بالقرآن إن القرآن كتاب عالمي جاء لهداية البشرية جمعاء قالوا لنا: لا يصح دعواكم هذه فإن نصوص القرآن تدل على غير ذلك. فنقول كيف يصح لكم أن تستدلوا بما لا تؤمنون به؟ فهم بذلك يقعون في تناقض عجيب مع أنفسهم وهم لا يشعرون. علما منا أنهم حينما يفعلون ذلك إنما يفعلونه عن وعي وفطنة بالأمر وعلم بخطورة الموضوع وما يأتي به من عواقب وخيمة ونتائج غير محمودة في إضعاف عقيدة المسلمين وإزاحة ثقتهم بكتابهم ومعالم دينهم الحنيف.

كما نعلم أنهم ومن حذا حذوهم من أبناء المسلمين يخبطون في ذلك خبط عشواء ولا يهتدون سبيلا فيتركون كثيرا من نصوص الكتاب التي تكون حجة عليهم ويتمسكون ببعض من تلك الآيات التي لا تكون حجة لهم إلا بالتعامي عن الآيات الأخرى. فمثلهم أيضا في ذلك مثل الدرويش البكطاشي المنحرف الذي كان يقول: "إن الصلاة غير واجبة علينا لأن الله سبحانه قال في كتابه: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة** ﴾ فلما قيل له: أتمم الآية فإن آخر الآية يقيد عدم القربان إلى الصلاة بحالة السكر ويفيد وجوب الصلاة مطلقا على كل أحد. أجاب:

بأنه غير حافظ للقرآن. فهذه هي قصة هؤلاء المستشرقين مع القضايا القرآنية إذا ما أحبوا أنكروا جميع القرآن وإذا ما أحبوا استدلوا على مزاعمهم الباطلة البالية ببعض من آيات القرآن وتناسوا البعض الآخر، وإذا ما أرادوا استدلوا بالكل.

فأولا نكثف جهدنا عبر بحثنا على ما يفيد قطعية عالمية القرآن مستدلين على ذلك بما تيسر من الأدلة العقلية والنقلية كي يزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أتوا الكتاب والمؤمنون وكي لا يظن المسلم الذي عرض عليه عارض الشك أو طرأ عليه طارئ الغفلة أن عالمية القرآن ترف فكري لدى المسلمين، غير مستند إلى أي إثبات نصي نابع من الكتاب والسنة أو استدلال عقلي موات للمنطق والحكمة. وثانيا نستهدف من بحثنا هذا صيانة الآخرين من ناشئة المسلمين الجدد عن الوقوع في هذه الورطة العظمى والفتنة الكبرى. فلذا كان أكثر استدلالاتنا من القرآن والسنة ـــ وإن لم يرضه هؤلاء المبتلون بما تعودوه من الصلف اللفظي و التعقيد الأسلوبي لما يدخلونه بين كلامهم من المصطلحات الغربية والتوجيهات الفلسفية ظنا منهم أن العلمية لا تكون إلا بذلك وبأن تتخلى عن كيانك وتتشبه بغيرك وهو الطامة الكبرى — و لم نلتزم أيضا عبر بحثنا بالاستدلال الفلسفي البحت وإن أعجبوا به أكثر؛ فإنه مجال آخر له فصوله وأصوله.

ب*- تفنيد مزاعم التاريخانيين

١- عربية القرآن

إن من المسلم المجمع عليه لدى جميع المؤمنين بالله عز وجل إيمانا صحيحا أن الله لا يكلم الناس مباشرة بدون واسطة: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾[٥١]، فإن الله لم يخلق في هؤلاء الناس الضعفاء قابلية أن يعوا كلام الله وقوة أن يسمعوه مباشرة بدون واسطة أو بواسطة إلا في أناس محدودين وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام - ولعله بعضهم أيضا- كما لم يخلق فيهم قوة وقابلية أن يروه في هذه الدنيا بأعينهم ومن هنا اتفق علماء الأمة على أنه لا يراه أحد في الدنيا بعينه و لم يتنازعوا في ذلك إلا في نبينا صلى الله عليه وسلم خاصة[٥٢] ولذا

---

(٥١) الشورى، ٥١/٤٢.

(٥٢) أبي العز محمد بن علي **شرح العقيدة الطحاوية**، الطبعة الثامنة، المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٠٤/١٩٨٤، ص ١٩٦. إن قضية رؤية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ربه سبحانه ليلة الإسراء قضية خلافية ينكرها المعتزلة ومن لف لفهم وأما علماء أهل السنة وإن أنكرها البعض لكن قبله البعض الآخر منهم. المشهور عن عائشة أم المؤمنين وابن مسعود وأبي هريرة رضي الله عنهم إنكارهم جميعا لرؤيته عليه الصلاة والسلام وقال =

حينما دعا موسى وطلب من الله سبحانه رؤيته في هذه الدنيا: **رب أرني أنظر إليك"** رد الله عليه بقوله: ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ ﴾ [٥٣].

فإذا من المحتم عقلا ومنطقا وحكمة أن يكون ما بعثه الله من الرسالات بلسان قوم من الأقوام إما بلسان هذا أو ذاك أو... كما أفصح القرآن عن ذلك: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤ ﴾ [٥٤] فإذا ثبت ضرورة كون الرسالة بلسان أحد الأقوام وهو مقتضى العقل القاضي بأن الرسالة التي تترل بين الناس يلزم أن تكون بلغاهم التي بها يتفاهمون، وعليها يتعايشون، وبها يتحاورون حتى يتأتى للنبي إبلاغ رسالات ربه إليهم ويتيسر لهم فهم مضامينها ومفاهيمها

=إنكار هذا وامتناع رؤيته في الدنيا جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين. وعن ابن عباس رضي الله عنه الله عنهما أنه رآه بعينه... ويقول القاضي عياض وأما وجوبه لنبينا صلى الله عليه وسلم والقول بأنه رآه بعينه فليس فيه قاطع ولا نص والمعول فيه على آيتي النجم والتنازع فيهما مأثور والاحتمال لهما ممكن.(شرح العقيدة الطحاوية ص ١٩٦-١٩٧).

(٥٣) الأعراف،١٤٣/٧.

(٥٤) إبراهيم، ٤/١٤.

رسالات ربه إليهم ويتيسر لهم فهم مضامينـــها ومفاهيمـــها والتحقـــق بمقتضياتها ومتطلباتها. وهو ما وقع فعلا عبر تاريخ النبوة كله فلا مـــانع من أن يكون رسالة الإسلام بلسان قوم النبي المبعوث هو منهم. ولكـــن هل نزول الرسالة بإحدى اللغات مناف لعالميتها أولا؟ فنقول عندنا وعند جميع أرباب العقول النيرة لا منافاة أبدا ولا مانع عقلا مـــن أن تكـــون الرسالة المنزلة بهذه اللغة أو تلك عالمية طالما كان الركـــن الأعظـــم في الرسالة المنزلة هو المعاني وكانت الألفاظ واسطة، وطالمـــا لم يحـــدد الله سبحانه الرسالة بقوم دون قوم كما في الرسالات المتقدمة المنصوصة على خصوصيتها.

أما أولا فلأنه لا يوجد ثمة لغة عالمية حتى يكون ما نزل بها عالميـــا وغيرها ليس عالميا. وأما ثانيا فلأن المقصود الأعظم في الرسالات هـــي المعاني –كما أسلفنا– والألفاظ إنما تكون لباسا لها فإذا كان المعنى عالميـــا فلا ضير علينا من أن تكون بهذه اللغة أو تلك طالما كان جمال اللفـــظ مناسبا لكمال المعنى.

فمثلا إن حسن تلك المعاني السامية التي تعم الجامعة الإنسانية كلـــها من العدل والإحسان وصلة الأرحام وكذا سوء تلك المنكـــرات الـــتي تحتوي على أنواع الرذائل التي يعم ضررها الجامعة الإنسانية قاطبة أيضـــا مما يدل عليـــها قـــول الله ســـبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ

وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [٥٥] لا يختص بقوم دون قوم بل هي مما يعم نفع المأمور به منها ويعم ضرر المنهي عنه منها جميع عالم البشرية، وضرورة الحاجة البشرية جمعاء إلى التحقق بما أمر به منها والتجنب عن منكراتها بدهية سواء أنزلت باللغة العربية أو باللغة الفارسية أو باللغة الأردية أو بأية لغة أخرى. ولا صلة لعالمية هذه المفاهيم بهذه اللغة أو تلك اللغة من لغة القرآن وغيرها وإن كانت لغة القرآن تتسم بالإعجاز وغيره من المزايا. كما نقلنا فيما سلف عن العلواني قوله: "إن القرآن وإن تترل بلغة عربية لفظا إلا أنه مطلق في معانيه ومحيط شامل مستوعب على مستوى كلي للوجود الكوني وحركته وصيرورته بما في ذلك الأنساق الحضارية والمعرفية التي جاءت من بعده". [٥٦]

ومن باب التقريب نقول ألا ترى أن المنكرين لعالمية القرآن من المستشرقين وغيرهم من المتغربين يحاولون اليوم أن يجعلوا بعض القيم التي هي من بنات فكرهم ومكتوبة بلغتهم ونتاج حضارتهم - رغم أنهم بشر يصيبون ويخطئون ومداركهم محدودة ومعارفهم محصورة- عالميا يعم الأحمر والأسود وهل ألعوبة العولمة التي ابتدعوها في الآونة الأخيرة إلا

(٥٥) النحل، ١٦/٩٠.

(٥٦) طه جابر، حاكمية القرآن، ص ٣٥.

محاولة تطبيقية جادة منهم بهرجوها وزوقوها بذلك الاسم الخلاب لنشر مبادئهم وأفكارهم وقيم حضارتهم على الصعيد العالمي. فيا ترى! ماذا تقول في عقيدة ثم عقل رجل يسوغ أن يكون ما أتى به بشر مثله أو جماعة مركبة من ناس آخرين مثله عالميا ولكن يستبعد أن يكون ما نزل من رب العالمين عالميا؟ أليس يفضل بهذا المنطق السخيف الضعيف بل المهترئ المختلق مدارك الناس ومعارفهم على علم رب العالمين؟ أفلا يكون بذلك معتقدا أن حكمة البشر أعمق وأشمل وأدق وأكمل من حكمة خالق البشر؟ تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا!

فتزول القرآن بلغة العرب ليس مما يستلزم أن تكون الرسالة خاصة بالعرب فقط كما أنه لا يستلزم وحده العالمية أيضا بدون دليل آخر. فاللغة الخاصة – وإن تضمنت بعض المزايا- بالنسبة لعالمية الرسالة وعدمها على حد سواء.

وإلى جنب هذا المنطق القاضي بأن خصوصية اللغات لا تنافي عالمية المعاني

المقروءة هي بها تجد في القرآن حشدا بالغا من نصوصها - يزيد عدد تلك النصوص على ثلاث مائة آية - يصرح على رؤوس الأشهاد لكل قاص ودان، ويعلن في البلاد بين العباد لكل بغيض وحبيب، أن القرآن نزل إرشادا لجميع من في عالمي الإنس والجن. (وسنذكر جملة من الأدلة

إنشاء الله تعالى) فحينئذ لا ينكر عالمية القرآن بعد هذا بحجة عربيتـــها إلا مكابر عن الحق والهدى، محايد عن البر والتقى. فانقلبوا هناك صـــاغرين، ووقع الحق وبطل ما كانوا يعلمون.

٢- تقيد القرآن بنسق البيئة العربية التي نزل فيها

إن هؤلاء القوم مثلهم في موقفهم الهزيل وخطلهم الباطل من القـرآن كمثل الغريق يتمسك بأدنى حشيشة فيتمسكون بأدنى وأضعف شـــيء ظهر لهم، ويجعلونه كأقوى حجة وأظهر حكمة؛ ويعملون بكـــل جـــد وجهد أن ينالوا شيئا من قداسة القرآن ويضعفوها في قلوب المؤمنين بـــه وفي سبيل ذلك يأتون بكل غثاء زائل، و يتفوهون بكل هـــراء بـــاطل؛ ويتمسكون بكل فرية، ولا يتجنبون عن أية فتنة؛ فكل ضعيف وجـدوه، كحجة قوية أخذوه. لأن أحدا من سادقم، بهذا المكر نصحهم: يقـــوم جلادستون وزير المستعمرات البريطانية في مجلس المبعوثين البريطـــانيين آخذا بيده المصحف الشريف قائلا لهم: أيها الزملاء! لا يمكن لنا أن ننال شيئا من مآربنا في المسلمين ماداموا يعظمون هذا القـــرآن ويقدســـونه، فعليكم بأن تعملوا لتوهين عقيدتهم به وتقليل شـــيء مـــن قداســـته في

قلوبهم. فلذا تراهم أبعد خلق الله عن الموضوعية والحيدية والحقية أمـــام الإسلام وكتابه ورسوله، رغما من ادعاءاتهم العريضة بـــأنهم علميـــون، موضوعيون، محايدون، مبتعدون عن تحريف الكلـــم عـــن مواضعـــها. فموقفهم العدائي هذا أمام القرآن ليس أولا ولا آخرا بل كان فيهم ذائعا سائرا أخذوه صاغرا عن كابر.

فلكل ما مر تراهم لا يستحيون في الافتراء على الإســـلام وكتابـــه ورسوله من التنزل إلى أخس دركات المنطق و الاستدلال فيستدلون على بعض دعاواهم- كما مر بنا- بأمور ضعيفة لا يناسب أن يستدل بهـــا لا المجانين المغفلون ولا البلهاء المعتوهون.

إن منهج العقل الرشيد في محاولاته الاقتناعية والإقناعية أن ينطلـــــق حينا من الكليات كي يستدل بها على الجزئيات وحينـــا آخـــر يرتـــب الجزئيات كي يحصل منها أمرا كليا ويعممه على الجزئيات الأخرى.

فالعقل السليم بمنهجيته الاستدلالية تلك يقضي أن ما تمســـك بـــه التاريخانيون من أن تقيد القرآن بنسق البيئة العربية يدل على عدم عالميتـــه وعلى أنه مختص بالعرب وأن أحكامه منحصرة في ذاك الإطار الذي نزل فيه أضعف من كل ما يجوز للعاقل أن يستدل به ســـواء انطلـــق مـــن الكليات إلى الجزئيات أو جمع الأمر الجامع بين الجزئيات فصاغ منه أمـــرا كليا يشمل الجزئيات الأخرى؛ ولكنهم قوم ليس هدفهم تحـــري الحـــق

والصواب فيرتدعوا بنصائح العقل الحكيم عن غيهم وسفههم ويقتنعوا بما يقدمه لهم من المعطيات الحقة ولا يستحيون فيترجروا عن التمسك بمثل هذه الأمور الضعيفة لأن لهم منطلقا معروفا محددا وهو "ألق الطين يبق الأثر". وهذا المنطق الخائن الشائن هو المنطلق لكثير من مكائدهم اللاتي يبذلونها لتقويض الإسلام في قعر دياره.

والأمور التي ينطلقون منها ويبنون عليها ادعائهم أن القرآن مقيد بمضامينه بنسق البيئة العربية التي نزل فيها نسردها كما يلي:

١- يزعمون أن بعض القرآن نزل لبعض أسباب واقعة في تلك الأوساط العربية الخاصة (أي ما يسمى بأسباب الترول) مما يدل على أن القرآن مشدود برسالته وشرائعه ومربوط بتعاليمه ومبادئه إلى الوسط العربي الخاص موقوف عليه فقط وليس مربوطا بالكيان الإنساني المطلق حتى يكون مدى الدهر كله هدى للعالمين ورحمة وبشرى عبر التاريخ كله لجميع المسلمين.

٢- وكذا يزعمون أن ذكر القرآن لمثل الإبل من بعض تلك الأمور والأحداث التي كانت موجودة في البيئة العربية يدل أيضا على خصوصية خطابه.

٣- يدعون أن إلمام القرآن ببعض العادات والتقاليد العربية كـــالتبني وتعدد الزوجات وغيرها أيضا يدل على تقيد خطابه بالعرب لا العـــالمين جميعا.

هذه جملة من ادعاءاتهم [٥٧] التي يدعون بها أن القرآن مقيد إلى نســـق البيئة العربية وهي تدل على عدم عالمية القرآن بل تقيده بالبيئة التي نـــزل فيها.

فأولا إن من أدنى نظرة عابرة على أساليب القرآن في أدائه وجمـــل خطاباته الموجهة للناس من غير تقييد بأي مخصص أو مميز أو محدد يظـهر لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد أن هذا القرآن لا يتترل مستوى خطاباته إلى المستوى القبلي أو الجنسي أو الجغرافي أو مـــا إلى ذلك من المفارقات البشرية. بل هو متجه بجميع خطاباتـــه وتوجيهاتـــه وتكاليفه إلى جميع المكلفين من العرب المصـــاقبين لترولـــه إلى ســـاكني القطب الشمالي الذين يبعدون عنه بعشرات الألوف من الكيلو مـــترات فهو كما قال السيد رحمه الله: "لا يختص به قوم ولا جنس ولا قريـــب

(٥٧) ذكر الباحث التركي محمد باجاجي في مقال له نشر في مجلة البحوث الإســـلامية باللغـــة التركية الصادرة في أنقرة نحوا من هذه الادعاآت قريبة منها معنى وإن خالفتها مبنى انظـــر: Mehmet Paçacı Kuran ve Ben Ne Kadar Tarihseliz, İslami Araştırmalar c. ٩, Say.١,٢,٣,٤, Ankara ١٩٩٦, s. ١٢٤.

ولا بعيد إنه هدى الله لتذكير البشر كافة"[٥٨] فإن ملامح عالميته تفيض من جميع جوانب أساليبه: من كلماته إلى هيئات جمله، ومن معانيه إلى مفاهيمه، ومن تشريعاته إلى أخلاقياته كما سنبين ذلك بالتفصيل إن شاء الله تعالى. إن هذا ليس ادعاء حماسيا أو رجما بالغيب بل نفس واقع القرآن الذي سار مع القرآن منذ أن نزل و لم يفارقه فيما مضى ولا يفارقه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ولا ينكر هذا ممن اطلع على أساليب القرآن إلا قلوب لم يتدبروه وعليها أقفالها ونفوس منكرة لها نحو الإسلام أغراضها.

وثانيا إن القرآن حينما يبين دور الرسالات يلفت أنظار الناس إلى نقطة هامة في بيان موقفهم من الأنبياء وما ينبغي أن تكون عليه نظرة الناس إليهم وهو أن الأنبياء مهما كانوا مرسلين من الله سبحانه إلى الخلق برسالات سماوية لكنهم لا يتعدون أن يكونوا بشرا مولودين بين البشر معروضين لجميع العوارض البشرية إلا ما يتنافى مع طبيعة الرسالات الربانية وعصمهم الله منه : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ [٥٩]، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا

(٥٨) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، الطبعة التاسعة دار الشروق بيروت ١٤٠٠/١٩٨٠، ج ٢، ص ١١٤٥.

(٥٩) يونس، ١٠/٢.

مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِيَ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾[٦٠]، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ.. ﴾[٦١] فالرسل لا يكونون إلا من الناس حتى يكونوا للناس أسوة يقتدون بهم في حياتهم وجميع أفعالهم وحركاتهم وسلوكياتهم وتقلباتهم التي يطلب الله من عبده أن تكون في دائرة العبودية الصادقة مع الله، ووفق المنهج الذي حدده عبر رسالاته لهم وأنزله مع رسله إليهم. ومن هنا يبين الله سبحانه أن لو كان الأنبياء من الملائكة لاقتضت الحكمة أن يجعلوا عبر حياتهم الدعوية والتبليغية في صورة الرجال: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾[٦٢]، حتى يتيسر الاقتداء بهم فيما ذكرنا من الممارسات الإنسانية والملابسات البشرية. فإن من لم يكن معروضا للعوارض البشرية و لم يكن فردا من الناس يعيش بين الناس: بأن يسير و يمشي بين الناس، يأكل ويشرب مع الناس، يبيع ويشتري بين الناس، يحب ويبغض الناس، يصح ويمرض كالناس، يلد ويولد مثل الناس، يتناكح ويتناسل شبه الناس يحارب ويسالم مثل الناس ،فإن من لم يكن

(٦٠) يوسف، ١٢/١٠٩.

(٦١) الأنبياء، ٢١/٧، النحل، ١٦/٤٣.

(٦٢) الأنعام، ٦/٩.

كذلك لا يمكن أن يكون قدوة للناس يبين لهم بأفعاله وأحواله وبفعالياته وسلوكياته المنهاج الرباني الذي حدده الله لعباده عبر رسالاته وكلفهم بالتكيف والتخلق بها في جميع سلوكياتهم وواقعيات حياتهم على كلا الصعيدين الفردي والاجتماعي. فإذا لابد وأن يكون الرسل من الناس، وإذا كانوا من الناس فلا بد أن يكونوا مبعوثين من قوم من الأقوام، وإذا بعثوا من بين قوم من الأقوام فلا بد من إيصالهم الدعوة أولا إلى المحيط الذي يحيط بهم: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [٦٣] ثم يتدرجوا في إنذارهم وتبشيرهم من الدائرة الضيقة إلى دائرة أوسع إذا أريد بالرسالة أن تكون عامة غير خاصة بقوم النبي المرسل كما في رسالة الإسلام: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ [٦٤] ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ [٦٥] فما يرى في حركة الرسالة الأحمدية من منعطفات إن هي إلا للتدرج مع الناس حتى يتعودوا شيئا فشيئا على بعض معالم الدعوة الجديدة وطبائعها.[٦٦] وليست تلك الآيات التي تأمر بتبليغ الدعوة إلى الدائرة الخاصة من الأقارب والمكيين متعارضة مع الآيات التي تعرب

---

(٦٣) الشعراء، ٢١٤/٢٦.

(٦٤) الأنعام، ٥١/٦.

(٦٥) إبراهيم، ٤٤/١٤.

(٦٦) انظر يوسف القرضاوي، **المرجعية العليا**، ص ١٩٤-١٩٥.

عن عالمية القرآن لأنه لم يبين في أية واحدة من تلك الآيات أن الدعوة منحصرة في تلك الدائرة الخاصة كأن قيل لا تنذر إلا عشيرتك الأقربين وما ضاهاها بل كل ما فيها أنه ورد فيها أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يبدأ في مرحلة (أولية) من مراحل الدعوة بإنذار عشيرته الأقربين ثم بعد ذلك أردفت تلك المرحلة بالمراحل التي تليها. مع أن الصيغة القرآنية هذه لا تنافي بينها وبين العالمية، كما لا يوجد تناف بين إنذار العشيرة الأقربين وإنذار أم القرى و من حولها، وإن كانت الدائرة الثانية أوسع من الدائرة الأولى. بل هي خطوات أولية في الدعوة ستتبعها الخطوات التالية كما أسلفنا آنفا. ومن أدل الدليل على ذلك أنك ترى أن القرآن أعلن في سورة الأنعام قبل الآية التي يجعلوها دليلا على مدعاهم وهي قوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [٦٧] أعلن قبلها —في تلك السورة التي نزلت جملة واحدة– بآية واحدة عالميته بصيغة الحصر حيث لا لبس فيها ولا غموض: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ۝٩٠ ﴾ [٦٨]. وكذا بين عالميته في آيات مكية كثيرة غيرها

(٦٧) الأنعام، ٦/٩٢.

(٦٨) الأنعام، ٦/٩٠.

أيضا. وقد ذكرنا بعضا منها فيما سلف.

وهنا ندع المجال **لطه جابر العلواني** يبدي رأيه بعقله الجوال وقلمه السيال:

"إن علاقة القرآن ببيئة نزوله العربية هي علاقة المطلق بالنسبي واللامحدود بالمحدود واللامقيد بالمقيد، وإن السنة النبوية قامت بدور المبين لمنهجية تعلق المطلق القرآني بالواقع النسبي.

إن الخطاب القرآني ليس نصوصا محدودة ومتناهية على مستوى المعاني وتفرعاتها. وإن كان نصوصا محدودة ومتناهية على مستوى اللفظ.

إن تترله قبل أربعة عشر قرنا تضمن خاصيتين: هيمنته وإحاطته بما سبق من الأزمنة، وقدرته على استيعاب ما يليه من الأزمنة، فهو المصدق والمهيمن على ما سبق، والمستوعب والمهيمن والمتجاوز لما لحق، إذا فعالمية الإسلام تبدأ من فهم خصائص الكتاب المتضمن لعالمية الخطاب المستوعب، المتجاوز بذات الوقت لإشكاليات كافة الأنساق الحضارية والمناهج المعرفية والإدراكية لا في الماضي فحسب، لكن في الحاضر والمستقبل أيضا، لا للعرب والأمم المختلفة التي اعتنقته في فترة انطلاقه الأولى في شعوب العالم القديم من فرس وهنود وترك وسواهم ولكن لكافة البشرية، إذا فهم أنه الحاكم المعادل للكون، غير أننا لا ننتظر

اكتمال هذا الجهد الضروري دفعة واحدة، فخصائص العالمية مع ظهورها في القرآن الكريم وفي صيرورة التاريخ الإسلامي، لكنها لم تتحول إلى منهج بعد أو محدد منهاجي، ولكن العالمية وختم النبوة وحاكمية الكتاب خصائص يشد بعضها بعضا وتدل كل خاصية على الأخرى إذا رتبت ذهنيا ومعرفيا بنحو سديد، ويمكن ترتيبها بالشكل التالي:

أولا: ليكون الخطاب عالميا كان لا بد من "ختم النبوة" وذلك لتوحيد المرجعية الإنسانية، فلا تتعدد النبوات التالية حتى يحدث النسخ والتعارض والاختلاف والتشرذم حول تلك النبوات، وليتحمل الإنسان القارئ مسؤولياته.

ثانيا لكي يكون الخطاب عالميا كان لا بد من تحرير القرآن من خصوصية بيئة التزول، ولهذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبريل بأن يعاد ترتيب مواقع آيات القرآن وحيا وتوفيقا على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل التحاقه بالرفيق الأعلى ليتضح بذلك ما هو مطلق منه وما هو نسبي.

ثالثا: ليكون الخطاب القرآني عالمبا كان لا بد من نسخ الشرائع ذات الخصوصيات الحصرية لشعوب وقبائل محددة، وهي شرائع إصر وأغلال لتستبدل بشرائع القرآن الكلية التي تتفق مع حاجات المجتمعات

العالمية كافة، حيث تحمل قابلية الشمول والعموم لتكون مشتركا إنسانيا قابلا للتطبيق في سائر أرجاء العالم،وهي شرائع تقوم على الحدود الدنيا القائمة على التخفيف والرحمة، وضبط حركة الإنسان في دائرة الأمانة والاستخلاف والعمران والابتلاء.

رابعا: ليكون الخطاب عالميا كان لا بد أن تتضمن النصوص اللغوية المحدودة معاني إطلاقية تكتشف عبر اكتشاف "منهجية القرآن المعرفية" ضمن "وحدته البنائية".

حين ننطلق من هذه المسلمات العقدية بوصفها فرضيات علمية موضوعية تؤكد في ترابطها على عالمية الخطاب الإسلامي قد نكتشف أن قدرا من هذه الخصائص القرآنية هو من البدهيات التي بين أيدينا، لكننا لم نلتفت قبلا إلى آثارها المنهجية مثل ختم النبوة، شرعة التخفيف والرحمة، حاكمية الكتاب المطلق في معانيه البشرية كلها وصيرورته مع الزمان ومرورالمكان، فالخطاب التاريخي إذ يبدأ بالحالة العائلية فيذكر آدم: ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [٦٩] فإنه يتدرج ليخاطب حالة قبلية أكثر اتساعا من العائلة: ﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ

(٦٩) البقرة، ٢/٣٥.

أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾[٧٠]، ثم يمضي ليخاطب حالة قبلية أيضا أكثر اتساعا من العائلة فيقول: ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾[٧١] ويقول: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[٧٢] ويقول: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾[٧٣]، ثم يتدرج بعد أن يخص قومه وعشيرته الأقربين في الإنذار ليعم بها الخلق بعدهم، وليخاطب البشرية كلها، وليخاطب حالة أمة أكثر اتساعا من القبيلة والقبيلة.قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾[٧٤]، أي هم الأمم التي لم تحظ برسول أو نبي من قبل....لكن رسو ل الله صلى الله عليه وسلم لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى حتى اتسع الخطاب الإلهي التاريخي من بعد العائلة والقبيلة والأمة إلى الحالة العالمية. فيترل عليه قول الله جل شأنه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[٧٥] ومثل هذه الآية وردت في سورة التوبة

---

(٧٠) البقرة، ٢/٤٠.

(٧١) الشورى، ٤٢/٧.

(٧٢) الشعراء، ٢٦/٢١٤.

(٧٣) الزخرف، ٤٣/٤٤.

(٧٤) الجمعة، ٦٢/٢.

(٧٥) الصف، ٦١/٩.

(٣٣)، وفي سورة الفتح يقول سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾[٧٦] فيتطابق التدرج الخطابي الإلهي التاريخي مع حالات التشريع المختلفة، فلكل حالة مميزاتها التشريعية الخاصة، ولكل نبي من الأنبياء خواص معينة، ولكل منهم جعل الله شرعة ومنهاجا.[٧٧]

وهناك صورة أخرى من صور ذلك التدرج في الخطاب الإلهي حينما يوجه الخطاب للناس جميعا ب"يا أيها الناس" يدعوهم إلى الإيمان عبر كثير من الآيات المكية فإذا أجابوا دعوة الله خوطبوا ب"يا أيها الذين آمنوا"[٧٨]. فإذا جميع تلك الخطابات الواردة في صورة "يا أيها الذين آمنوا" أيضا تدل على عالمية رسالة القرآن بوضوح وصراحة لأن الإيمان باعتبار طبيعته وبالإضافة إلى أن الله يريده من جميع الناس وصف عالمي لا يخص به قوم ما فيدخل تحت خطاب "يا أيها الذين آمنوا" جميع من آمن من عرب ومن عجم.

---

(٧٦) الفتح، ٤٨/٢٨.

(٧٧) طه جابر العلواني، **حاكمية القرآن**، ص ٣٥-٣٨.

(٧٨) أحمد حسن فرحات، **الأمة في دلالتها العربية والقرآنية**، كلمة نشرت ضمن مؤتمر الحضارة الإسلامية ودور الشباب المسلم، المنعقد في الرياض، الطبعة الثانية، الرياض ١٤٠٥/١٩٨٥، ج ١، ص ٣١١.

وكما أن من مقتضيات الحكمة التدرج في الدعوة فكذلك من مقتضياها أن يتآلف النبي مع قومه الذين بعث منهم كما قال الله عز وجل: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [٧٩]، ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [٨٠] وكذلك من متطلبات الحكمة أن تتآلف رسالته وتتفاعل دعوته أيضا معهم، وتآلف الدعوة وتفاعلها مع الإطار القريب يقتضي أن يكون بعض منطلقات الدعوة الواقعيات التي تعاش في ذلك الإطار الذي بعث الرسول منه لأن تفاعل المرء مع معروفاته أكثر وقبوله لما يمكن أن يبنيه على معلوماته أسهل، واستنتاجه من مسلماته أيسر فقديما قالوا : "المرء عدو لما جهله" والعقل الحكيم قاض بذلك فلذا كانت المشهورات والمسلمات -على حد علم المنطق- من إحدى طرق الاستدلال من قديم الزمان[٨١] وكل هذا يقتضي أن يذكر في بعض أجزاء

---

(٧٩) آل عمران، ١٥٩/٣.

(٨٠) القلم، ٦٨/٤.

(٨١) انظر كتاب البرهان للكلنبوي، مطبعة درسعادت، إستانبول ١٣٠٦، ص ٥٢ وأحمد الصدقي.البرسوي ميزان الانتظام شرح الرسالة الشمسية،، مطبعة عامره إستانبول ١٣٠٥، ص ٣٠٨.

الرسالة/القرآن بعض ما يعرفونه أكثر من غيره سواء من المعلومات التاريخية كما في قصص الأنبياء الذين كان العرب والمتاخمون لهم ممن في الشرق الأوسط عامة وأهل الكتاب خاصة على صلة بالبعض من معلوماتهم – ولو ضعيفة– وسواء من الموجودات التي يستشهد بها على عظمة الخالق سبحانه كما في: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾[٨٢].

وكذلك من مقتضى الحكمة التربوية أن يعودهم القرآن عبر ما ينتابهم من الأحداث والأزمات أو المشاكل على المثاليات والكماليات من فضائل الخصال التي هي أهم ملامح الحياة الجديدة مما جعله القرآن نصب عينيه لتربية الجامعة الإنسانية عليه فترل بعض القرآن إجابة عن

---

(٨٢) الغاشية، ٨٨/١٧. ولا ننسى أن الإبل ليست خاصة بالبيئة العربية كما زعمه التاريخانيون بل مشتركة بينها وبين غيرها من البلاد فإنها توجد في بعض الدول الأفريقية كما سمعنا ذلك عنهم وتوجد في كل من طاجكستان، وقرغزستان وتركمنستان وأوزبكستان وتركستان وغيرها من دول آسيا الوسطى وبعض مناطق تركيا وغيرها أيضا بكثرة. وهناك شيء آخر يدل على عالمية القرآن يتعامى عنه هؤلاء وهو أنك ترى أن القرآن حينما يذكر أدلة التوحيد لا يكتفي بما هو معروف للعرب فقط بل يتعدى ذلك إلى ما هو غير معروف في ثقافتهم كذكر ما هو معروف لأهل شواطئ البحار من تذكير نعمة الله في تسخير الفلك المشحون وخلق اللؤلؤ والمرجان مما هو من مستخرجات البحار وذكر تلك الأمواج العظام وخلق الظلمات الثلاث في البحار وغيرها مما لم يكن معروفا في الثقافة العربية حينئذاك.

بعض ما يهمهم من المشاكل أو بيانا لما ينتظرونه من الحلول كي يـــزداد الذين آمنوا إيمانا مع إيمانهم كما في آية الممتحنة التي نزلت بما وقع مـــن حاطب بن أبي بلتعة، وكما في آيات الإفك التي نزلـــت في عائشـــة أم المؤمنين رضي الله عنها. علما منا أن تلك الأمور التي ذكرهـــا القـــرآن وليست من الأمور الخاصة بالبيئة العربية أكثر من المختصة بها بكثـــير. فالقرآن راعى في خطاباته الحكيمة كلا المحيطين الخاص والعام، وانطلاقـــا من الدور الذي أخذه الفرقان الحكيم –وهو هداية العالمين جميعا- كـــان اهتمام القرآن في استدلالاته بالأحداث الكونية العامة الـــتي لا تخـــص بوسط دون آخر أكثر وأوفر، فبينما ترى أن الإبل – وهو مـــا يخـــص بالبيئة العربية على زعمهم وليس بذاك كما ذكرنا في الهامش- ذكـــر في القرآن مرتين فقط ترى مثلا أن البحر والاستدلال به ومـــا يجـــري في ساحته ذكر ٤١ مرة. ولا جرم أن أقل شيء كان موجـــودا في ثقافـــة الوسط الذي نزل فيه القرآن هو البحر. فإن دل ذكر الإبل على عـــدم عالميته مرة حسب مزاعمهم دل إذاً ذكر البحر مثلا مما لا يخص البيئـــة العربية على عالميته واحدا وأربعين مرة.

وكذلك من مقتضى الحكمة أن القرآن يذكِّر الناس الذيـــن كـــانوا شاهدوا نزول القرآن ببعض من مواقفهم الطيبة أو المخزية إما تذكـــيرا ببعض نعم الله عليهم بتوفيقهم للنصر والنجاح وتحريضا لهم على الجـــهاد

ونصرة الإسلام أو توبيخا بما أظهروه من تلك المواقف الغير الجميلة أو دلالة على ما هو خير لهم في الدارين وأبقى أو إرشادا لهم إلى ما هو أطهر لهم عند ربهم وأزكى.

وما من هذا القبيل أي الذي نزل إعرابا عن بعض الحالات الطارئة للمؤمنين كالذي نزل غب وقوع بعض الأسباب تظهر أهميته أكثر وحكمته أبين حيث يبين الوحي بذلك التنزل على مستوى بعض الأحداث الجزئية المنهاجَ الذي يريد الله من عباده أن يسيروا عليه وأن يكيفوا حياتهم طبق معالمه ورسومه. مع ملاحظة أن تلك النصوص النازلة أثناء الأحداث المستجدة لا تبقى أبدا من ناحية قوالب الألفاظ المنسوجة على قامة المعاني في دائرة التحديد والتخصيص بحيث يبقى النص مربوطا بذلك الحدث فقط لا يشمل غيره.

وانطلاقا مما يرى في صياغة النصوص اللفظية من العموم تبلورت عند الأصوليين تلك القاعدة المستفيضة: **العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب** وسنتناول ذلك بصورة أكثر إسهابا وتفصيلا إن شاء الله تعالى.

ونلخص ما نراه كسبب اقتضى نزول الوحي إجابة عن متطلبات الوقائع التي سميت فيما بعد بأسباب النزول وكحكمة اقتضت إفصاح

الوحي عن بعض تلك الملابسات الخصوصية التي لابست الأوساط التي نزل فيها الوحي من أحداث الغزوات وغيرها وكذا ما اقتضى إلقاء الضوء على بعض تلك الأمور التي كانت سائدة في تلك البيئة المتترل فيها الوحي من إبطال بعض كالتبني وإصلاح بعض كتعدد الزوجات وتقرير آخر كالسعي بين الصفا والمروة وغيرها نلخص ما نراه السبب والحكمة في ذلك فيما يلي:

أ- تربية الجماعة الأولى

إن تلك الجماعة الأولى التي شاهدت نزول القرآن عن كثب هي النوى الأولى التي ستحمل الدعوة الجديدة على أكتافها إلى تلك الآفاق الواسعة والأماكن الشاسعة وهم الذين سيبلغون تلك الرسالة إلى البلدان الدانية والممالك النائية فكلما ازدادت تربية هذه الجماعة حسنا عند العقول، وقبولا لدى القلوب، ورسوخا في الصدور، وثقة وطمأنينة لدى النفوس كان تبليغ الرسالة عبر قنواهم أسهل وأشمل وأكمل. وهذا ما وقع فعلا عبر القرون الأولى في التاريخ الإسلامي. إن أكثر الباحثين يقبلون بل يعلنون أن انتشار الإسلام في أقل من قرن إلى تلك القارات

الثلاث التي هي أعظم قارات الدنيا وأكثرها كثافة للسكان يـوم ذاك لم يكن إلا بما تمتعت به تلك الجماعة المسلمة الأولى مـن الأخلاقيـات الإسلامية الحسنة والسلوكيات الإنسانية العفيفة من عدل في الأعمـال وصدق في الأقوال ووفاء بالوعود والتزام بالعهود وإخاء بـين الجميـع وإيثار بالموجود وتضحية بالنفس والنفيس ورحمة في البلاد وشفقة علـى العباد ونصح للناس وغيرها.

يقول المرحوم دراز (ت ١٩٥٨): "المبدأ القـرآني الـذي نسـميه الإسلام... هو ذلك الإصلاح الديني والاجتماعي والأخلاقـي الـذي بمجرد أن ظهر على ساحل البحر الأحمر في بداية القرن السابع الميـلادي سار بخطوات منتصرة نحو الشمال والجنوب ونحو الشرق والغرب حـتى أنه في فترة قصيرة نسبيا انتشر في نصف العالم المعروف في ذلك الحين"

"هذا الحدث التاريخي الجليل الذي لا مثيل له على مر الزمان قد أثار اهتمام الإنسانية جمعاء...ولقد حاولوا أن يجدوا له شبيها في العصـور القديمة دون جدوى."[٨٣]

فإذا التربية الكاملة الباقية المثمرة لتلك النوى الأولى تقتضي أن يزداد اهتمام الوحي بهم عبر آيات القرآن تربية وتوجيها وإرشـادا وتسـديدا

(٨٣) محمد عبد الله دراز، **مدخل إلى القرآن الكريم عرض تاريخي وتحليل مقارن**،ترجمة محمـد عبد العظيم علي دار القلم الكويت ١٤٠٤/١٩٨٤، ص ٥٢.

وهذا أتى معه بنتيجة أن يتزل القرآن تفصيلا وتحليلا لبعض مشـــاكلهم واستبانة لوجه الصواب وسمت الرشاد فيما يهمهم ومن هنا نزل بعـــض الآيات غب بعض تلك الملابسات التي سميت فيما بعد بأسباب التزول.

وكذا تقتضي عقلية التربية الناضجة الحكيمة أن يتركز القـــرآن في بعض من نصوصه على ما هو معلوم ومعروف عندهم من مثـــل تلـــك الأحداث التي عاشوها والوقائع التي خاضوها في وقعة بدر والأحـــزاب وغزوة العسرة وبني قريظة وخيبر وغيرها من بعض تلـــك الملابســـات والأمور التي وقعت على مرأى ومسمع منهم وكـــانت مـــلء الســـمع والبصر فيهم، ومر الجماعة الأولى عبرها بابتلاءات عظيمـــــة وفـــترات عصيبة نجح فيها من نجح وفشل فيها من فشل، وتلقت الجماعـــة الأولى على مداها دروسا هامة جمة الفوائد وأحدثت لدى البعض منهم آثـــارا إيجابية ولدى البعض الآخر آثارا سلبية: فمن جانب هناك فئة من تلـــك الجماعة تقول: هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ومن جانب آخر هناك فئة أخرى تقول: ما وعدنـــا الله ورسوله إلا غرورا. فهم كانوا يتعرضون لأخطر المواقف كمـــا أخـــبر

القرآن عنهم: ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾.[٨٤]

فمن هنا ترى أن يد الوحي الحانية تتعهد تلك البذور الأولى لحاملي الدعوة الإسلامية بعطفها وتربيتها بين حين وآخر، تتعطف عليها وتستلطف معها فهي لا تزال دوما معهم في رفق وحلم ولطف وأناة وهم لا يزالون يحسون ببرد رأفتها في صدورهم، وثلج رحمتها في أكبادهم، ولذة حنانها في قلوبهم بما تعرب لهم بين حين وآخر عما يترل بهم من فينة إلى أخرى كما روي أنه حينما نزل في حاطب بن أبي بلتعة أولى آيات الممتحنة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ أغمي عليه من شدة الفرح بما وجده في ذلك التعبير الإلهي: « **يا أيها الذين آمنوا**» من لطف ورأفة وحنان.[٨٥] فكان الوحي: يسدد خطأهم ويصلح فسادهم ويزيل خللهم ويزيح عللهم ويصوب وجهتهم ويقوم رميتهم ويحق حقهم ويبطل باطلهم، ويبين رشدهم في أمرهم ويوجههم إلى كل بر وخير ويجنبهم عن كل سوء وشر.

ثم إن الوحي حينما يذكر تلك الأمور إنما يذكرها على سبيل

---

(٨٤) الأحزاب، ٣٣/١٠-١١.

(٨٥) القرطبي، **جامع البيان**، ج ١٨، ص ٥٢.

التذكير بنعم الله كي تتربى تلك الجماعة الأولى على روح الطاعة والتسليم والوفاء وكان يأتي أثناء بلاغه بألفاظ وعبارات وتراكيب تحتوي على دروس وعبر يستفيد منها الأجيال والأقوام في جميع الأمكنة والعصور وعلى جميع المستويات والطبقات: "هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولو الألباب". وبذلك تتألق أنوار عالميته على مجموعه عبر سبيكته المأخوذة من الكل المجموعي.

كما أن علاقة نصوص القرآن بتلك الأمور الخاصة علاقة المطلق بالنسبي واللامحدود بالمحدود واللامقيد بالمقيد.[٨٦] فمن هنا ترى أن بعض تلك النصوص رغما من خصوصية بعض جوانبها تتضمن دروسا كثيرة للأجيال القادمة في جميع قطاعات المستقبل و لا تنفد رسالاتها ومعانيها ولا تنتهي عبرها ودروسها ولا تنقضي حكمها و أحكامها.

أما مثل قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ [٨٧] مما يمكن أن يتمسك به هؤلاء فإنما ورد بهذه الصياغة حيث يبين أن الحكم (الرسالة) إنما نزل بلسان عربي[٨٨] لتأليفهم والاستلطاف بهم فتوجيه

(٨٦) طه العلواني، حاكمية القرآن، ص ٣٥.

(٨٧) الرعد ١٣/٣٧.

(٨٨) انظر محمد بن علي الشوكاني، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى بيروت ١٤٢١/٢٠٠٠، ج ١، ص ١١٣٦؛

الخطاب بهذه الصياغة (حكما عربيا) جزئي من تلك الممارسات التربوية لتلك الجماعة الأولي التي يعالجها النص المجيد وكذلك يكثف حشدا بالغا من توجيهاته عبر كثير من الآيات على تلك الممارسة التربوية ويصوغها بالصياغة المتلائمة مع ذلك المنهج التربوي الرفيع الذي يسير عليه فمثلا يؤكد في تسع آيات عدا هذه الآية كون القرآن قرآنا عربيا أو نزل بلسان عربي وفي كل ذلك امتنان واستلطاف بتلك الجماعة التي نزل فيهم وبلغتهم.

ب- تعلق البعض بالتاريخ لا يقتضي تعلق الجميع

إن القرآن خطاب الله المترل لهداية الناس إلى خيري الدنيا والآخرة فهو كتاب وضع أصول المنهج الدائم لحياة إنسانية متجددة وترك للبشرية أن تستنبط الأحكام الجزئية التي تحتاج إليها ارتباطات حياتها النامية المتجددة[٨٩] كتاب جامع لكثير مما يهم البشرية أنزله الله ليبلغ للناس

وعبد الحق ابن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى بيروت ١٤١٣/١٩٩٣، ج ٣، ص ٣١٦.

(٨٩) سيد في ظلال القرآن، ج ٤ ص ٢٤٠١.

حتى يحيى من حي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة. ووفق سنن الله الجارية في الكون كان لزاما لحمل هذه الرسالة إلى الآخرين وجود جماعة متفاهمة معها، متفاعلة بها، متآلفة إليها، متعارفة معها، وكل هذا التفاعل وما إليه يقتضي أن يكون هو المصدر الوحيد لهم بحيث إليه يردون وعنه يصدرون وعليه يجتمعون ومنه يتفرقون وبه يهتدون ومنه يستضيؤن. وهذا أيضا يقتضي أن يكون ذاك الكتاب مبينا لهم مشاكلهم اليومية وأحداثهم المفاجئة وأزماتهم التي ارتبكوا فيها، يربيهم على ضوء تلك الأحداث والنوائب بما يستخرج منها من الدروس والحكم فوقع أثناء النص من جراء ذلك بعض الخصوصيات التي كانت تهمهم وحدهم. ولكن ليس من المنطق والحكمة في شيء أن تجعل تلك الخصوصية التي تخص البعض الخاص القليل شاملة للكل العام الكثير ويرفع بذاك أهم الميزات – العالمية –التي تعلنها نصوص كثيرة من الكتاب والسنة. فكما أن من الجائز عقلا والواقع كثيرا أن يحمل جزء من كل ما شيئا من الأوصاف غير ما يحمله الأجزاء الأخر من ذلك الكل فمثلا يوجد بعض من البقع السود في السطح الأبيض أو بالعكس ولا يتنافى أي منهما للآخر، ولا يستلزم وجود أحدهما أن يكون باقي السطح على نفس الشيء، كما لا يمنع ذلك من حمل الأبيض على الكل إذا كان الأبعاض البيض أكثر من الأبعاض الأخر السود. فكذلك وجود البعض من

النصوص الخاصة -في القرآن- التي خاطبت بمدلولها ومنطوقها في قطاع خاص من الزمن قطاعا خاصا من المخاطبين كالآية العاشرة والحادية عشرة من الممتحنة لا يستلزم لا عقلا ولا نقلا ولا حكمة ولا فلسفة أن يكون الجميع الباقي من القرآن أيضا خاصا غير عالمي وهذا من البداهة بمكان.

ج- الانطلاق من الواقعيات أنفع في إصلاح النفوس وتهذيبها

إن التعلق بأهداب النظريات إنما يفيد إلى درجة ما وبالنسبة للذين لهم مستوى من العلم والمعرفة والثقافة وأما الانحصار فيها فقط وخصيصا في قوم أميين فربما لا يفيد الفائدة المرجوة لأن تلك النظريات المقطوعة الصلة عن الواقع تكون بمنزلة تلك الكلمات العائمة في الفضاء التي لا تمس أرض الواقع ولا تتواجه بحقائقه فكما أن مفعول تلك الكلمات عديم أو ضئيل جدا فكذلك النظريات البحتة إنما تثمر إذا ما تواجهت مع حقائق الواقع، ولم تبق في دنيا التصورات فقط.

فالقرآن الحكيم لا يدخل في ذلك العالم المظلم عالم النظريات البحتة المعقدة المبهرجة ظاهرا الخالية البالية باطنا بل يجعل منطلقه واقعيات الحياة

التي هي ملموس المخاطبين ومحسوسهم أبدا فلذا لم تقع في القرآن نظرية واحدة فقط ولا تعريف واحد فقط من خضم تلك النظريات والتعاريف العلمية الكثيرة المائج بعضها في بعض رغما من وجود الحقائق العلمية المتنوعة من شتى العلوم والمعارف بكثرة فائضة فيها. فانطلاقا من هذا حينما يريد القرآن أن يربي تلك الجماعة الأولى على روح التضحية والصمود ويجنبهم من تلك المواقف المخزية المردية مما وقع فيه المنافقون الأوائل وأن يجعل منهم نموذجا مثاليا للأجيال الآتية فيما بعد حينما يريد القرآن ذلك لا يكتفي بآيات الصبر والجهاد فقط بل يذكرهم - تجنيبا وتبعيدا- لهم ببعض مواقفهم التي انخذلوا فيها عن نصرة رسول الله ﷺ:

﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[٩٠] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[٩١] ﴿ رَضُوا بِأَن

(٩٠) آل عمران، ٣/١٥٣.

(٩١) آل عمران، ٣/١٥٥.

يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[٩٢] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾[٩٣]

إن منطلق هذه الآيات وأمثالها وإن كانت تلك الأمور الواقعة في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم لكنها تعطي في تربية ذلك الجيل ومن سيأتي بعده دروسا عظيمة مليئة بالحكمة والموعظة لا تنفد مدى الدهر، ونهل من معينها كل جيل جاء بعد الرعيل الأول عبر التاريخ و لم تزل نبعا ثرا فياضا لتوجيه الأمة لا الإسلامية فقط بل عالم الإنسانية كلها إلى الرشد والسداد. فلما تفي به تلك الآيات التي تذكر الأمور الخاصة

---

(٩٢) التوبة، ٩/٨٧-٨٨.

(٩٣) الأحزاب، ٣٣/٩-١١.

بعصر الرسول أو العادات الخاصة بالوسط العربي الذي نزل فيه القرآن من هذه الدروس والعبر تتبلور عالميتها لكل ذي عقل ولب ولا ينافيها ما تتضمنه من واقعيات عصر النزول أبدا.

ثم إن تصدير غالبية تلك الآيات ب"وإذ" أو "إذ" أو "يا أيها الذين آمنوا"[٩٤] يؤيد ما ذكرنا فإن من عادات الفرقان الحكيم في أساليبه الكلامية هو أنه يصدر ما يذكره للعظة والاعتبار بأمثال تلك الكلمات.

ويؤيد هذا المعنى أيضا ما ترى أن الفرقان الحكيم يختار حينما يعرب عن واقعيات عصر الرسول صلى الله عليه وسلم أو عادات قومه - مهما خص الأمر وحدد- يختار أعم الإفادات وأشمل التراكيب ما وسع لذلك المقام والمرام.

فمثلا أمعن النظر في هذه الآيات هل ترى فيها من المحددات والمخصصات ما يجعل دروسها خاصة بمن نزلت فيه - وهم مشركو قريش الذين كانوا في بدر- و لا تتعداهم: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ

(٩٤) راجع سورة آل عمران، والأنفال والأحزاب ترى ذلك بوضوح.

ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾.[٩٥]

ومن الجانب الآخر إن مقاصد الشريعة التي استنبطها واستصفاها من القرآن الحكيم مئات الفقهاء الذين هم من عقلاء البشر وحكمائهم وأصفيائهم تدل أيضا على بعد آخر من أبعاد عالميته لأن صلوحية شريعة الإسلام لكل زمان إنما تكون بأحكام كلية و معاني مشتملة على حكم ومصالح صالحة لأن تتفرع منها أحكام مختلفة الصور ومتحدة المقاصد الأمر الذي يعني أن لا يحمل الناس على اتباع أحوال أمة خاصة مثل أحوال العرب في زمان التشريع ولا على اتباع تفريعات الأحكام وجزئيات الأقضية المراعى فيها صلاح خاص لمن كان التشريع بين ظهرانيهم سواء لاءم ذلك التشريع بقية الأمم والعصور أم لم يلائم فتكون صلاحيتها مشوبة بحرج ومخالفة ما لا يستطيع الناس الانقطاع عنه.[٩٦]علما منا أن جزئية الأحكام وتحديد النصوص من أهم ما ينون عليه دعاواهم في التاريخانية.

---

(٩٥) الأنفال، ٨/٤٧-٤٨.

(٩٦) محمد الطاهر بن عاشور، **مقاصد الشريعة الإسلامية**، تحقيق محمد الطاهر الميساوي، دار الفجر، دار النفائس، الطبعة الأولى، ١٤٢٠/١٩٩٩، ص ٢٣١؛ محمد الطاهر الميساوي، مقدمة مقاصد الشريعة الإسلامية، ص ١١٠.

فانطلاقا من جميع ما مر بنا يمكن لنا أن نلخص القول بـأن تلـك الأمور الخاصة بالبيئة العربية التي أفصح بعض آيات القرآن عنها لا ننكـر أنها خاطبت باعتبار ما تتضمنه من المعاني الخاصة قطاعا خاصـا مـن التاريخ ولكن نقول إنها:

أولا تتضمن الكثير من الدروس والعبر للأجيال الآتية وهـذا مما يجعلها عالمية المفعول في كل زمان ومكان إلى قيام السـاعة، لأن تلـك الدروس التي يلقيها القرآن لا غنى للبشرية عنها أبدا.

وثانيا ولو فرضنا على سبيل التترل أنه يوجد في القرآن بعض مـن الأمور المشدودة بزمن معين والمربوطة ببيئة خاصة والتي لا تحتوي علـى أي من الدروس والعبر التي تفيد الإنسانية عامة ولكن هذا أيضا لا ينـافي عالمية القرآن فإن احتواء القرآن على بعض من الأمور الخاصة لا يمنع من أن يكون البعض الآخر – وهو الغالب- عالميا كما ذكرنا ذلك.

وثالثا إن مقتضى العقل والحكمة الاهتمام الزائد بتربيـة وتوجيـه وتسديد تلك النوى الأولى التي ستتحمل فيما بعد أعبـاء التبليـغ إلى الآخرين، ومقتضى ذلك الاهتمام هو أن تكـون منطلقـات التوجيـه والتربية والإرشاد لتلك النوى الأولى واقعيات حياتهم التي يكونون معـها وجها لوجه ويعيشون معها جنبا لجنب و حقائقها التي منها ينطلقـون، وإليها يثوبون وإياها يلمسون. فمن هنا وقع التخصيص في بعـض مما

خصص. والله أعلم ونقول آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب.

٣- ذكره للأنبياء المعروفين فيما بين النيل والفرات

إن من بعض ما يورده هؤلاء التاريخانيون على عالمية القرآن أن القرآن إنما ذكر من الأنبياء السابقين من هم معروفون عند العرب فقط فيدل على أن دعوته كانت خصوصية غير عالمية. إن هذه الدعوى أيضا كأخواتها باطلة لأمور:

أولا:اقتضت حكمة الله أن القرآن لم يذكر جميع الأنبياء السابقين بل ذكر البعض القليل منهم: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾[97]، ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾[98] وحينئذ تخصيص البعض المعروف لهم وللمتاخمين لهم بالذكر أولى لأن

(٩٧) غافر، ٤٠/٧٨.

(٩٨) النساء، ٤/١٦٤.

معرفتهم به أكثر من غيره فالتركيز عليه بناء للدعوة على ما يعرفه المخاطب أكثر من غيره وقد ذكرنا سابقا أن قبول هذا النوع أسهل كما يشير القرآن إلى طرف من ذلك: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[٩٩] ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾[١٠٠] ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ ﴾[١٠١]

إن القرآن إنما ركز على الرسل المبعوثين أكثرهم في حزام الشرق الأوسط والأصقاع المصاقبة به من بعض بلاد أفريقية وغيرها من بعض بلاد آسيا الأخرى لأن كثافة السكان فيها في تلك الأزمان كانت أكثر من غيرها؛ حيث كانت ملتقى على ممر أكثر الأقوام؛ وعلى ضواحيها كانوا لمتجرهم ومكسبهم يمرون؛ وعلى أصقاعها لمرعاهم وكلئهم كلنوا ينتجعون. فمقتضى الحكمة أن يكون أكثر الأنبياء مبعوثين منها. وليس معنى هذا أننا ننكر بعثة الأنبياء من غيرها فإن مسألة أن أي الأنبياء بعث من أي الأقوام، ومن أي البلاد؟ وكم من الأنبياء بعثوا في هذه البلاد أو تلك؟ وكم من الأنبياء بعثوا عبر التاريخ كله؟ كل هذا لا نعلم منه إلا ما أعلمنا الله بطريق كتابه أو سنة رسوله الصحيحة وما سوى ذلك

---

(٩٩) الأحقاف، ٩/٤٦.

(١٠٠) آل عمران، ١٤٤/٣.

(١٠١) غافر، ٧٨/٤٠.

داخل في ظلام التاريخ الدامس؛ ليس من السهل أن يذكر فيه شيء قاطع صريح؛ بل الأسلم أن يفوض العلم فيه إلى الله سبحانه.

ثانيا إن تخصيص القرآن لذكر البعض من الأنبياء المعروف للأوساط التي نزل فيها القرآن كيف يدل على عدم عالميته؟ مع أن في أثناء ذلك العرض لا يوجد أي من الأمور التي تدل على التخصيص والتحديد؛ بل كل ما في التخصيص أن يقال لماذا خصص البعض بالذكر دون الكل؟ فنقول حيث كان ذكر جميع الأنبياء ضمن كتاب واحد منافيا للحكمة من وجوه كان الاكتفاء بذكر البعض ضروريا؛ ومن ذلك البعض إنما اكتفي بالبعض المعروف لهم لتآلفهم معه ولو قليلا وإنما ذكر ما هو موجود ضمن ثقافتهم الغير المنسقة لأن استرعاء أنظارهم إلى مألوفهم أنجع وأنفع وتفاعلهم به أيسر وأسهل.

فمهما كان الأمر فلا يدل تخصيص البعض بالذكر على شيء مما ذهبوا إليه لأن كل ما في ذكر بعض الأنبياء المعروفين لديهم هو الدرس والتذكير والتسلية والتأسي وهؤلاء المعاني كما تؤدى بغير المعلوم للمخاطب وبغير المعروف له كذلك تؤدى بالمعلوم له المعروف لديه أيضا على حد سواء بل ربما يكون بالمعلوم أنفع وأبقى أثرا.

٤-عدم إمكانية استيعاب النصوص المحدودة لحركة البشرية كلها

إن القرآن كتاب وضع أصول المنهج الدائم لحياة إنسانية متجددة وترك للبشرية أن تستنبط الأحكام الجزئية التي تحتاج إليها ارتباطات حياتها النامية المستجدة[١٠٢] ورخص للبشر أن يستخرجوا من تلك الكليات أحكام الأحداث الجارية المتتالية عبر العصور فلم يتدخل في أحكام جزئيات الحياة وأحداثها ولكن اكتفي ببيان أمهات الأصول الدساتيرية والقواعد التشريعية وهذا هو شأن جميع الدساتير؛ فكثير من الدساتير المعاصرة تراها لا تتجاوز صفحات محدودة وقواعد مجملة لا شأن لها بالفروعيات والخصوصيات أصلا. فرغما من توفر تلك الخصوصية في القرآن الكريم أيضا لكن ترى شرذمة التاريخانيين يغمضون العين عنها فيقولون "لا يمكن لنصوص محدودة استيعاب حركة البشرية كلها" وبعبارة أخرى لا يمكن لدساتير وضعت فترة ما كانت الحياة بسيطة كل البساطة وساذجة جميع السذاجة تسيير حياة تعقدت كل التعقيد وتألبت عليه مشاكل عظيمة وساد عليها طوفان من المستجدات والتغيرات والتطورات التي لم تكن في الحسبان أبدا و لم تلقها الحياة يوما ما.

(١٠٢) سيد في ظلال القرآن، ج ٤ ص ٢٤٠١.

إن هذا المدعى يرى في ظاهر الأمر وكأن له شيئا من القوة والمتانة ولكن في حقيقة الأمر ليس كذلك:

أما أولا فإن منطلق هذا المدعى باطل وما بني عليه فاسد لأن منطلق هذا المدعى هو قياس معطيات الوحي السماوي على معطيات البشر الأرضي وقياس أحكام الله المستمدة من مثل علمه وحكمته من صفاته الأزلية على قوانين البشر المستمدة من علمهم المحدود المحصور في أضيق دائرة بالنسبة إلى علم الله سبحانه.

وثانيا في هذا الادعاء تعام وتجاهل أو جهل بأن في هذا الكون بعضا من المفاهيم والنظم والدساتير والمبادئ المتعلقة بحياة البشر لا تخلق أبدا ولا يرث عليه الزمن مهما كانت المجتمعات متطورة أو متخلفة، ابتدائية أو راقية، عالمة أو جاهلة فقيرة أو غنية. فإن تلك المبادئ وما إليها من باب الميزان الذي وضعه الله سبحانه لنا في هذا الكون بحكمته كي لا نطغى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [١٠٣] وتلك النظم القويمة شرعها لنا ربنا سبحانه برحمته كي لا نبغي: ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا

(١٠٣) الرحمن، ٥٥/٧-٩.

بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [١٠٤]

وثالثا:في هذا الادعاء تغافل أيضا عن صفات الله سبحانه: عن علمه، المحيط بكل ما كان أو سيكون أو هو كائن في الكون وعن أن هذا الفرقان الحكيم نازل من ذلك العلم المحيط الأزلي. فإذاً كيف يجوز عقلا ونقلا وحكمة وفلسفة أن تكون تلك النصوص النازلة من ذلك العلم الأزلي محدودة غير صالحة لاستيعاب حركة البشرية كلها؟ نعم عند العقول المؤمنة المسلمة لربها لا يجوز. وأما عند غيرها فيلزم أن نسأل عنها بما ذا تجيب؟

ورابعا إن القرآن لم يتدخل في جزئيات الأحكام وفروعها بل غالبيتها العظمى كليات من الشرائع والقوانين التي تصلح لكل زمان ومكان فمثلا حينما تعرض لتشريع القصاص إنما تعرض لذكر أن في هذه الشريعة شرعة القصاص وأما كيفية الاستيفاء وتلك الكيفيات التي يثبت أو يسقط بها القصاص فلم يتعرض لها وتركها للسنة.

نعم بعد عرض هذه المسلمات التي بعضها إيماني اعتقادي وبعضها نظري نقول

(١٠٤) يونس، ١٠/٢٣.

إن قضية كون النصوص المحدودة غير صالحة لاستيعاب حركة البشرية نجيب عنها بأمرين:

١- إن النصوص القرآنية لو تدخلت دوما في تفاصيل الأمور وجزئياتها وتناولت عموما لدقائق الأمور وشخصياتها لأمكن أن يكون لهذا المدعى مسوغ. ولكنها إذا تعرضت لكليات الأمور وجملها وبينت عمومها بدون تدخل لتفصيلها وحددت أمهات القواعد والأصول وأعربت عن جوامع الفوائد والفصول بدون أن يركز على الفروع أو التدخل في الخصوصيات والقضايا الشخصية فلا مانع عقلا ونقلا من أن تستوعب تلك النصوص المتضمنة لما سبق من الخصائص والميزات حركة البشرية كلها بما تتضمنه من تلك القواعد الأمهات والأصول الكليات. فمثلا إن الله سبحانه جعل الفرقة بين الزوجين بطلاق ثلاث أو جعل حد زنا البكر مائةَ جلدة أو جعل عقوبةَ القتلِ القصاصَ فهذه أمور كلية لا تبطل بكر العصور ولا تخلق بمر الدهور ولا يستغن عنها أبدا أي مجتمع في تنظيم أمر الأسرة والقضاء على ما فيها من نزاع وشقاق أو تطهير المجتمع عن رذيلة الزنا ومنكر الأخلاق أو تأمين أمن البلاد والعباد. فأما ذلك الخطل الجافل والهراء الباطل الذي يتفوه به بعض من ذوي الأغراض السيئة من أن القصاص أو قطع اليد مناف لحقوق الإنسان في عصر الحضارة والمدنية فنقول عنه:

فأولا إن هذا ادعاء عريض لا يمكن أن يقبل على علاته لأن قضية حقوق الإنسان قضية تميعت كثيرا في يد الناس ليس لها ضابط يضبطها ولا قسطاس يحددها فصارت المسئلة لا تتسم بشيء من الموضوعية واللاانحيازية أبدا بل صارت كأنها إنما تتشكل وتتكون حسب رغبة الأقوياء واتجاههم فما رضوا به ووافق هواهم ووائم مصالحهم السياسية جعلوه من ضمن حقوق الإنسان وما لا فلا! ومن اطلع على ما يجري على ساحة دول العالم الثالث على مرأى ومسمع من جميع حماة حقوق الإنسان! بلا أي تدخل منهم –بل جل ذلك بتحريك وتخطيط سري منهم– علم أن القضية إنما تأخذ موضوعها ومحمولها حسب رغبتهم هم ليس إلا.

وثانيا من الذي حدد وشيد كيان هذا المجهول الذي يسمونه "حقوق الإنسان"؟ ومن الذي ميز حدوده وبين أبعاده وأعلم مساحاته؟ هل هم البشر أو رب البشر؟ وهل هم أدرى بما يتواءم مع "حقوق الإنسان" وينسجم مع فطرة المجتمعات البشرية السليمة وبما يدخل في دائرتها وبما هو أنجع في بقاء أمن العباد والبلاد أم الله؟ نعم إن هذه الأسئلة إذا فازت بأجوبة مصيبة صائبة فيمكن أن يصل الأمر إلى حل سوي وإلا فهو أصعب من خرط القتاد لأنه –على ما يبدو– النزاع متعدد الجوانب ومختلف الأغصان ومتفرع الأفنان فيصدم في نهاية المسار

بنقطة يختلف فيها محل النزاع؛ مما يؤدي إلى استحالة وجود الحل الصحيح الذي يقتنع به الطرفان، إلى جانب أن هذا الاتجاه الذي يرفض مثل القصاص من الحدود الشرعية بحجة حماية حقوق الإنسان يصدق عليه قولة: "حفظت شيئا وغابت عنك أشياء" فحينما يحمي حق جان معتد يفسد أمن عامة البلاد ويشكل أسوة سيئة تحريضية للغير يهمل حق أبرياء آخرين مظلومين وهم القتيل وورثته وبدورهم هذا هم أحق برعاية جانبهم وحفظ حقوقهم. وإن زعم أن بالسجن إيفاء لحقوقهم فيقال كلا! شتان ما بين منع الحياة ومنع الحريات هذا بالإضافة إلى ما يسببه من الإخلال بحقوق الرأي العام (أي المجتمع) أيضا حيث يلوث المجتمع ويهدد أمنه أيضا وربما أبعاد هذا الإخلال أكبر مما قبل بكثير فإنه يكون أسوة سيئة وبها يتجرأ الآخرون على نفس الفعلة فيختل أمن البلاد وأمان العباد فإذا انطلقنا من هذا المنطلق تأتى لنا أن نفهم شيئا من أبعاد.ذلك المغزى العظيم الذي يدل عليه قول الله سبحانه: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [١٠٥] وتلميحا إلى ذلك ختم المولى ذلك النص المجيد بخطاب أولي الألباب فإنهم هم الذين يعونه ويدركونه.

---

(١٠٥) البقرة، ٢/١٧٩.

وثالثا إن بعض أصحاب هذا القول من المسلمين إنما يقولونه وهم لا يعلمون بعواقبه السيئة دينا ودنيا بل مثلهم في ذلك مثل الدب التي تعلمت في صغرها تلك الحركات التي تشبه الرقص بما أن وضعوا تحت أرجلها حديدة محماة في النار ويضربون الطبل قبالتها وهي ترفع إحدى رجليها وتضع الأخرى لحرقهما بالحديدة لا للرقص أو اللعب ويكررون العمل عليها إلى أن تتعود بحيث إذا سمعت صوت الطبل ظنت أنها على النار وأخذت ترفع إحدى رجليها وتضع الأخرى فيظن المتفرجون عليها أنها ترقص حقيقة على صوت الطبل، وليس بذاك.

إن أعداء القرآن قدموا إلى المحافل العلمية أمثال تلك الدعاوى الرديئة الباطلة فقالوا إن القصاص أو قطع يد السارق مثلا مخالف لحقوق الإنسان قالوا ذلك لبعض الأغراض الخبيثة والنوايا السيئة التي أهمها تشويه سمعة الإسلام وإزاحة قداسته عن القلوب (ومع الأسف الشديد نجحوا في ذلك بعض النجاح).مع أن العالم لا يزال يسمع بين فينة وأخرى عبر قنواته الإعلامية أن البعض من أقوياء دول العالم (كالولايات المتحدة الأمريكية صاحبة النظام العالمي الجديد! وغيرها) لا يزال يطبق قانون الإعدام على مرأى ومسمع من العالم كله بدون هوادة فهل الإعدام ذو نوعين أو جانبين أحدهما موافق للحقوق و الآخر مخالف ؟ فإذا طبقه المسلمون وفقا لشرعة القصاص الذي أنزله عليهم ربهم صادف

ما يخالف الحقوق فلذا يستحقون أن يشنع عليهم فعلهم ويعاب بذلك كتابهم وشريعتهم أما الغربيون أو الأمريكيون إذا طبقوه صادف ما يوافق حقوق الإنسان! فلا يختل بتطبيقهم الإعدام حقوق الإنسان! هذا هو المضحك المبكي!

فمع أن أعداء الإسلام يكررون ذلك القول عن قصد وغرض ولكن ما الذي وقع ببعض من أبناء المسلمين حيث يرددون نفس أقوالهم بلا محاكمة ولا محاسبة ولا علم ولا فهم بل لمجرد أن الغرب القوي قال كذلك؟ أليسوا يقعون بذلك في متاهات اجتماعية عجيبة ومخاطر عقدية عظيمة بما يجعلون من عقولهم الضعيفة وأفهامهم القاصرة ومعارفهم الجزئية حاكما مهيمنا على الله وكتابه يردون من كتابه ما يشاءون! ويقبلون منه ما يشاءون! فأين العبودية لله؟ وأين الثقة التامة الكاملة بربوبية الله وسائر صفاته الكمالية التي لا يكون الرب إلها بدونها، ولا يمكن أن يكون المرء مؤمنا بدون الإيمان بها ؟ وأين الميثاق الذي أعطيناه لله بالإيمان بدينه؟ وأين التسليم الذي هو في ضمن ذاك الميثاق؟ وأين هؤلاء من مصداقية هذا النص المبين: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[١٠٦] يصدق عليهم قول الله جل في علاه:﴿ وَمِنَ النَّاسِ

---

(١٠٦) النساء ٤/٦٥.

مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾.[١٠٧]

٢- إن إنكار عالمية كل أو بعض نصوص القرآن وخصيصا الفقهية منها إنما هو بغفلة وجهل عن مفعول تلك الأحكام الطيب الرشيد وأثرها الجيد السديد وأبعاده ومساحاته وامتداداته الزمانية والمكانية وعلى مختلف المستويات الإنسانية وشتى الأصعدة الاجتماعية، عبر مختلف المجتمعات وفي شتى الطبقات البشرية؛ وبتركيز للنظر على إطار إنساني محدود فقط وقياس سائر الأطر على ذاك الملحوظ المحدود فقط فلنوضح ذلك: إن النصوص المحدودة إنما تتقيد بخطاب المحدود إذا كانت واردة من المحدود كما في الدساتير البشرية لأن مجال علم الناس محصور ومحدود وعلمهم شبيه بالمعدوم بما سيؤول إليه أمر المجتمع بتطبيق تلك الأحكام من إصلاح وانتظام وانسجام وأمن وأمان تتحقق في كثير من المجتمعات الحالية أو الماضية أو المستقبلة وكذا علمهم شبيه بالمعدوم بما سيترتب على عدم تطبيقها من رفع أمن البلاد وانتشار الفساد في قطاعات المجتمع وبين العباد وذيوع الفتنة والمنكرات وغيرها في المجتمعات لا في قرن

(١٠٧) الحج ٢٢/١١.

واحد بل عبر القرون كلها ولا في مجتمع وصل إلى حد من التطور والتنمية بل في جميع المستويات المجتمعية من المتخلفة إلى المتطورة ومن الفقيرة إلى الغنية ومن الجاهلة والأمية إلى المثقفة المتعلمة وعلى جميع الأصعدة البشرية.من الابتدائية إلى الحضارية فعلمهم المحدود بكل هذه المعلومات التي تتعلق بجميع هذه المستويات معدوم أو شبيه بالمعدوم وأنى له أن يحيط بكل تلك المعلومات؟ وهي غيب له تماما لأن علم البشر محدود متناه كما يقصر عن الإحاطة باللامتناهي كذلك يقصر عن الإحاطة بالغيب الذي لم يتحقق بعد بل سيقع. فإذا كيف يحيط بما هو بمثابة غير المتناهي بالنسبة إلى علم الناس؟ كما أن غالب تلك المعلومات مما لا يصل إليها علم البشر بل هو شأن خالق القوى والقدر.لأن علمه سبحانه مطلق، غير محدود، لا متناه، يحيط بالمقيد، المحدود، المتناهي وغيره بجميع الامتدادات والاعتبارات –التي تزيد من إشكاليات العلم بمعلوم ما– كما يحيط بالماضي والمستقبل والحال فإذا لم نحسب لهذه المعلومات حسابها و لم نعتبر بها فحينئذ نقع في خلط وخبط كما وقع فيه اليوم الكثيرون. حيث يحسبون حساب هذا اليوم الحاضر فقط – ولا يحسبون حسابه أيضا جيدا– فيكيلون أحكام الله سبحانه بذلك المكيال الباخس ويطففون ويخسرون فيهلكون ويهلكون حيث يقيسون أفق

وأطر معلومات الله على معلوماتهم أنفسهم فيقعون في حـــيرة وضـــلال وفتنة وخبال ولكنهم لا يفقهون.

فإذا لوحظت نصوص القرآن النازلة من علمه الأزلي المطلق من هـذه الزاوية وعلم مساحة خطابها وقدر عطاءها الطيب وأبعاد مفعولها الصـلح الكريم عبر التاريخ في المجتمعات المتنوعة المتكثرة على جميع المســـتويات وإذا علم ما لهذه النصوص من قوة في الأداء سواء في باب عطاء الأحكام أو في باب معطائية التنظيم وتأمين السلم والسلام والأمن والأمان بـــين الناس وكذلك إذا لوحظ ما تتميز شرعة القرآن به من اليســـر ورفـــع المشقة عن العباد وفي جميع التكاليف الإسلامية سواء في العبادات وســواء في المعاملات وإذا أدرك أبعاد عظمة اهتمام هذه الشرعة السمحة بسلامة العباد في الأرواح والأبدان وأمن البلاد في الأعراض والأموال علم جازما أن هذه النصوص القرآنية قابلة لاستيعاب حركة البشرية كلها عبر جميـع قطاعات الزمن ومساحات المكان وقادرة على الوفاء بجميـــع مطـــالب البشر المادية والنفسية والروحية والتنظيمية وغيرها. وكانت كذلك عـــبر تاريخها الطويل مما ينوف على أربعة عشر قرنـــا، ولم يشـــك أحـــد في استيعابيتها وصلاحيتها لكل زمان ومكان وكونها بمساحات خطابها فوق مقيدات الزمان ومحددات المكان وبمخاطبيـــها أعلـــى مـــن أن يتقيـــد بالتخصص بإحدى المستويات الإنسانية.

وجميع الفرق بين اليوم والأمس هو أن بالأمس كان المسلمون هم الأقوياء فما كان أحد يتعرض لحرمات كتابهم وقداسة نصوصه بسوء وفتنة أو بما يخفض من قدره أو ينتقص من قيمته؛ وحتى لو تعرض لذلك أحد لم يجد آذانا صاغية أو نفوسا راضية بل وجد عقولا لا تلقي لهرائه بالا ولا تعتد به مقالا وسخر منه الساخرون واستهزأ به المستهزئون وسفه رأيه الناصحون واستخف عقله العاقلون وصار كلص انكشف أمره وضح النهار فصار يسخر من سوء صنيعه ويضحك من سخافة رأيه الأطفال قبل الرجال والصغار قبل الكبار.

أما اليوم حيث صارت للكفر جولة وصولة (وسيكون للحق جولات إن شاء الله تعالى) وصارت له شدة وقوة فانقلبت الموازين وتبدلت القيم وتغيرت الأمور وخرجت عن نصابها فلهذا صار الباطل تسمع كلمته وتحترم سمعته مهما كان ضعيفا زائفا أو دنيئا صارفا في منطق العقل وموازين الحكمة. ومن الجانب الآخر ترى أن جميع قوى الكفر بقضها وقضيضها تألبت على الإسلام أخذا لثأر ماضيهم المهين فيهجمون عليه من كل صوب وأوب لا بالأسلحة المادية فقط بل أكثر وأكثر ببث الأفكار السامة والعقائد الزائفة والعادات المنكرة بين المسلمين –كما تجد ذلك بذيوع وانتشار عبر شاشات التلفاز ومواقع الإنترنت– ومن هنا ترى المستشرقين يغربلون استحصالا لذلك كل

صغير وكبير وجليل وحقير مما له صلة بالإسلام وكتابه ورسوله لا يألون في ذلك جهدا ولا يهملون وهدا فيفتعلون الأكاذيب ويختلقون الأباطيل. ومن حذاقتهم في أمرهم أنهم يزوقون أباطيلهم تلك ويزخرفون أكاذيبهم ببريق بعض الأمور المعقولة، لدى النفوس المقبولة كحقـــــوق الإنســـان وكراماته وحرياته وغيرها، مع أنه لا يخفى على النبيه المنصف أن كلمـــة الإسلام في مجال حقوق الإنسان مثلا أقدم وأسبق وحكمه فيها أعــــدل وأفضل والمساحة التي يغطيها بها أشمل وأكمل وكان المســـلمون فيمـــا مضى أكثر تمسكا بها وأخلص عملا لها وأكثر توســـيعا في مســـاحاتها. ولكن وقع ما وقع من تأخر المسلمين وتمزقهم وضعفهم وفقرهم تنفيـــذا لسنة الله القاضية: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾[١٠٨] فضعفـــت بذلك كلمتهم أيضا فصارت لا تسمع ولا تقبل لأن الضعيف مغلـــوب على أمره غالبا.

فبعد ما أجبنا حسب استطاعتنا —وهو جهد المقل- عما اطلعنا عليه من مزاعم التاريخانيين فالآن نعود إلى الجانب الاستدلالي كـــرة أخـــرى نذكر ما يدل على عالمية القرآن سواء من صميم كيانه وسواء من غـــيره من الأدلة، لعل القلوب التي عليها أقفالها تثوب إلى رشدها وتفيق عن غيها والله يقضي بالحق وهو الهادي إلى سواء السبيل.

(١٠٨) آل عمران، ٣/١٤٠.

المبحث الثاني أدلة عالمية القرآن

عالمية القرآن من الناحية المنطقية والاستدلالية

إن من أهم وأعظم خصائص القرآن العظيم المعنوية أنه تفرد في الأوساط التي نزل فيها بفتح باب التفكير السليم على العقل بمصراعيه ومن ثمه بوضع منهجية الاستدلال أمام عالم الإنسانية كلها بتلك الصورة المتكاملة المنطقية الرشيدة التي بها ثابت إلى رشدها وتابت عن شرها. إن القرآن بدأ في أولى آياته المنزلة بغار حراء والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لا يزال يعاني من برحاء الوحي حيث لم يتعود على طبيعته بعد بدأ يعلم الناس ويرشدهم إلى الاستدلال: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾[١٠٩] و لم ينقطع القرآن عن تلك المنهجية و لم يهملها أبدا عبر سوره المنزلة

---

(١٠٩) العلق، ٩٦/١-٥.

المنهجية و لم يهملها أبدا عبر سوره المترلة سواء عبر ما نزل بمكة -وهو يحارب الشرك ويهدم أباطيله ويبطل أساطيره ويصوغ للإنسان بحكمته الغراء عقلية منطقية واعية من جديد- وسواء عبر ما نزل بالمدينة وهو ينشئ الدولة الإسلامية الفتية الجديدة ويضع أولى اللبنات الأساس لها.

وتلك العقلية الاستدلالية الحكيمة – التي تشكل بذرة حضارية مهمة- التي ألهمت أسلافنا كثيرا من الدروس والعبر ووجهتهم إلى كثير من النشاطات العلمية والعملية والتربوية كانت من أكبر العوامل في تأسيس الحضارة الإسلامية في أقرب زمن ممكن حيث إن فترة تأسيسها -أي محاولة النهضة- لم تتجاوز قرنا مع أن الحضارة الغربية إنما بلغت إلى كمالها ستة قرون. ولا يفوتني هنا حيث جاء الكلام عن الاستدلال في القرآن أن أؤكد أن الكيان الاستدلالي في القرآن أيضا من أهم الدلائل على عالميته كما سنذكر إن شاء الله تعالى.

فالتزام القرآن الشديد بمنهجية الاستدلال يحتم علينا أن نستدل نحن المسلمين أيضا كطلاب حول مائدة القرآن على ما نطرحه من القضايا والأفكار والدعاوى. وهو السبيل الأقوم لحفظ العقل عن التخبط العشوائي في مسيرته التفكيرية وعن الوقوع في المهاوي والمهالك عبر الحياة الفكرية التي قلما نجا منها كبار المفكرين والفلاسفة الذين لم يهتدوا بنبراس الوحي فإن العقل إذا صاحبه هدي الوحي عبر مسيرته

أمن من الردى والهلاك. وأما إذا استغنى بنفسه وانتهج طريقه وحيدا بـلا دليل وسلك سبيله فريدا بلا كفيل فمغبة جل أعماله التفكيرية وخصيصا في مسائل الكون ومصدره –على حد تعبيرهم– وسائر الموضوعات التي لها صلة قريبة بالدين والعقيدة تكون خطيرة مهلكة لحد أكبر ولا تؤمـــن عواقبها السيئة كما تجد تلك النتائج الغير الطيبة عند كثير من الفلاســفة ومن انتهج نهجهم سواء المسلمون منهم والكافرون.

إن الحديث عن عالمية القرآن من أهم القضايا اللاصقة بـــالقرآن لاسيما في عصرنا هذا كما ذكرنا سابقا. فطرح القضية على عواهنـــها من غير استدلال يفحم به أواستبصار يؤنس له لا يأتي بشيء ســوى أن يكون من باب الأمنيات أو الوديات. فالاهتمام بالأمر يوجب الاستدلال له من ناحيتي العقل والنقل فلنذكر القضية مستدلين عليها مـــن كلتـا الناحيتين:

١- الأدلة العقلية

إن الاستدلال العقلي هو أن يتحرك العقل الهادف لمعرفة شيء ويسير في المعقولات كي يأتي منها ببعض الوسائل الفكرية التي يصل بها إلى مـا

يستهدفه من ذلك التحرك والسير أو بكلمة أخرى أكثر وضوحا هـو أن يستدل العقل ببعض الأمور على معرفة شيء ما. وليس كل شيء يكـون وسيلة لمعرفة كل شيء بل لكل ما يقاربه ويكون له صلـة بـه. فلـو استدللت على بعض الأمور الطبية ببعض مسائل العلوم الاجتماعيـة لم تنجح وذهب سعيك سدى أو احتججت على الأمور الفقهية ببعـض المسائل البيولوجية ما حصلت على أية نتيجة طيبة وذهب احتجـاجك أدراج الرياح. فنحن حينما نحاول أن نستدل استدلالا عقليا على عالميـة القرآن نستدل ألبتة بتلك الأمور التي تدخل في عالم القرآن ولها صلة بـه وملابسة قوية له أما لو ذهبنا نستدل على ذلك بالأمور الفلسفية فـذاك وإن رضي به بعض من المتفلسفين لكنه ليس بالأمر الذي يرضى به الكل ويطمئن إليه الجميع وربما لا ينتج النتيجة المطلوبة أيضا . فلذا آثرنـا أن ننطلق في الاستدلال العقلي على عالمية القرآن من المنطلق الإيماني والمنطق القرآني ثم نبني على ذلك وجهة العقل في ذلك المنطق وما يؤول إليـه في نتيجة الأمر فكان استدلالنا بما هو من عالم القرآن ونابع مـن ثقافتـه الغراء.

إن عالمية رسالة القرآن كانت معروفة منذ الفترة المكية عبر آيـات كثـيرة منـها: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ

لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[110] وكانت أحكامه وتوجيهاته موجهة للجميع[111]: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾[112] ودام بكثافة قرآنية أكثر إصرار القرآن على عالميته عبر كلا قسميه المكي والمدني. أعلن القرآن ذلك ببيان مؤكد له إيقاع بالغ وإيحاءات كثيرة في شتى السياقات وبشتى المناسبات والملابسات (وسيأتي ذكر البعض منها) فلا لبس ولا غموض ولا خفاء ولا غطاء على عالمية القرآن ولكن رغما من ذلك ترى بعض الناس ينكر عالمية القرآن من خلال أحكامه فلنضبط موقف هذا المنكر حتى نكون منه على بينة من الأمر:

فالذي ينكر عالمية القرآن إما أن يكون منكرا للقرآن أو مؤمنا به ولا ثالث لهما. أما المنكر فليس هذا مجال الكلام معه لأن من ينكر الموصوف كيف يؤمن بالصفة. فالعالمية من صفات القرآن لا يؤمن بها إلا من آمن بالقرآن فالذين لا يؤمنون بالقرآن ثم يتكلمون عن عالمية القرآن فليس

(١١٠) الفرقان، ١/٢٥.

(١١١) أحمد محمد علي الإمام، **هيمنة القرآن وعالميته وخلوده، مجلة نهج الإسلام –سوريا،** العدد ٦٧-٦٨، ذو الحجة ١٤١٧، نيسان ١٩٩٧، ص ٥٤.

(١١٢) النساء، ٥٨/٤.

غرضهم في ذلك إحقاق حق أو إبطال باطل بل لا هدف لهم فيه إلا أن يكدروا الدلاء ثم إنهم في موقفهم ذاك يتناقضون مع أنفسهم حيث إن كلامهم على صفة من صفات القرآن يستلزم إيمانهم بالموصوف مع أنهم لم يؤمنوا به لأن إنكار صفة للشيء وإثبات نقيضها له إقرار بالموصوف لأن الصفة لا تثبت أو لا يجوز ذكره كصفة طالما لم يكن الموصوف موجودا أو معترفا به فمن لم يؤمن بالموصوف كيف ينكر أحدا من صفاته حتى يحاول إثبات ضده؟ فهذا تناقض صريح منهم وهم لا يشعرون.

وأما المؤمن به فنقول له كن صريحا جريئا لا تخادع ولا توارب. فإن كنت تؤمن بالقرآن عن صدق قلب وإخلاص نية ففتش عن نفسك هل ترى أنك تكون من المؤمنين بالقرآن مع إنكارك لنصوص كثيرة منه تنوف على مائتين وخمسين آية تدل على عالمية القرآن بصراحة ووضوح وبلا لبس ولا غموض. ولا مسوغ لإنكارك إياها أو تأويلها تأويلا باطلا لا يرضاه الله ولا رسوله سوى أنك تحاول أن ترضي بذاك بعضا من سادتك في التفكير أو ترضي نفسك بقبول ما تهواها الذي ترى أنه الأقوم الأصوب لموافقته مع آراء العصريين. وثانيا إنك إذا أنكرت عالمية أحكام القرآن بلي أعناق جميع تلك النصوص هل تعلم أنك تكون واحدا من اثنين إما أن تقول: إن القرآن لا يتدخل في الأحكام أبدا وهو

إنما بيّن العقائد وشرح شيئا من الأخلاقيات فقط فهذا أيضا فرية بلا مرية يسخر بك بسببها الأعداء قبل الأصدقاء ومن بداهة البطلان بمكان يضحك له الذئاب ويعوي له الكلاب لكثرة النصوص التي تبين الأحكام في القرآن حيث إن آيات الأحكام في القرآن تقارب عشرين بالمائة. وإما أن تقول حيث رأيت أن لا مهرب من النصوص الأحكامية لكثرتها ووضوحها وعدم إمكان تأويلها ولي أعناق كلها: نقبل أن في القرآن أحكاما كثيرة متعلقة بمختلف جوانب الحياة لكنها ليست أحكاما عالمية تستمر على جميع الامتدادات الزمنية والمكانية والإنسانية؛ وتلك النصوص الدالة على عالمية القرآن إنما هي متوجهة إلى كيانه العقائدي والأخلاقي لا الأحكامي ليس إلا.

فنقول هذا الزعم أيضا لا يقل عن الأول ضعفا وسخافة وعدم استناد إلى منطق سديد وفهم رشيد لأن ما يدل على عالمية القرآن مطلق متجه إلى جميع القرآن لا إلى بعضه وليس في تلك النصوص أي مخصص حتى يكون لهذا الزعم البالي مبرر وحتى يتيسر هذا الفرق والتمييز.

مع أنك إذا قلت إن في القرآن أحكاما متجهة إلى توجيه الحياة ولكن غالب تلك الأحكام مضت فترتها التي كانت صالحة للعمل بها ورث عليها الزمن وأبلاها الدهر. فحينئذ أيضا تكون واحدا من اثنين: إما أن تقول إن الله لم يعلم ما سيقع في المستقبل فلم يستطع أن يضع لهذا

أحكاما بل إنما وضع أحكاما لعصر النزول الذي كان يعلمه فقط فنقول له هذا أولا جهل عظيم أسندته إلى الله تعالى، يتنافى مع ألوهيته على الإطلاق. تعالى الله عما تقول علوا كبيرا. وقد امتدح الله جل وعز بعلم ما قد كان وما سيكون وما لم يكن أو كيف كان يكون فمدح نفسه بعلم جميع الغيوب[١١٣] في آيات كثيرة.[١١٤] وثانيا مكابرة وتعام عن جميع ما يمتلكه القرآن من معايير وقيم تصلح حكما وموجها للجميع[١١٥] فإنك ترى القرآن حافلا بالمبادئ النظامية السامية والمثل العليا الفقهية والقيم الأخلاقية التي تصلح لكل زمان ومكان[١١٦]: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾.[١١٧]

وإما أن تسند البخل وقلة الرحمة إليه سبحانه حيث إن عدم إنزاله لما هو مفيد ونافع مع علمه به يستلزم البخل وعدم الرحمة لا غير مما يتنافى مع رحمته ورأفته بعباده المؤمنين تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

---

(١١٣) المحاسبي، فهم القرآن، ص ٣٣٩.

(١١٤) أنظر القرآن الكريم، البقرة، ٢/٢٣٥، الأنعام، ٦/٣، ٧٣، الإسراء، ١٧/٥٥، المزمل، ٧٣/٢٠.

(١١٥) أحمد الإمام، المصدر السابق.ص ٥٤.

(١١٦) عبد الحكيم سرور، إنسانية الإسلام، مجلة الجديد- مصر، العدد ٢٦، فبراير ١٩٧٣، ص ٥٢.

(١١٧) الأعراف ٧/١٥٨.

ثم إننا إذا لاحظنا موقع القرآن ككونه آخر رسالات الله للناس إلى يوم القيامة وخاتم الكتب الإلهية ونهاية الوحي الرباني النازل من سماء الربوبية إلى أرض البشرية وككونه آخر التعاليم الإلهية الملقاة عن طريق الوحي إلى خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم وككونه وحيا أوحي إلى النبي المبعوث للناس كافة إذا لاحظنا هذه الأمور كلها علمنا لتوّنا أن هذا القرآن نزل من يوم أن نزل يخاطب جميع البشر على جميع المستويات في جميع الأزمنة المتتالية إلي يوم القيامة وفي جميع الأمكنة على وجه البسيطة من غير فرق بين زمان وزمان أو مكان ومكان أو جنس وجنس أو مجتمع ومجتمع أو مستوى ومستوى. حتى إنك ترى القرآن يتحلق في بعض آياته فوق الزمن فيخاطب لا المعاصرين لتروله ومن بعدهم فقط بل يتعداهم إلى من قبلهم فيجعل جميع البشرية منذ آدم إلى يوم القيامة مخاطبا له ومصداقية ذلك تتبارز في قوله تعالى:.﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى ﴾.[١١٨] حيث خاطب جميع ذرية آدم ببعثة الرسل عبر التاريخ. فهذه الآية أصدق شاهد على أن خطاب القرآن فوق قيود الزمان وحدود المكان.

فكل من بعد بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم من الناس متساو

(١١٨) الأعراف ٣٥/٧.

في كونه مخاطبا لخطابات القرآن المقدسة ومسؤولا أمام تكاليفه النيرة سواء منها العقائدية أو الاجتماعية: السياسية والاقتصادية والقضائية والجنائية وسواء منها ما يتعلق بتنظيم العبادات أو تنظيم المعاملات أو تنظيم الأخلاق أو تنظيم الحقوق أو تنظيم سائر شؤون المجتمع. فخاتمية الرسالة التي في القرآن وتوقف النبوات بعده تتطلب استمرارية مبادئ القرآن الكريم وقيمه ومعاييره وموجهاته واستيعابيتها. فكان الخلود للقرآن لتخلد هذه المبادئ والقيم، وكان ختام النبوات جميعا يتطلب أن لا تنحصر هذه القيم والمبادئ والموجهات في أمة من الأمم دون غيرها[١١٩]. فهو المهيمن على الزمان والمكان والمتغيرات بما يمنحه من وعي كامل للوجود الكوني وحركته وعلاقاته إنه وعي الكون كله بما فيه مدركا بكلمات الله فلا يمكن للماضي أو الحاضر أو المستقبل أن يحيط بوحي الكتاب مطلقا وإنما يأخذ منه ما يستدعيه عصره بنسبية الظرف التاريخي ومتعلقاته الاجتماعية والحضارية وعبر طرائق فكره[١٢٠].

فكان من مصداقية عالميته أنه جاء مهيمنا على الكتب السابقة. ولقد أعلن ذلك على رؤوس الأشهاد في بعض النصوص :﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ

(١١٩) أحمد الإمام، هيمنة القرآن وعالميته، ص ٥٤ بتصرف.

(١٢٠) طه جابر العلواني، مدخل كيف نتعامل مع القرآن لمحمد الغزالي ، الطبعة الأولى، فيرجينيا الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٩١، ص ٥.

ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ ﴾[١٢١] وهيمنته عليها تعني المعيارية والتصويب والرقابة لما داخل في تلك الكتب من التحريف والتبديل والإخفاء والإلغاء والنسيان فالقرآن بدوره هذا يسجل خلوده كما يأتي بذلك له دور تصويب التاريخ والحاضر والتوجه نحو المستقبل كما تتضمن الهيمنة بهذا المعنى الاسترجاع والاستيعاب والتجاوز.[١٢٢]

ولقد جاء هذا القرآن حينما بلغت البشرية سن الرشد العقلي فجاء كتابا مفتوحا لجميع العقول لا في عصر الترول فقط بل مستمرا في جميع الأزمان ولما سيأتي من جميع الأجيال، شاملا لأصول الحياة البشرية التي لا تتبدل بتغير الأزمان والمجتمعات، مستعدا لتلبية الحاجات المتجددة أيضا التي يعلمها خالق البشر وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير[١٢٣] فتح بابا جديدا في المعرفة والتفكير الإنساني؛ حيث أشعل في النفوس بعد خمود، وأحيا في القلوب بعد جمود، وحرك في الصدور بعد ركود روح العلم والمعرفة وحبهما، ودل الإنسانية – التي طالما نسيت العلم

(١٢١) المائدة، ٤٨/٥.

(١٢٢) أحمد الإمام، المقال السابق، ص ٥٦.

(١٢٣) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، دار الشروق، الطبعة الثانية عشرة، بيروت ١٩٨٦، ج ٤، ص٢٤٠١.

والتفكير- على آفاق واسعة في العلم والمعرفة و التفكير الإنساني؛ فوضع الحجر الأساس للغالبية العظمى مما نراه من العلوم الفنية والاجتماعية بالإضافة إلى ما تضمنه ذلك الكتاب العزيز من العلوم الربانية والمعارف الحكمية والمعلومات التاريخية القيمة وغيرها فكانت اليد الطولى للقرآن الحكيم فيما وصلت إليه البشرية اليوم من الحضارة العظيمة التي حققت كما هائلا من النجاح في كثير من الميادين.[١٢٤] ومن هنا تأتى لبعض العلماء أن يشبه القرآن بالكون الكبير الذي نعيش فيه- لفسحة جوانبه ووفرة معلوماته وكثرة معارفه وغزارة مادته وكمال مداركه ونصوع براهينه وسعة خطاباته وثراء مسائله وتنوع مضامينه وتكثر مفاهيمه وتوفر معانيه وشمول نظرته وتناوله لقضايا الدنيا والأخرى جميعا فهو الكون الكبير المعنوي يضارع الكون المادي الذي يفوت تعداد جوانبه الحصر والعد.[١٢٥]

وهو كما قلنا في كتابنا **ثراء المعنى في القرآن الكريم** كتاب حكيم يحتوي على عجائب لا تنقضي مدى الدهر، ويشتمل على غرائب لا تنفد عبر العصر، كنوزه محشوة من الكرائم وخزائنه مفعمة من النفائس،

---

(١٢٤) محمد خليل جيجك، **ثراء المعنى في القرآن الكريم**، الطبعة الأولى، دار السلام، القاهرة ١٤١٩/١٩٩٩، ص ٩.

(١٢٥) انظر محمد الغزالي، **كيف نتعامل مع القرآن**، ص ١٠١.

كلما مر به ملأ من قومه اطلع على نوادر كوامن، وكلما مضى عليه دهر اكتشف فيه زوائد لوامع، فوائده غير محدودة، ومدلولاته غير محصورة، وجوه دلالاته متكثرة، وأنواع إشاراته متوفرة، وعباراته خميصة من الألفاظ بطينة من المعاني، حوى على جميع وجوه المحاسن والنفائس ونظف أذياله المقدسة عن كل الأدناس والأرجاس، لم يتعارف يوما مع المساوئ والنقائص، ولم يتنكر شيئا من الفضائل والمناقب.[١٢٦]

٢- الأدلة النقلية

إن عالمية القرآن تآزرت عليها جميع الأدلة النقلية المقبولة عند الأمة الإسلامية من الكتاب والسنة وإجماع الأمة كما ذكرنا سالفا أن الدليل العقلي أيضا يقتضي ذلك اقتضاء جازما لامناص منه. فلنذكر ما تيسر لنا من كل واحد من هؤلاء الأدلة الثلاث ونحاول بين حين وآخر أن نعرب عن وجه دلالة كل منها على المطلوب:

(١٢٦) محمد خليل جيجك، **ثراء المعنى**، ص ١٥.

١- الكتاب

إن النصوص القرآنية التي تدل على عالمية القرآن تنقسم إلى قسمين:

١- قسم يدل بصراحة ووضوح على عالمية القرآن معنى وخطابا و رسالة وحضارة وتشريعا بلا لبس ولا غموض ولا خفاء ولا غطاء فإذا كنا صادقين في الإيمان بالله والإيمان بما جاء في كتاب الله بلا ريب ولا شك وإذا ما لم نعود أنفسنا على لي أعناق النصوص وصرفها عن معانيها اللغوية التي هي المتبادر والأصل في مدلول الكلمات -إذا لم يصرفها صارف قطعي- وفق أهوائنا وإذا ما تعاهدنا مع أنفسنا ألا نفارق عن الحق كيف كان وفي يد من كان فإننا سنجد قضية عالمية القرآن قضية مفروغا منها، قضية بدهية لا تحتاج إلى تفصيل وبيان اللهم إلا للذين ينكرون ضوء الشمس لما على أبصارهم من الغشاوة أو لما ران على قلوبهم من الصدأ والغين:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد *وينكرالفم طعم الماء من سقم

٢- هناك قسم آخر من الآيات يفيد عالمية رسالة الرسول عليه الصلاة والسلام، ومن البداهة بمكان أن عالمية الرسالة وعالمية القرآن -وإن وجد شيء من الاختلاف بين مفهوميهما- تقصدان نفس الشيء فلا رسالة هناك (أي بالنسبة إلى البعثة المحمدية) بلا قرآن ولا قرآن بلا

رسالة، يستلزم كل واحد منهما الآخر بلا لبس ولا خفاء، لا ينكر هذا إلا مكابر معاند أو ملحد جاهل.

أما الآيات الداخلة في القسم الأول فكثيرة. والواقع أن من يتلو القرآن مجردا من الهوى والعصبية، يوقن أنه كتاب عالمي يحمل دعوة عالمية، منذ أول سورة في القرآن بل منذ أول آية بعد البسملة: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [١٢٧] إلى آخر سورة[١٢٨] : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ ﴾ [١٢٩]

يقول الأستاذ صبحي الصالح (ت ١٤٠٧) طيب الله ثراه: "يلاحظ هنا -من وحي السياق نفسه- أن الدعوة الإسلامية أنبأت عن نفسها منذ أوائل المرحلة المكية بأنها عالمية".[١٣٠]

ونختار من بين تلك النصوص البالغ عددها مائتين وخمسين آية ما يلي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ

(١٢٧) الفاتحة، ١/١.

(١٢٨) يوسف القرضاوي، **المرجعية العليا للقرآن والسنة**، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٣/١٤١٤، ص ١٩٦.

(١٢٩) الناس، ١/١١٤-٣.

(١٣٠) صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، الطبعة الثامنة، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٤، ص ١٩٠.

تَتَّقُونَ ﴾[١٣١] ، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾[١٣٢] ، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[١٣٣] ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[١٣٤] ، ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾[١٣٥] ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[١٣٦] ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[١٣٧]

ففي كل هذه الآيات التي انتخبناها كنموذج من بين الآيات الكثيرة التي تدل على عالمية القرآن وجه الخطاب ببعض الأحكام إلى الكيان الإنساني عامة لا العرب فقط ولا المعاصرين لنزوله فقط أو لمن هم على

---

(١٣١) البقرة، ٢/٢١.

(١٣٢) النساء، ٤/١.

(١٣٣) البقرة، ٢/١٦٨.

(١٣٤) البقرة، ٢/ ١٧٩.

(١٣٥) البقرة، ٢/١٨٥.

(١٣٦) الأعراف، ٧/ ٣١.

(١٣٧) الأعراف، ٧/٣٦.

مستوى معين من العلم والثقافة فقط لأن الأحكام إذا كانت موضوعة لمصالح العباد فالعباد بالنسبة إلى ما تقتضيه من المصالح سواء لأنهم مطبوعون بطابع النوع الإنساني المتحد في معظم حاجياته وغالب ضرورياته وما يكمل ذلك فلو وضعت على الخصوص لم تكن موضوعة لمصالح العباد بإطلاق ولا يستثنى من هذه القاعدة العامة إلا ما خصه الدليل مما كان خاصا برسول الله صلى الله عليه وسلم أو ما خص به بعض من الصحابة كشهادة أبي خزيمة وإجزاء عناق أبي بردة في الأضحية[١٣٨]. حتى إن إمام الحرمين (ت٤٧٨) يقول والخصائص بالإضافة إلى أحكام العموم قليل من كثير وكونه خص بعض أصحابه بالنص فيه دليل وإعلام بأن الأحكام الشرعية خارجة عن قانون الاختصاص.[١٣٩]

وهكذا فهمها جميع علماء الفقه والتفسير سلفا وخلفا و لم يشذ عن هذه الفكرة أحد من المسلمين فإن القضية عندهم كانت بدهية غير محتاجة إلى استدلال ولكن رغما من ذلك نذكر جملة من أقوال العلماء في ذلك كي يزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون: يقول الطبري (ت ٣١٠) في تفسير قوله تعالى ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا

---

(١٣٨) الشاطبي الموافقات، ج ٢ ٢٤٧.

(١٣٩) يوسف العالم المقاصد العامة للشريعة، ص ٤٣.

ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [١٤٠]: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام قل يا محمد للناس كلهم: إني رسول الله إليكم جميعا لا إلى بعضكم دون بعض كما كان من قبلي من الرسل مرسلا إلى بعض الناس دون بعض فمن كان منهم أرسل كذلك فإن رسالتي ليست إلى بعضكم دون بعض ولكنها إلى جميعكم.[١٤١] يقول ابن كثير (ت ٧٧٤) في تفسير قوله تعالى ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[١٤٢] وختمهم بالنبي الأمي العربي المكي الهادي لأوضح السبل، أرسله إلى جميع خلقه من الإنس والجن من لدن بعثته إلى يوم القيمة. ويقول في تفسيرقوله تعالى ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [١٤٣] فمن بلغه هذا القرآن من عرب وعجم وأسود وأحمر وإنس وجان فهو نذير له.[١٤٤] ويقول رحمه الله عند تفسيره قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ

---

(١٤٠) الأعراف، ٧/١٥٨.

(١٤١) محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثالثة، مصر ١٣٨٨/١٩٦٨، ج ٩، ص ٦٨.

(١٤٢) النساء، ٤/١٦٥.

(١٤٣) الأنعام، ٦/١٩.

(١٤٤) إسماعيل أبي الفداء بن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، مطبعة الاستقامة، الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٧٣/١٩٥٤، ج ١، ص ٢.

جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾[١٤٥] يقول تعالى مخاطبا جميع الناس ومخبرا أنه جاءهم منه برهان عظيم وهو الدليل القاطع المزيل للعذر والحجة المزيلة للشبه ولهذا قال وأنزلنا إليكم نورا مبينا أي ضياء واضحا على الحق، قال ابن جريج وغيره: هو القرآن.[١٤٦] يرى ابن عباس (ت.٦٨) أن النداء و الأمر في ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ متوجه للكافرين والمنافقين[١٤٧] ويقول الرازي (ت.٦٠٦): إن قوله تعالى "يا أيها الناس" يتناول جميع الناس الذين كانوا موجودين في ذلك العصر.[١٤٨] يقول البيضاوي (ت ٦٨٥) في تفسير قوله تعالى من سورة البقرة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ فالناس يعم الموجودين وقت الترول لفظا ومن سيوجد لما تواتر من دينه عليه الصلاة السلام أن مقتضى خطابه وأحكامه شامل للقبيلتين (من الإنس والجن) ثابت إلى قيام الساعة إلا ما

---

(١٤٥) النساء، ٤/١٧٤.

(١٤٦) المصدر السابق، ج ١، ص ٥٩٢.

(١٤٧) المصدر السابق، ج ١، ص ٥٧.

(١٤٨) محمد بن عمر أبي عبد الله فخر الدين الرازي، **التفسير الكبير**، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، طهران بلا تاريخ، ج ٢، ص ٨٤.

خصه الدليل.[١٤٩] يقول ابن قيم الجوزية (ت.٧٥١) في تفسير قوله تعالى من سورة البقرة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ وهذا خطاب لجميع بني آدم يشتركون كلهم في تعلقه بهم[١٥٠] يقول الثعالبي (ت.٨٧٦) حينما يفسر قول الله سبحانه﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾[١٥١]: هذه مخاطبة لجميع الكفار ومستمرة مدى الدهر والحق هو القرآن والشرع الذي جاء به محمد صلى الله عليه سلم[١٥٢]. ويخرج الشوكاني (ت ١٢٥٠): عن ابن عباس أن المراد به فريقا الكافرين والمؤمنين[١٥٣]، ويرجح محمد رشيد رضا (ت.١٣٥٤) أيضا أن الخطاب عام للناس كافة[١٥٤] يقول محمود حجازي (من المعاصرين) عند تفسير قوله تعالى ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ

(١٤٩)عبد الله بن عمر البيضاوي ، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، مصر ١٣٨٨/ ١٩٦٨، ج ١، ص ٣٢.

(١٥٠) شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية ، بدائع التفسير ، الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية جمع يسرى السيد محمد ، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى المملكة العربية السعودية ١٤١٤/١٩٩٣، ج ١ ص ٢٨٨.

(١٥١) يونس ، ١٠/١٠٨.

(١٥٢) محمد بن مخلوف الثعالبي، **جواهر الحسان في تفسير القرآن**، مؤسسة الأعلى، بيروت بلا تاريخ، ج ٢، ص ١٩٥.

(١٥٣) محمد بن علي الشوكاني، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، دار الفكر، بيروت ١٤٠٩/١٩٨٩، ج ١، ص ٥١.

مِن رَّبِّكُمْ ﴾[155] هذا النداء الذي أمر به الرسول الأعظم هو للناس جميعا على اختلاف أشكالهم وألواهم... ومن سيسمع في المستقبل...ويقول: يا أيها الناس... إن الله الذي وضع نظاما دقيقا محكما لهذا الكون وما فيه، لم يختل ولن يختل، لا يعقل أن يترك الإنسان المكرم عنده، المشرف من خلقه بلا نظام ولا قانون يحكمه ويهديه.[156]

نكتفي بهذا القدر لأننا لو حاولنا استيعاب أقوال العلماء في تفاسيرهم واستقصاء جميع ما قالوا في توجيه تلك الآيات التي تدل على عالمية القرآن لاضطررنا إلى كتابة الكثير الكثير.

فدلالة كل واحدة من الآيات التي نستدل بها على عالمية القرآن واضحة ولكل منها **أبعاد** دلالية رائعة ونكات بلاغية فائقة، حتى إننا رأينا عن كثب أن ما يدل على عالمية القرآن ليست هذه الآيات فقط بل هي تبدو وكأنها لون طبيعي على القسم الأكبر من الآيات القرآنية لكن يعلمها من يعلمها ويجهلها من يجهلها. فمثلا نرى أن محمد رشيد رضا

---

(١٥٤) محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، دار المعرفة، الطبعة الثانية ، بيروت بلا تاريخ ، ج ١، ص ١٨٠.

(١٥٥) يونس ، ١٠/١٠٨.

(١٥٦) محمد محمود حجازي، **التفسير الواضح**، دار التفسير، الطبعة السابعة، القاهرة ١٩٧٩/١٣٩٩، ج ١، ص ٧٧-٧٨.

(ت ١٣٥٤) ينقل عن شيخه محمد عبده (ت.١٣٢٣) حول أبعاد دلالة بعض من أجـــزاء آيــة ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [١٥٧] فيقول: "وإنما عبر بهذه العبارة و لم يقل "فصوموه" لمثل الحكمة الـتي لم يحدد القرآن مواقيت الصلاة لأجلها، وذلك أن القرآن خطـــاب الله العام لجميع البشر...إن من الآيات الكبرى على كون هذا القرآن مـــن عند الله المحيط علمه بكل شيء لا من تأليف البشر ما نـــراه فيـــه مـــن الاكتفاء بالخطاب العام الذي لا يتقيد بزمان من جاء به ولا مكانه ولـــو كان من عند النبي صلى الله عليه وسلم لكان كل ما فيه مناسبا لحـــال بلاده وزمانها وما يليها من البلاد التي يعرفها. و لم تكن العرب تعـرف أن في الأرض بلادا نهارها كعدة أنهر أو أشهر من أنهرنا وأشهرنا ولياليـــها كذلك . فمنزل القرآن وهو علام الغيوب وخـــالق الأرض والأفـــلاك خاطب الناس كافة بما يمكن أن يمتثلوه." [١٥٨] وحيث لا سعة لنا في المقام حتى نتناول الكل بالتحليل والتفصيل وبيان وجه دلالتها علـــى عالميـــة القرآن فنكتفي منها بما رأيناه أجمع في باب الدلالة علـــى المدعـــى ولا نتناول بالتفصيل والتحليل سوى آيتين فقط:

---

(١٥٧) البقرة ١٨٥/٢.

(١٥٨) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج ٢، ص ١٦٢-١٦٣.

١- ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ ﴾ فإذا ركزنا عليها بشيء من التعميق والتدقيق رأينا دلالتها على عالمية القرآن ظاهرة باهرة حيث إن الآية توجه الأمر بالعبادة إلى عالم البشرية قاطبة -كما نقلنا عن ابن قيم- لا إلى طبقة خاصة أو جنس خاص أو من هم في زمن واحد فقط. فعموم الناس في "**يا أيها الناس**" يدل على أن كل الناس في كل الأزمنة -لأنه ليس هناك قيد يدل على تخصيصه بزمن ما والأصل العموم لوجود القرينة الدالة عليه وهو أن لفظ الناس جمع دخله الألف واللام فيفيد الاستغراق[١٥٩]- مخاطبون بالعبادة[١٦٠] التي ذكرت في القرآن مجملا وبين وجهها وكمياتها وكيفياتها وأزمنتها وأمكنتها وشروطها وفروضها على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام مفصلا، وعبادة الله سبحانه إنما تتحقق كاملة بالامتثال لجميع ما أمر به من الأحكام في كتابه وعلى لسان نبيه لأن الأحكام من جملة مأموراته وإطاعته فيما أمر به من جملة عباداته. فإذا كما أن الأمر بالعبادة متوجه إلى جميع الناس فكذلك جميع الأحكام القرآنية أيضا متوجه إلى جميع الناس طالما لم يكن هناك دليل نقلي برفع الحكم من تخصيص[١٦١] أو نسخ أو غيرهما. الـرازي

(١٥٩) انظر الرازي، ج ٢، ص ٨٤، ج ٩، ص ١٥٨.

(١٦٠) انظر رشيد رضا، المنار، ج ٢، ص ١٦٢-١٦٣.

(١٦١) البيضاوي، أنوار التنزيل، ج ١، ص ٣٢.

يتجه نفس هذا الاتجاه حينما يوجه قول الله تعالى في الآية الأولى من سورة النساء: "**يا أيها الناس اتقوا ربكم**" فيقول: "وإذا كان لفظ الناس عاما في الكل، وكان الأمر بالتقوى عاما في الكل، وكانت علة هذا التكليف وهي كونهم خلقوا من النفس الواحدة عامة في حق الكل، كان القول بالتخصيص في غاية البعد" [١٦٢] وحيث نجد في القرآن قسما كبيرا من الأحكام فكل ما في القرآن من الأحكام داخل تحت هذا الأصل الكلي وليس ثمة شيء من الأحكام خارجا من هذا الإطار الكلي، أللهم إلا ما خصصه سياق النص نفسه مما أشرنا إلى طرف منه سالفا.

٢- ومما يعلن عالمية القرآن للناس جميعا قوله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [١٦٣] فإذا ما حاولنا أن نستنبط - وحق لنا ذاك- من خلال التعابير القرآنية وألفاظها مدعانا حول عالمية القرآن وجدنا ذلك سهل المساغ، لين المقاد، طوع القلم فإن تلك الآي الأربع التي تصرح بأن القرآن ذكر للعالم أجمع إنما أتت: أولا - في صورةالحصر [١٦٤]

(١٦٢) الرازي، ج ٩، ص ١٥٨.

(١٦٣) يوسف، ١٢/١٠٤، ص، ٣٨/٨٧، القلم، ٦٨/٥٢، التكوير، ٨١/٢٧.

(١٦٤) محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، الدار التونسية، تونس ١٩٨٤، ج١٧، ص ٣١٠.

والجملة بهذه الصورة الحصرية تنفي في هذا الصدد عن القرآن كل صفة تنافي عالميته وتجعل عالميته منصوصا عليها بلا امتراء ولا ارتياب.

ثانيا- إن تذكيره ومن ثم عالميته إنما هي باعتبار الرسالة التي تؤديها إلى الإنس والجن فتصلح من خللهم وتزيل من دغلهم كما تنبئ عن ذلك مادة الذكر أيضا فإن اللفظة تعني أن القرآن ذكر يذكر الناس والجان ما يحتاجون إليه فردا وأسرة ومجتمعا ودولة في عقائدهم وعباداتهم وتنظيماتهم واتجاهاتهم وفي مادتهم ومعناهم وفي أولاهم وعقباهم لا أنه ذكر بمجرد كونه ألفاظا تتلى في بعض المناسبات الإسلامية ويترنم بها في بعض الأيام الدينية أو تذكر في المواسم والطقوس الدينية فحسب لا صلة لها بالحياة وتوجيهها وترشيدها وإنارة سبيلها فإن هذا المعنى الجاف المنكمش – مهما توافق مع الأديان الأخرى- لا يتواءم مع طبيعة القرآن وهديه أبدا. يقول ابن عطية (ت.٥٤٦) وابن حيان (ت.٧٤٥) إن كلمة "للعالمين" عام للإنس والجن ممن عاصروه وممن جاء بعده وهذا معلوم من الحديث المتواتر وظواهر الآيات.[١٦٥]

---

(١٦٥) محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي، **البحر المحيط**، دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٤٠٣/١٩٨٣، ج ٦، ص ٤٨٠، محمد عبد الحق بن غالب بن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت ١٤١٣/١٩٩٣، ج ٤، ص ١٩٩.

ثالثا- إن صيغة العالمين بجمعيتها وتعريفها باللام المعرفة تدل في العربية على معنى الاستغراق[١٦٦] لأن الجمع المعرف باللام من صيغ العموم كما أسلفنا قريبا مع أنه مما لا ريب فيه على كل من لديه أدنى إلمام بالعربية أن للفظة "عالم" مفرد العالمين أيضا دلالة صريحة واضحة بلا تكلف أو تعسف على العموم فإن معناه كل ما يعلم به وجود الصانع من كل ما في الكون فإذا جمع بالواو والنون - كما هنا- يكون خاصا بالعقلاء من الإنس والجن أجمعين. فإذا تدل لفظة "**للعالمين**" أيضا على أن القرآن ذكر لجميع العقلاء من الإنس والجن جميعا بلا تقييد بزمان أو مكان أو طبقة أو جنس. حتى إن الرازي (ت. ٦٠٦) يقول انطلاقا من عموم دلالة العالمين: "لفظ العالمين يتناول جميع المخلوقات (يعني لا الإنس والجن فقط) فدلت الآية على أنه رسول للخلق عامة إلى يوم القيامة"[١٦٧] ومن البداهة بمكان أن عموم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إنما يتحقق بعالمية مضامين كتابه الذي أرسل به إلى الناس كافة وهو يشكل معظم رسالته التي يبلغها للناس عامة وكذا يقول القنوجي

---

(١٦٦) المصدر السابق، محمد حسين الطباطبائي: **الميزان في تفسير القرآن**، الطبعة الثالثة، ١٩٧٤، ج ١٤، ص ٣٣١.

(١٦٧) محمد فخر الدين بن عمر الرازي، **التفسير الكبير**، دار الفكر، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٠١/١٩٨١، ج ٢٤، ص ٤٥.

(ت.١٣٠٧) أي ما هذا القرآن أو الوحي أو ما أدعوكم إليه إلا ذكر من الله للجن والإنس العقلاء.[١٦٨]

فادعاء أن القرآن خاطب قطاعا خاصا من التاريخ أو أتى بأحكام خوطب بها قطاع خاص من الناس فرية بلا مرية طالما لم يأت أربابه بالدليل القطعي من الكتاب والسنة على مدعاهم. وأنى لهم ذلك؟؟

فالقرآن ذكر لهم (أي جميع الناس): يذكرهم وجهة الصواب في دينهم ودنياهم، يذكرهم ما يصلح حالهم فرادى وجماعات،

ذكر لهم: يذكرهم الحكمة ويزكيهم ويرشدهم في جميع اتجاهاتهم الفردية والاجتماعية: العلاقات الثنائية والملابسات الأخلاقية والصلات السياسية،

ذكر لهم جميعا: بلا تفريق ولا تمييز بين غني أو فقير، بين شريف أو وضيع، بين عالم أو جاهل، بين فاضل أو خامل، بين أسود أو أبيض، بين عربي أو عجمي،

ذكر للكل في كل زمان ومكان وعلى كل حال وفي كل مستوى وتجاه كل حكمة وهداية وبر واستقامة مادية أو معنوية يهتدي إليه المهتدون ويضل عنه الغافلون الضالون؛ يقول المراغي (ت ١٣٦٥) في

(١٦٨) محمد صديق حسن خان القنوجي، **فتح البيان في مقاصد القرآن**، دار إحياء التراث الإسلامي، قطر ١٤١٠/١٩٨٩، ج ١٢، ص ٧٣.

تفسير الآية المذكورة: "أي ما هذا القرآن إلا عظة للثقلين كافة وكل ذي عقل سليم وطبع مستقيم يشهد بصحته وبعده عن البطلان والفساد.[١٦٩]

فدلالة على كون القرآن ذكرا في جميع تلك النواحي التي ذكرناها أطلق الذكر في الآيات ولم يقيد بأي مقيد كما هو سياسة القرآن في الدلالة على العموم وسيأتي ذلك إن شاء الله تعالى.

وإلى جانب تلك الآيات هناك آيات أخرى أيضا تصرح بعالمية القرآن من غير التباس ولا اشتباه من مثل قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[١٧٠]، ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[١٧١]، ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾[١٧٢] ﴿ تَبَارَكَ

---

(١٦٩) أحمد مصطفى المراغي، **تفسير القرآن الكريم**، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الخامسة، مصر ١٣٩٤/١٩٧٣، ج ٢٣، ص ١٣٩.

(١٧٠) البقرة، ١٨٧/٢.

(١٧١) البقرة، ٢٢١/٢.

(١٧٢) إبراهيم، ١/١٤.

﴿ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[١٧٣]، ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾[١٧٤] ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾[١٧٥]، ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾[١٧٦]، ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾[١٧٧]، ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[١٧٨]، ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾.[١٧٩]

---

(١٧٣) الفرقان، ٢٥/١.

(١٧٤) النساء، ٤/١٠٥.

(١٧٥) الإسراء، ١٧/٨٩.

(١٧٦) الكهف، ١٨/٥٤.

(١٧٧) الروم، ٣٠/٥٨.

(١٧٨) الزمر، ٣٩/٢٧.

(١٧٩) الزمر، ٣٩/٤١.

بعض هذه الآيات تجعل عالم العقلاء* المكلفين على عمومهم بدأ من زمن البعثة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها سواء جنهم وإنسهم وسواء ذكورهم وإناثهم وعلماؤهم وجهلاؤهم من غير تقييد بزمان دون زمان أو مكان دون مكان أو مجتمع دون مجتمع أو مستوى دون مستوى تجعلهم جميعا محلا ومناطا لنزول القرآن والإنذار به ومخاطبا مكلفا بجميع ما ورد فيه من الأوامر والنواهي ومسؤولا عما ورد فيه من التكاليف والأحكام من غير تقييد بأي مقيد مما ذكرنا وبكلمة أخرى إن خطاب القرآن عامة بحسب الزمان والمكان والمكلفين ولا يختص الخطاب بحكم من أحكامه بمكلف دون آخر ما دام شرط التكليف موجودا ولا يستثنى من الدخول تحت أحكامه أي مكلف[١٨٠] كما يصرح البعض الآخر من تلك الآيات أن القرآن أتى بأمثاله وصرف فيها لأن يعتبر جميع الناس بها.

٢- الآيات الدالة على عالمية رسالة الرسول عليه الصلاة والسلام:

إن القرآن يذكر في آيات عديدة أن رسالة المصطفى عليه الصلاة

(*) إن علماء النحو ذكروا أن الجمع بالواو والنون يدل على العقلاء فقط لأن هذا الجمع خاص بالعقلاء لا غير سوى صيغ شاذة لا تعتد بها في خرم القاعدة. ونقلنا عن بعض المفسرين فيما سبق أنهم فسروه بالعقلاء.

(١٨٠) يوسف حامد العالم، **المقاصد العامة للشريعة الإسلامية** ، الطبعة الثانية منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي الولايات المتحدة الأمريكية فيرجينيا ١٩٩٤، ص ٤٣.

والسلام رسالة عالمية ليست مختصة بقوم دون قوم أو زمن دون زمن مما جعلت الرحمة المهداة إلى البشرية من قناة النبوة بوساطة القرآن رحمة عالمية عامة لجميع الجن والإنس بمؤمنيها وكافريها: من مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾[181] ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾[182] ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾[183] ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[184] ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[185] ﴿ وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾[186] ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ

---

(١٨١) البقرة، ٢/١١٩،، فاطر، ٣٥/٢٤،الفتح، ٤٨/٨.

(١٨٢) الإسراء، ١٧/١٠٥.

(١٨٣) الأحزاب،٣٣/٤٥.

(١٨٤) آل عمران، ٣/١٦٤.

(١٨٥) التوبة، ٩/٣٣، الفتح، ٤٨/٢٨، الصف، ٦١/٩.

(١٨٦) النساء، ٤/٧٩.

إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[187] ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[188]، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.[189]

فهذه النصوص تدل على أن البعثة عامة لا خاصة لأنه لو كان بعض الناس مختصا بما لم يختص به غيره لم يكن مرسلا للناس جميعا إذ يصدق على من لم يكلف بذلك الحكم الخاص أنه لم يرسل إليه به فلا يكون مرسلا بذلك الحكم إلى الناس كافة وذلك باطل[190]؛ لأنه يناقض صريح نصوص كثيرة قدمنا جملة منها وستأتي جملة أخرى. وقد سبق أن نقلنا عن إمام الحرمين (ت٤٧٨) قوله والخصائص بالإضافة إلى أحكام العموم قليل من كثير وكونه خص بعض أصحابه بالنص فيه دليل وإعلام بأن الأحكام الشرعية خارجة عن قانون الاختصاص.[191] رجح الطبري

---

(١٨٧) الأعراف، ١٥٨/٧.

(١٨٨) الأنبياء، ١٠٧/٢١.

(١٨٩) سبأ، ٢٨/٣٤.

(١٩٠) الشاطبي، **الموافقات**، ج ٢ ، ص ٢٤٧.

(١٩١) يوسف العالم المقاصد العامة للشريعة، ص ٤٣.

(ت.٣١١هـ) حينما فسر آية ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ أن الناس (المدلول عليه بكلمة العالمين) تشمل المؤمن والكافر[١٩٢]. فالذين يمارون في عموم الرسالة المحمدية ، أو يقفون بها عند حد مجتمع من المجتمعات، أو أمة من الأمم إنما يتأولون آيات الله على غير وجهها ويخرجون بالكلمات الواضحة الصريحة عن مفهومها ويحرفون الكلم عن مواضعها وإذا لم تكن الرسالة المحمدية رسالة الإنسانية كلها لم يكن معنى لأن تكون خاتمة الرسالات وأن يكون رسولها خاتم الرسل[١٩٣] فلولا التنصيص على عالمية الرسالة وجعل خطابها فوق الزمان والمكان لما كان للإتيان بتلك اللفظة الدالة على العموم بهيئتها وجوهرها معنى طيلة ما كانت الألفاظ المفيدة للخصوص التي تكون بديلة عنها موجودة في العربية بوفرة وكثرة.

وشيء آخر أنه لو جاز خطاب البعض ببعض الأحكام حتى يخص بالخروج عنه بعض الناس لجاز مثل ذلك في قواعد الإسلام أن لا يخاطب بها بعض من كملت فيه شروط التكليف بها وكذلك في الإيمان الذي هو

(١٩٢) محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، دار الفكر ، بيروت ١٩٨٨، ج ١٠، ص ١٠٦.

(١٩٣) عبد الكريم الخطيب ، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكري العربي، بلا تاريخ ، ج ٤ ، ص ٨١٥.

رأس الأمر وهذا باطل بالإجماع وعموم أحكام الشريعة لجميع من توفرت فيهم شروط التكليف يستلزم ذلك عمومها باعتبار الزمان والمكان[١٩٤].

يقول ابن عاشور (ت.١٣٩٣) رحمه الله:

"صيغت بأبلغ نظم إذ اشتملت هذه الآية على وجازة ألفاظها على مدح الرسول عليه الصلاة والسلام ومدح مرسله تعالى، ومدح رسالته بأن كانت مظهر رحمة الله تعالى للناس كافة وبأنها رحمة الله تعالى بخلقه.

ثم يسترسل ابن عاشور في بيان إثبات عموم الرسالة المحمدية مستنبطا ذلك من خلال كلمات الآية وحروفها وهيآتها:

فهي تشتمل على أربعة وعشرين حرفا بدون حرف العطف الذي عطفت به ذكر فيها الرسول ومرسله والمرسل إليهم والرسالة وأوصاف هؤلاء الأربعة مع إفادة عموم الأحوال واستغراق المرسل إليهم وخصوصية الحصر وتنكير رحمة للتعظيم إذ لا مقتضي لإيثار التنكير في هذا المقام غير إرادة التعظيم وإلا لقيل: إلا لنرحم العالمين أو إلا أنك الرحمة للعالمين. وليس التنكير للإفراد قطعا لظهور أن المراد جنس الرحمة وتنكير الجنس هو الذي يعرض له قصد إرادة التعظيم. فهذه اثنا عشر معنى خصوصيا فقد فاقت أجمع كلمة لبلغاء العرب وهي:

(١٩٤) الشاطبي، الموافقات، ج ٢، ص ٢٤٧.

قفا نبك من ذكرى حبيب ومترل

إذ تلك الكلمة قصاراها كما قالوا: "أنه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمترل" دون خصوصية أزيد من ذلك فجمع ستة معان لا غير.[١٩٥]

وإلى جنب هؤلاء العلماء الذين صرحوا بأن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم رحمة للعالم كافة ترى البعض الآخر منهم يبين وجهة كون هذه الرسالة رحمة عالمية تشمل الكافر والمنافق وغيرهما. ترى ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١/١٣٥٠) رحمه الله يفصح عن ذلك مجيبا عن شبهة تعتري البعض في الموضوع بقوله:

"أصح القولين في هذه الآية أنها على عمومها. وفيها على هذا التقدير وجهان: أحدهما أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته، أما أتباعه فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة.

وأما أعداؤه المحاربون له فالذين عجل قتلهم وموتهم خير لهم لأن حياتهم زيادة في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة وهم قد كتب عليهم الشقاء فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر.

وأما المعاهدون له فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته وهم أقل

(١٩٥) محمد الطاهر ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، الدار التونسية، ١٩٨٤ ، ج ١٦، ص ١٦٥-١٦٦.

شرا بذلك العهد من المحاربين له.

وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهليهم واحترامها وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيره.

وأما الأمم النائية عنه فإن الله سبحانه رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض فأصاب كل العالمين النفع برسالته.

والوجه الثاني أنه رحمة لكل أحد لكن المؤمنين قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وأخرى والكفار ردوها فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم لكن لم يقبلوها كما يقال هذا دواء لهذا المرض فإذا لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض.[١٩٦]

ويقول سيد قطب (ت ١٩٦٥) رحمه الله بعد كلام: "وغير هذا وذاك كثير يشهد بأن الرسالة المحمدية كانت رحمة للبشرية وأن محمدا صلى الله عليه وسلم إنما أرسل رحمة للعالمين من آمن به ومن لم يؤمن على السواء فالبشرية كلها قد تأثرت بالمنهج الذي جاء به طائعة أو كارهة؛ شاعرة أو غير شاعرة..."[١٩٧]

فكما ترى إن هذه الآيات تدل بصراحة ووضوح على أن رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رسالة عالمية تخاطب العالم بغير تقييد

---

(١٩٦) يسري السيد محمد، **بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية**، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، المملكة العربية السعودية ١٤١٤/١٩٩٣، ج ٣، ص ١٩٨.

(١٩٧) سيد، في ظلال، ج ٤ ص ٢٤٠٢.

بأمة دون أمة، رسالة تعدت حدود الزمان والمكان، رسالة جاوزت اللون والجنس فعمت البرية كلها من يوم بعثتها إلى أن تقوم الساعة. وشمول الرسالة وعالميتها تستلزمان عالمية الكتاب الذي تحتوي على تلك الرسالة ألبتة لأنه لا يتصور بأية صورة من الصور أن تكون رسالة النبي المبعوث بذلك الكتاب المجيد عالمية ويكون خطاب الكتاب الذي يفيدنا مضامين تلك الرسالة وأحكامه غير عالمية. هذا شيء لا يقدم عليه إلا مغرض كنود أو غافل جحود.

من هنا يتبين أن المؤمنين الأوائل تفاعلوا مع نصوص القرآن مهما كان مستواهم المادي والثقافي والحضاري وفي أية بقعة في هذا العالم وفي أية فترة من فترات التاريخ كانوا. فالصحابة أقبلوا على نصوص القرآن فعاشوا بها و لم يقيدوها بأنفسهم و لم يقصروها عليهم، وأقبل التابعون عليها فعاشوا بها وهكذا كل جيل جاء من هذه الأمة كان يجد عند القرآن ما يريد ويلقى عند نصوصه ما كان بحاجة إليه. وكذلك ينبغي أن يحرر هذا الكتاب من قيود الزمان والمكان و الأشخاص والأقوام ليعطي دلالاته لكل الناس ويطلق إشعاعاته لكل جيل وينشر أضواءه على العالمين. أما إذا قصر هذا الكتاب على حالة أو فترة أو شخص أو بلدة

أو قرن فإنها ستقيده وتفرغه من معانيه وتحرمه من أداء رسالته وكأنه يجعله سجين فهم أو أسير وضع أو رهين قوم.[١٩٨]

ثم إن هناك من سوى ما ذكرنا من الآيات كلمات وتراكيب وصيغا أخرى من الألفاظ والتراكيب والصيغ القرآنية تخاطب الناس عامة بلا تقييد بزمن أو صنف أو طبقة أو جنس أو مستوى[١٩٩] مما يدل على عالميته ومضي أحكامه إلى الأبد دون تقيد بأي شيء. ويسترعى أنظارنا من هذه الناحية خصيصا أن القرآن يتوخى في جمل خطاباته وجميع تعابيره وكل تراكيبه العموم دون الخصوص والإطلاق دون التقييد والإجمال دون التبيين ما وسع لذلك المقام والمرام. فإذا ما فرض أن القرآن خير بين أسلوبين أحدهما خاص أو مقيد أو مبين و الآخر عام أو مطلق أو مجمل اختار المطلق أو العام أو المجمل مطلقا، فانطلاقا من هذا

---

(١٩٨) صلاح عبد الفتاح الخالدي، **مفاتيح التعامل مع القرآن**، مكتبة المنار، الطبعة الأولى، الأردن ١٤٠٦/١٩٨٥، ص ١٠٥.

(١٩٩) إن القرآن يتجنب ما أمكن عن تلك الدوال الخصوصية التي تخص معنى اللفظة بأمر خاص أو فرد خاص أو مكان خاص أو مجتمع خاص أو طبقة خاصة أو نحوها من الخصوصيات. وهذا من أدل الدليل على عالميته ومن هنا تجد الألفاظ العامة مستعملة في القرآن بكثرة كالموصول العام ولفظة قوم النكرة والجمع المعرف باللام والنكرة في سياق النفي وأمثالها من ألفاظ العموم حتى إن بعضا من العلماء أفرد الألفاظ العامة في القرآن بالذكر فصار كتابا حافلا قيما في بابه منها **تلقيح الفهوم في صيغ العموم** لخليل بن الكيكلدا العلائي.

المغزى الهام قلما ترى في القرآن تذكر المخصصات والمحددات والمقيدات كأمثال الأمكنة المحددة أو الأزمنة الخاصة أو الأشخاص المعينة أو الأعراف والتقاليد المختصة أو الأحوال الخصوصية أو العوارض المشخصة التي لا يكون فيها درس أو عبرة أو حكمة للجميع. وإذا ما وقعت حاجة أثناء البيان القرآني للتخصيص بصفة أو نحوها فإنما ينتقى القرآن منها أيضا تلك الصفات العامة التي خصوصيتها أقل **كالمؤمنين والمتقين والصالحين والكافرين والمنافقين والغافلين والضالين** وأمثالها مما لا يخص بجنس أو طبقة دون أن يقيد ذلك بالحجازيين أو المكيين أو المدنيين مثلا مما يضيق دائرة دلالة اللفظ ودون أن يخصص اللفظُ فالحكمُ بأبي بكر أو علي رضي الله عنهما مثلا مما يخص الأمر مقتصرا على واحد لا يتعداه رغما من أن الصحابة عامة وأهل الحرمين خاصة كانوا هم الملاصقين بالرسول صلى الله عليه وسلم والمتنفسين معه بالدرجة الأولى جو الوحي الإلهي الذي كان يترل عليه. ومن هنا ترى أن ألفاظ وتراكيب الآي النازلة لسبب خاص وحول قضية خاصة وفي شأن شخص خاص جردت من عناصر التخصيص والتقييد ما أمكن ذلك وما لم يلتبس الأمر التباسا فمثلا انظر إلي آيات الإفك فرغما من أنها نزلت في **أم المؤمنين عائشة** رضي

الله تعالى عنها بإجماع[٢٠٠] مفسري أهل السنة[٢٠١] لا ترى في تلك الآي تحديدا بالاسم والنسب والقرابة للمفترى عليها- رغما من أنها كانت زوجة الرسول عليه الصلاة والسلام- فتراه يكتفي بذلك التعبير العام الشامل: لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وكذا لا ترى تخصيص أسماء الذين وقعوا في الذين وقعوا في فتنة الإفك من الأفاكين سوى التعريض بهم بذكر فعلتهم الشنيعة تلك بأن قال:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو

(٢٠٠) محمد بن علي الشوكاني، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، مصر ١٩٦٤، ج ٤، ص ١٢، ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٨، ص ١٨٣.

(٢٠١) انظر تفسير الطبري، ج ١٨، ص ٨٦-٩٥، محمد القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٥، ج ١٢، ص ١٩٧-٢٠٧، إسماعيل بن كثير أبي الفداء، **تفسير القرآن العظيم**، دار المعرفة، بيروت ١٩٦٩، ج٣، ص ٢٦٨-٢٧٦، علي بن محمد بن إبراهيم الخازن، **لباب التأويل في معاني التنزيل**، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، مصر ١٩٦٤، ج ٤، ص ١٢، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، **الدر المنثور في التفسير المأثور**، دار الفكر، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٣، ج ٦، ص ١٤٠-١٦٢، محمود شهاب الدين الآلوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الرابعة، بيروت ١٩٨٥، ج ١٨، ص ١١١-١١٨. حتى إن بعضا من محققي علماء الشيعة أنفسهم كالطبرسي لم يذكر في قصة الإفك سوى اسم أمنا عائشة رضي الله عنها (راجع الفضل بن الحسن الطبرسي، **مجمع البيان في تفسير القرآن**، دار الفكر، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٦، ج ٧، ص ٢٠٤-٢٠٦) كما نجد الطباطبائي لم يذكر حول من نزلت فيها آيات الإفك سوى قول ضعيف لبعض الشيعة مرضه هو نفسه و لم يعول عليه. (راجع محمد حسين الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن** ، مؤسسة إسماعليان، الطبعة الثانية ، ١٩٧٢، ج ١٥، ص ٨٩-١٠٣.

تلك بأن قـــال:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ... وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ ﴾ [٢٠٢] من غير تخصيص لأي واحد من الجماعة أو الفرد المتـــولي لكبر الإفك بالذكر. وكذا قوله تعـــالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ ﴾ [٢٠٣] فمع أن جمهور المفسرين ذكروا أنها نزلت في شـــخص خاص وهو الوليد بن عقبة[٢٠٤] لكن لا ترى في ألفاظ الآية أي مخصـــص أو محدد من اسم الشخص أو مكانه أو الحادثة التي كان هو البطل فيـــها والتي هي أيضا تحدده بعض التحديد. فلا ترى في القـــرآن التخصيـــص بإحدى المخصصات المذكورة طالما لم يلاحظ في تخصيصـــها أي درس أو أية عبرة أو أية فائدة ترجع إلى المخاطبين وتأتي لهم بأحكام مســـتجدة كما في قصة طلاق **زيد لزينب** رضي الله عنهما وزواج رسول الله منها.

وهكذا تكثر الأمثلة من الآي التي نزلت لسبب خاص أو في شخص خاص و لم يقع التحديد في ألفاظها من أي وجه ومن هنا وانطلاقا مـــن

---

(٢٠٢) النور، ١١/٢٤.

(٢٠٣) الحجرات، ٦/٤٩.

(٢٠٤) انظر عبد الله أبي ناصر القاضي ، **أنوار التتريل وأسرار التـــأويل**، مكتبـــة الحقيقـــة، إستانبول ١٩٩١، ج ٤، ٢٧٢، ابن كثير، ج ٤، ص ٣٠٨، الشـــوكاني، ج ٥، ص ٦٢، محمد جمال الدين القاسمي، **محاسن التأويل**، دار الفكر الطبعة الثانية، بـــيروت ١٩٧٨، ج ١٥، ص ١١٥.

الاتجاه القرآني إلى التعميم في غالب أحوالها ودلالاتها نجد أن عموم صيغ وألفاظ النصوص النازلة لسبب خاص هو الذي أتاح للأصوليين فرصة أن يضعوا قاعدتهم المشهورة -التي صارت فيما بعد مدارا لاجتهادات كثيرة واستنباطات جليلة في الفقه الإسلامي وهي: **"أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"** وقد أشرنا سابقا.

وكذلك إن الفرقان الحكيم يتعدى الحدود والسدود ويتجاوز الفوارق والسمات التمييزية حين يخاطب المكلفين الذين اتخذهم القرآن له مخاطبين يخاطبهم بتلك التراكيب والتعابير العالمية الواسعة الدلالات والمفاهيم رغما من ضيق الدائرة البشرية التي نزل القرآن فيها: **"يا أيها الناس"**،[٢٠٥] **"يا أيها الذين آمنوا"**، **"يا بني آدم"**[٢٠٦]، **"يا أيها الكافرون"**، مما يعم كل فرد من غير فرق. مع أن من المستطاع الأيسر له أن يخص من في تلك الدائرة الضيقة بالنداء وهو المتبادر المألوف للخطابات البشرية التي تقع في قطاع خاص أو بين جماعة خاصة. وهو المعروف لهم أيضا في أشعارهم وخطبهم ورسائلهم.

---

(٢٠٥) في خمسة عشر موضعا: البقرة، ٢/٢١، ١٦٨، النساء، ٤/١، ١٧٠، ١٧٤، الأعراف، ٧/١٥٨، يونس ١٠/٢٣، ٥٧، ١٠٤، ١٠٨، الحج، ٢٢/١، ٤٩، ٥، ٧٣، لقمان ٣١/٣٣، فاطر ٣٥/٣، ٥، ١٦، الحجرات، ٤٨/١٣.

(٢٠٦) في أربع آي من سورة الأعراف، ٧/٢٦، ٢٧، ٣١، ٣٥.

ويفصح عن عالمية القرآن أيضا ما يذكر في معرض بيـــان فوائـــد القصص والأمثال من أنه ضرب للناس أو صرف للناس من كـــل مثـــل كما أشرنا إلى ذلك قبل. فذكر "**الناس**" بصيغة الجمع المعرف بـــاللام يفيد الاستغراق[٢٠٧] في جميع تلك المواضع مما هو معروف عنـــد أهـــل العربية وقد سبق. فلو لم يقصد الاستغراق لما أوتي بصيغة الاستغراق وقد سبق أيضا.

وخصيصا إن مغزى عالمية القرآن يكون منصوصا عليـــه بصراحـــة ووضوح بالتنصيص على الناس (المفيد للعموم) حينما يذكر أن من المهام التي كلف بها الرسول بسبب نزول الكتاب هو الحكم بين النـــاس: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾.[٢٠٨]

وأما شبهة أن يكون التعميم بالنسبة للعرب فقط انطلاقا من مثـــل ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[٢٠٩] فـــأوهن مـــن نســـج العنكبوت بعد ما ذكرنا من تلك الأدلة القاطعة والنصوص الصريحة مـــن

(٢٠٧) انظر الرازي، ج ٢، ص ٨٤.

(٢٠٨) النساء، ٤/١٠٥.

(٢٠٩) الزخرف، ٤٣/٣.

مثل كلمة ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [٢١٠] من مثل آية: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ وأمثالها من النصوص الواضحة القاطعة الناصة في أن التعميم بالنسبة إلى الإنس والجن جميعا لا بالنسبة للعرب فقط. مع أن في نفس بعض تلك الآيات التي تذكر أن القرآن نزل بلسان عربي ردا بليغا على هؤلاء من مثل قوله تعالى: ﴿ كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [٢١١] حيث إن الآية تبين بصراحة أن القرآن فصلت آياته لكل قوم يعلمون لأن القوم نكرة تفيد في أمثال هذا المقام الاستغراق حتى يكون للتنكير فائدة كما أسلفنا ذلك عن ابن عاشور رحمه الله فيدخل ضمن القوم العالم جميع من اتصف بصفة العلم من أقوام الأمم الأخرى من غير تقييد بعربي أو غيره. فبئس ما يفترون!

إن هذا الإطلاق عن التقييد في آي الكتاب الجليل من أهم الدلائل على عالميته وأنه لا يخص بزمان أو مكان أو بقعة أو طبقة كما قررنا ذلك مرات عديدة وبهذا يفسح المجال لخطاب القرآن ومن ثمه لعموم معانيه وشمول أحكامه إلى حد كبير فيجعله فوق حدود الزمان والمكان

---

(٢١٠) القلم، ٥٢/٦٨.

(٢١١) فصلت، ٣/٤١.

والمجتمع وسائر المحددات.

ولا يخفى على النبيه الفطن أن كل تلك الآراء الكثيرة والتوجيهات الواسعة والاجتهادات البالغة والاستنباطات الجزيلة من القرآن في شتى الميادين العلمية من المجالات الفقهية والكلامية والأخلاقية والفلسفية والاقتصادية والتربوية والمذهبية والنفسية والسياسية والاجتماعية لم تكن إلا من عموم ألفاظه وأساليبه وعالمية بيانه ومغازيه وجامعية مضامينه ومعانيه.

فإذا ما لاحظنا جميع النصوص القرآنية بترابط بعضها مع بعض وجعلنا تلك الكلمات والتراكيب والصيغ التي تفيد العموم في محل الاعتبار- وهي أصدق شاهد وأنصع دليل على ما تنم عنه الألفاظ وتدل عليه من المعاني والمقاصد - وعلمنا جيدا أن أصدق التفاسير لكتاب الله هو نفس كتاب الله فهمنا قطعا وأدركنا يقينا أن عالمية القرآن مما لا ينبغي أن يماري فيها اثنان أو ينتطح فيها عتران. ولا يرتاب فيها عاقل ناصح لكتابه ولا يمتري فيها حازم صادق مع ربه ما لم يعرقله عن التفكير الحر السليم الصحيح تلك الأغراض اللئيمة الدميمة والنوايا السيئة الذميمة.

٢- السنة

إن قضية عالمية القرآن حيث كانت من البداهة بمكان بحشود تلك الآيات الكثيرة الموجودة في القرآن لم يذكرها النبي صلى الله عليه وسلم بكثرة كما ذكر بعض الأمور الأخرى التي تجدها في الجوامع الصحاح بكثرة ووفرة. ونكتفي في هذا الموضوع ببيان عالمية رسالة النبي صلى الله عليه وسلم فإن عالمية الرسالة و عالمية القرآن متلازمتان بمعنى: مستلزم كل واحد منهما للأخرى لأنه لا يتصور عالمية رسالة بدون عالمية كتابها كما لا يعقل عالمية الكتاب بغير أن يكون النبي مرسلا إلى كافة الناس. وكل هذه من البداهة بمكان.

يقول ابن عاشور "معلوم بالضرورة من الدين أن شريعة الإسلام جاءت شريعة عامة داعية جميع البشر إلى اتباعها، لأنها لما كانت خاتمة الشرائع استلزم ذلك عمومها -لا محالة- سائر أقطار المعمور وفي سائر أزمنة هذا العالم والأدلة على ذلك كثيرة من نصوص القرآن والسنة الصحيحة بحيث بلغت مبلغ التواتر المعنوي"[٢١٢] ويخالف ابن عاشور في ادعاء التواتر المعنوي الكثير فإنهم يدعون التواتر المطلق في الأحاديث التي تدل على عالمية الرسالة: قال ابن عطية الأندلسي وابن حيان إنها ثابتة

(٢١٢) ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، ص ٢٣١.

بالأحاديث المتواترة[٢١٣] كما سنقبس من الكتاني وغيره أيضا ونكتفي الآن بذكر جملة من الأحاديث التي لها صلة بالموضوع:

روى البخاري: "**أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي... وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة**"[٢١٤] يذكر الكتاني (ت ١٩٢٧) لهذا الحديث عشرة طرق مما يدل على تواتره كما ينقل التواتر عن السيوطي[٢١٥] أيضا.[٢١٦] ورواية مسلم: "**أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر**

---

(٢١٣) أنظر ابن عطية ، المحرر الوجيز، ج ٤، ص ١٩٩، وابن حيان، البحر المحيط، ج ٦، ص ٤٨٠.

(٢١٤) البخاري، التيمم/١.

(٢١٥) قال السيوطي في **قطف الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة** : أخرجه الشيخان: عن جابر بن عبد الله، وأبي هريرة؛ وأحمد: عن علي وابن عباس، وابن عمرو، وأبي ذر، وأبي موسى؛ والطبراني: عن ابن عمر، والسايب بن يزيد، وأبي سعيد. وقال محقق الكتاب: وأخرجه الترمذي عن أبي هريرة؛ والنسائي: عن جابر بن عبد الله، وأبي هريرة؛ والدارمي: عن أبي ذر، وأبي عوانة؛ وابن ماجه: عن أبي هريرة؛ والبيهقي: عن جابر. وقال الألباني: فالحديث صحيح، متواتر عن رسول الله صلى الله عليه سلم . (عبد الرحمن جلال الدين بن أبي بكر السيوطي، **قطف الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة**، المكتب الإسلامي، ١٩٨٥/١٤٠٥، ص ١٧١.

(٢١٦) انظر محمد بن جعفر الكتاني، **نظم المتناثر من الحديث المتواتر**، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٧/١٤٠٧، ص ٢١٩.

وأسود..."[٢١٧]

يقول الكتاني تعليقا على هذا الحديث بعد ما عنـــون البـــاب ب: حديث عموم الرسالة، وبعد ما وضع في العنوان: " **وأنه بعث إلى كـــل أحمر وأسود** يقول: ذكر غير واحد أنها متواترة معنى وعضدها القـــرآن والإجماع. وينقل عن الإمام التلمساني المعروف بابن الإمام حين استطرد الكلام على حديث: بعثت إلى الأحمر والأسود نقلا عن الشمني ما نصه: هذا الحديث وإن كان آحادا في نفسه متواتر معنى كما في الكتب، لأنــه نقل عنه صلى الله عليه وسلم من الأحاديث الدالة على عموم رسالته ما بلغ القدر المشترك منه التواتر، وأفاد القطع، وإن كانت تفاصيله آحـــادا كجود حاتم وشجاعة علي.[٢١٨]

ويقول ابن أبي العز (ت ٧٩٢) رحمه الله في شرح العقيدة الطحاويـة بعد ما نقل جملة من الآيات والأحاديث الدالة على عموم رسالته صلـــى الله عليه وسلم: "وكونه صلى الله عليه وسلم مبعوثا إلى النـــاس كافـــة معلوم من دين الإسلام بالضرورة".[٢١٩] ومن المعلوم أن كثيرا من العلمـاء كفروا من أنكر المعلوم بالدين ضرورة.

---

(٢١٧) مسلم، المساجد ومواضع الصلاة/١.

(٢١٨) الكتاني، **نظم المتناثر**، ص ٢١٧-٢١٨.

(٢١٩) علي بن علي بن محمد بن أبي العز، **شرح العقيدة الطحاوية**، تحقيق عبـــد الله محســن التركي وشعيب الأرناوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، بـــيروت ١٤١٣/١٩٩٣، ص ١٧٠.

قال القاسمي (ت.١٣٣٢) في شرح الحديث: قال مجاهد: أي يعني الجن والإنس وقال غيره يعني العرب والعجم والتحقيق في معنى عموم إرساله وشمول بعثته هو مجيئه بشرع ينطبق على مصالح الناس وحاجاتهم أينما كانوا وأي زمان وجدوا مما لم يتفق في شرع قبله قط ولهذا ختمت النبوات بنبوته عليه الصلاة والسلام.[٢٢٠]

وفي رواية أخرى لمسلم: "**فضلت على الأنبياء بست أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت الأرض لي مسجدا وطهورا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون**"[٢٢١]، وروى مسلم أيضا: "**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**"[٢٢٢] يقول النووي (ت ٦٧٦) في شرحه: ففيه نسخ الملل كلها برسالة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ... وقوله "لا يسمع بي أحد من هذه الأمة" أي ممن هو موجود في زمني وبعدي إلى يوم القيمة فكلهم يجب عليه الدخول في طاعته. وإنما ذكر اليهودي

(٢٢٠) محمد جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ، دار إحياء الكتب العربية، ج ٧، ص ٤٩٥.

(٢٢١) نفس المصدر.

(٢٢٢) مسلم، الإيمان/٦٩.

والنصراني تنبيها على من سواهما وذلك لأن اليهودي والنصراني لهم كتاب فإذا كان هذا شأنهم مع أن لهم كتابا فغيرهم ممن لا كتاب له أولى.[٢٢٣]

وإلى جنب تلك الأحاديث التي تدل صراحة أو رمزا على عالمية الرسالة المصطفوية ترى بعضا آخر من الأحاديث أيضا يدل على مكانة القرآن العالمية بصراحة منها:

يقول علي رضي الله عنه فيما رواه عنه الترمذي سمعت رسول الله صلى الله عليه سلم يقول: "ألا إنها ستكون فتنة" فقلت ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: "كتاب الله فيه نبا ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: "إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به)، من قال به

(٢٢٣) محي الدين أبو زكريا يحيى النووي، **شرح صحيح مسلم**، دار الفكر، بلا تاريخ، ج ١، ص ١٨٨.

صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هـــدي إلى صراط مستقيم."[٢٢٤]

نعم هذا الحديث تعقب عليه الترمذي وقال إنه حديث غريـــب لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات وإسناده مجهول وفي حديث الحـــارث (هو وحمزة الزيات راويا الحديث) مقال. لكن ليس جميع مســـتندنا في قضية عالمية القرآن هو ما في هذا الحديث والتي سيأتي بعدها فقط حـــتى يفرح المنكرون ويقولوا لنا قطعتم الغصن من تحت أرجلكم. حيـــث لا يمكنكم أن تأتوا بحديث واحد من الجوامع الصحاح تثبتون به مدعـاكم. لأننا قد نقلنا جملة من الأحاديث الصحاح وأسلفنا أن البعض من العلماء يقول إن الأحاديث التي تدل على عالمية الرسالة الأحمديـة متواترة[٢٢٥]. ثم إن في كتاب الله لنا غنية من الأدلة وإنما نأتي بما من هذا القبيـــل مـــن الأحاديث من باب المتابعة والاستئناس والإحاطة بما له صلة بـــالموضوع وإلا فالأحاديث مهما كثرت وقويت في موضوع ما هل تراها تحوز مـــن قوة الاستدلال ما تحوزه آية واحدة فقط؟

و في ختام هذا الموضوع نقدم جملة من الأحاديث/الآثار التي تـــدل على عظمة القرآن الكريم وأهمية معانيها وجامعيتها واستيعابها لمختلـــف

---

(٢٢٤) الترمذي، فضائل القرآن/١٤.

(٢٢٥) انظر الكتاني، نظم المتناثر، ص ٢١٧-٢١٩.

نواحي الحياة ومن ثمه تدل على أبعاد الحاجة الإنسانية إليها وقدرتها على تسيير الحياة بكل بر وسعادة ولكل هذه صلة قوية بعالميته أيضا:

١- روى الحاكم في مستدركه بسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "**إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم إن هذا القرآن حبل الله والنور المبين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن تبعه لا يزيغ فيستعتب ولا يعوج فيقوم ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات أما إني لا أقول الم حرف ولكن ألف ولام وميم.**"[٢٢٦]

٢- روى الحاكم أيضا بسنده عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " نزل الكتاب الأول من باب واحد على حرف واحد ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف زاجرا وآمرا وحلالا وحراما ومحكما ومتشابها وأمثالا فأحلوا حلاله وحرموا حرامه وافعلوا ما أمرتم به وانتهوا عما نهيتم عنه واعتبروا بأمثاله واعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه وقولوا آمنا به كل من عند ربنا"[٢٢٧] ٣- روى ابن حبان بسنده عن أبي شريح الخزاعي قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:

(٢٢٦) محمد بن عبد الله الحاكم، **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٠، ج١، ص ٧٤١-٧٤٢.

(٢٢٧) نفس المصدر، ج١، ص ٧٣٩.

" أبشروا وأبشروا، أليس تشهدون أن لا إلــه إلا الله وأني رســـول الله؟ قالوا: نعم، قال: "فإن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله وطرفه بـــأيديكم فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا، ولن تهلكوا بعده أبدا" [٢٢٨]

٤- روى ابن حبان أيضا بسند آخر عن جابر عن النبي صلـــى الله عليه وسلم قال: **"القرآن مشفع وماحل مصدق، من جعله أمامه قـــاده إلى الجنة ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار".** [٢٢٩]

٥- "ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمــن عليه من البشر وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحى الله إلي فـــأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيمة." [٢٣٠]

٣-إجماع الأمة

إجماع الأمة من أهم الدلائل التي اعتمد عليها أجلاء هذه الأمة سلفا وخلفا وإن لم يحبذها بعض من المتصلفين المتفلسفين الذين أشبعوا بالآراء

---

(٢٢٨) محمد بن حبان البستي، **الصحيح**، تحقيق شعيب الأرناوط وحســين أســد، مؤسســة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٤، ج ١، ص ٢٨٥.

(٢٢٩) نفس المصدر، ج ١، ص ٢٨٦.

(٢٣٠) مسلم، الإيمان/٦٩.

المستوردة والعقليات الدخيلة المجانبة للاتجاه الإسلامي وفلسفته وتحاليله الاستدلالية فهؤلاء لا كلام معهم أيضا فإن جل ما يدندنون به يحتكم إلى محاكمة عقلية نابعة من اتجاه غربي فلسفي بحت لا صلة له بمنظور إسلامي أبدا وليست محاكمة ناتجة من عقلية إسلامية حتى نخاصمهم بالأدلة المتشكلة في ذلك الإطار الإسلامي. ثم إنهم كلما ضاق عليهم المجال لا يتحرجون ولا يتجنبون عن المكابرة مع الحق الصريح الناصع وإنكار الصواب الجلي الساطع. وجميع المشاكل بيننا وبين القوم يدخن من هذا المركز حيث لا يقربون إلا فيما هو من صالحهم الفكري فقط. فحجية الإجماع –وإن رفضوها وأنكروها– أيضا من الإجماعيات عند غالب المسلمين سوى من لا يؤبه بخلافه.

ومنطق حجية الإجماع أولا هو أن في المنظور الإسلامي وزنا للعقول الراجحة وثقلا للآراء المصيبة في ميدان الحكم والاحتجاج فليس من العقل والحكمة في شيء أن يحكم بالبطلان والفساد على نتيجة وصل إليها المئات من نحارير العلماء المحققين الأثبات من خلال بحوثهم الدقيقة ودراساتهم المعمقة. ومن هنا يتجلى أبعاد الأهمية التي يعطيها الإسلام لحكم العقل المصيب وثانيا إن الإجماع مستند إلى نص دائما لكن عرفها من عرفها وجهلها من جهلها والنصوص التي استند إليها العلماء في موضوعنا شهيرة وكثيرة وقد ذكرنا طرفا منها فيما سبق.

وإجماع المسلمين على عالمية القرآن ظاهر[٢٣١] كالشمس في رابعة النهار لا خلاف فيها ولا مراء لم يقدم أحد من المسلمين سلفا وخلفا قديما وحديثا على ضدها و لم يقل به أحد من علماء المسلمين سلفا وخلفا[٢٣٢] ثبتت بإجماعهم المستمر عبر التاريخ كله، ما شذ منه أحد ولا ند، فكانت من أعظم القضايا الإسلامية بداهة وأكثرها وضوحا وأشدها قوة وأبرزها تماسكا بالدليل وبعدا عن القال والقيل، اتفقت فيها كلمة أهل الملة وأجمعت عليها رأي الأمة واتحدت لها آراء العلماء الأجلاء والأدباء النبغاء وقالت به العامة والخاصة لم يخالف فيها مخالف إلى أن جاء هذا اليوم العصيب. وفي هذا اليوم أيضا لا ينكرها إلا من ران على قلبه وكتب عليه الشقاء والتعساء ولا يقدم على إنكارها إلا من استخف بشعائر الملة القيمة واستهوته الشياطين حيران في أمره فنسئل الله العفو والعافية ونسئل لهم الإصلاح والهداية بمنه وفضله إنه مجيب الدعوات.

(٢٣١) انظر للإجماع على عالمية الرسالة المستلزمة لعالمية القرآن: الكتاني، نظم المتناثر، ص

(٢٣٢) يوسف العالم، المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، ص ٤٤.

القسم الثاني عالمية القرآن حضارة

المبحث الأول عالمية القرآن من الناحية المضمونية

إن الأدلة الدالة على عالمية القرآن بخطابه وأحكامه ومبادئه وقيمه كما أنها متوفرة من ناحية النصوص المفيدة بوضوح وصراحة أنه كتاب جاء للبشرية جمعاء من غير فرق بين زمان ومكان وطبقات ومستويات -وقد ذكرنا جملة من تلك الأدلة- وكذلك من ناحية أساليبه التي استعملها عبر آياته ومقاطعه بدءا من كلماته ومرورا بمفاهيمه وانتهاء بهيآت جمله فكذلك الدلائل عليها متوفرة من ناحية ما في القرآن من المضامين الحيوية والفضائل البشرية والكمالات السامية والقيم النبيلة والمعاني الإنسانية والملامح الحضارية والمفاهيم القيمة والأخلاق العلية الموجودة فيها بغزارة والتي تحتضن بين ذراعيها الحانيين جميع البشرية كي تهديها وتربيها وتهذبها وتقومها وتصلحها وتكملها وتفضلها وتسعدها كما قال سبحانه:﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [٢٣٣] ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن

(٢٣٣) الإسراء، ٨٢/١٧.

ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [٢٣٤] فلو قلنا ليس هناك آية من آيات القرآن إلا وفيها هداية للبشر وتنوير له وتقويم لاعوجاجه الذي يكتسبه ضمن ممارساته البشرية وإزاحة لاختلالاته التي يلتبس بها عبر احتكاكاته مع الأحداث والأيام لكنا معلنين عن نفس الحقيقة الناصعة فخذ مثلا أولى سور القرآن وهي سورة الفاتحة وتأمل ما توحي به هذه الكلمات الرحيمة الحكيمة:

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾:

من معنى الربوبية التي تدل على أن لعقلاء هذا العالم -كما لغيرهم- ربا يرهم يصلح أمورهم ويدبر شؤوهم ويبلغهم من أدنى دركات النقص والضعف إلى أعلى درجات القوة والكمال (وهي من معاني الربوبية)؛

ومن المعنى الذي يشد المؤمن بالكون من ناحية أخرى بجوهر كلمات: **الله،ورب، العالمين**، باعتبار أن الله الذي هو رب العالمين هو ربه وخالقه وراحمه أيضا فهو وهم مملكون ومربوبون لرب واحد

---

(٢٣٤) الأعراف ٧/٢٠٣.

مطيعون لأمره لا يستقل أي أحد منهما بالحركة والتصرف في ملكه بلا إذنه فبذلك يتعرف العبد على مصدر هذا الكون وخالق هذا العالم المحيط به الذي هو جزء منه ويتحصل من ذلك أيضا على رؤية معرفية قيمة حول الكون وموجده الأول (مصدره على حد تعبير الفلاسفة)،

ومن معنى الرحمة العامة الشاملة التي تحيط بالعباد في أمور دنياهم وأخراهم فبذلك يرزقهم ويصلح جميع شئوهم ويدفع عنهم ما يضرهم ويعطيهم ما ينفعهم (وهو معنى الرحمن) أو التي تخص عباد الله المؤمنين في أخراهم فيغفر لهم ذنوبهم و آثامهم ويدخلهم في نعيم جناته (وهو معنى الرحيم).ومن معنى تعليم ذلك الرب الرحيم عباده طرق طلب حوائجهم وعرض مآربهم على جنابه الأقدس (يدل عليه إياك نعبد وإياك نستعين إهدنا...)، ومن..ومن...

فإذا تأملت كل هذه المعاني وأمثالها مما توحي به هذه الجمل القدسية وإذا ألقيت نظرة عابرة على غيرها من سور هذا الذكر الحكيم وجدت نبعا ثرا فياضا بكل هذه المعاني ما تدرك به عن كثب عمق البعد الإنساني والحضاري لآي هذا الكتاب المجيد

فمن أهم ما يدل على عالمية القرآن غزارة معانيه وسمو مضامينه وسعة مفاهيمه وشمول مقاصده ومثالية قيمه وعظمة مبادئه وإنسانية أهدافه وأكملية تعاليمه التي تدل بمجموعها أولا على الطاقة الحضارية

العظيمة الجامعة المضمنة في هذا الكتاب المجيد وثانيا على عالمية رسالته وحضارته التي أتى بها، فيتبين من خلال مقاطع وآيات هذا النص المبين تلك العناصر والمعالم الحضارية التي يتكون منها الكيان الحضاري الإسلامي والمبثوثة في جميع أرجاء النص. ويبدو ذلك عيانا لكل متدبر منصف من خلال أمور ثلاث: أ- فطرية أحكام وأخلاقيات القرآن ب- أساليب القرآن ج- اهتمامات القرآن.

المبحث الثاني فطرية أحكام القرآن وأخلاقياته

إن من أهم ما يدل على عالمية القرآن ويقتضيها ملاءمة رسالته للفطرة البشرية السليمة ومواءمتها للطبيعة الإنسانية المستقيمة ونعني بذلك أن تلك الأحكام والأخلاق التي يأمر القرآن بها ليست بحيث تبهظ على العقول قبولها أو على الأبدان حملها أو على النفوس هضمها وكذلك ليس في القرآن ولا في شريعته مالا يلائم طبيعة المجتمعات السليمة أو يناقضها وليس فيهما ما تسوء أو تتضرر به الجماعات والمجتمعات من الأحكام والأخلاق والمعتقدات والمعلومات بل كلها يوائم الفطرة (فطرة الفرد والجماعة والمجتمع) مواءمة حسنة وينسجم مع الفطرة انسجاما كاملا شاملا بحيث تسعد النفوس بامتثالها وترتاح القلوب بالانصياع لها فليس في أحكامها ما لا يوصل إليها إلا بشق الأنفس.ولا ما تشقى بها الناس فرادى وجماعات: ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾.[٢٣٥] اللهم إلا تلك النفوس التي غلبت عليها شقوها وكانوا قوما ضالين.

---

(٢٣٥) طه ٢٠/١-٢.

فمن أهم دلائل موافقة الحضارة القرآنية للفطرة أنه ليس في ما قدمه القرآن من معالم الحضارة ومبادئها وأسسها وقواعدها ما يتضرر به أي من طبقات الناس وأفرادهم في الحدود المعتدلة وبموازين العقلية المستقيمة؛ ليس فيه طغيان لا على الفقراء ولا على الأغنياء وليس فيه تعد لا على العلماء ولا على الجهلاء وليس فيه بؤس لا بالشباب ولا بالشيوخ وليس فيه إضرار لا بالإناث ولا بالذكور وليس فيه مشقة بالمتمدنين ولا بالمتخلفين فكل يجد فيه بغيته وكل يفوز فيه بمنيته والجميع يظفر فيه بمتعته المادية والمعنوية والكل يجد السعادة والهناء على مائدته والتاريخ أصدق شاهد وأعدله.

إن هذه الحقيقة الناصعة عن القرآن هو ما فهمه المنصفون من عقلاء الشرق والغرب وعلماء السلف والخلف لأنك إذا رأيت أن كلا الطرفين ينصاعون لحقائق القرآن ويذعنون له خاضعين لجماله وكماله فليس ذاك إلا من موائمته للفطر السليمة. هاهو **مراد هوفمان** المسلم الألماني الذي أسلم عام ١٩٨٠ وهو سفير لألمانيا لدى حكومة المغرب يقول:

"الحق إن ديناميكية المسلمين المعاصرين أو حركيتهم ومقدرتهم على التعايش السلمي لا يتسنى لمسهما ومعرفتهما دون تفهم الإسلام ذلك

الدين العالمي بعظمته الروحية والفكرية والعقلية".[٢٣٦]

إن **محمد أسد** ذلك الغربي اليهودي الأصل يعبر عما فهمه من الإسلام فألجئ آخر الأمر إلى تبني الإسلام عقيدة ومنهج حياة:

"إن النظام الذي أعلنه النبي محمد صلى الله عليه وسلم في السنوات الثلاث والعشرين من رسالته لم يختص بالشئون الروحية فحسب بل زود إطارا لكل نشاط فردي واجتماعي أيضا. إنه لم يبسط مفهوم الصلاح الفردي فحسب بل عرض أيضا مفهوم المجتمع العادل الذي يجب أن يوجده ذلك الصلاح لقد قدم مجمل المجتمع السياسي – المجمل فحسب لأن تفاصيل حياة الإنسان السياسية تتوقف على الزمن فهي لذلك عرضة للتبدل والتغير– كما قدم نظاما للحقوق الفردية والواجبات الاجتماعية، أخذ فيه بعين الاعتبار حقيقة التطور التاريخي. لقد شمل الشريعة الإسلامية الحياة من جميع وجوهها، المعنوية والجسدية، الفردية والمجتمعية، وكان لمشاكل الجسد ومشاكل العقل، ولمشاكل الجنس والاقتصاد، جنبا إلى جنب مع مشاكل الدين والعبادة مكانها الحقيقي، مكانها الصحيح (أي حلولها الصالحة) في تعاليم محمد (صلى الله عليه وسلم).[٢٣٧]

---

(٢٣٦) مراد هوفمان، **الإسلام كبديل** ترجمة غريب محمد غريب، الطبعة الثانية، الرياض ١٤١٨-١٩٩٧، ص ١٩.

إن **محمد أسد** حينما يعرب عن سبب إسلامه يقول حـــول قضيـــة أهمية الاجتماعيات ومكانتها في الإسلام:

"ولا أستطيع أن أقول أي النواحي (من الإسلام) قد اســــتهوتني أكثر من غيرها، فإن الإسلام على ما يبدو لي بناء تام الصنعة وكـــل أجزائه قد صيغت ليتمم بعضها بعضا ويشد بعضها بعضا فليس هنـلك شيء لا حاجة إليه وليس هناك نقص في شيء فنتج عن ذلــك كلــه ائتلاف متزن مرصوص..." ثم يقول بعد كلام: **"هذه الدراســـات و المقارنات خلقت في العقيدة الراسخة بأن الإسلام من وجهته الروحيـة والاجتماعية لا يزال بالرغم من جميع العقبات الــتي خلقــها تــأخر المسلمين أعظم قوة ناهضة بالأمم عرفها البشر"**[٢٣٨] وحينمـــا يذكـر الهدف من تأليفه كتابه **الإسلام على مفترق الطريق** يقـــول: **"وهــذا الكتاب... كتب على الأصح لأولئك الذين لا يزال يحيا في قلوبهـــم شرارة من ذلك اللهيب الذي كان يضطرم في قلوب صحابة رســـول الله صلى الله عليه وسلم ذلك اللهيب الذي جعل الإسلام فيما مضـى**

---

(٢٣٧) محمد أسد، **الطريق إلى الإسلام** ، ص ٢٤٣.

(٢٣٨) محمد أسد ، **الإسلام على مفترق الطريق**، ترجمة عمر فروخ، دار العلــم للملايـين، بيروت ١٩٨٧، ص ١٥-١٦.

عظيما بنظامه الاجتماعي ورقيه الثقافي"[٢٣٩] ونجده أكثر تصريحا بالحقيقة في موضع آخر من كتابه: "**إننا نعتقد أن الإسلام بخلاف سائر الأديان ليس اتجاه العقل اتجاها روحيا يمكن تقريبه من الأوضاع الثقافية المختلفة، بل هو فلك ثقافي مستقل ونظام اجتماعي واضح الحدود...**"[٢٤٠] ويشرح كلامه هذا في محل آخر: "**إن فكرتنا عن وحدانية الله يجب أن تتجلى في سعيها للتوفيق والتوحيد بين المظاهر المختلفة في حياتنا.**

هناك نتيجة منطقية لهذا الاتجاه هي فرق آخر بين الإسلام وسائر النظم الدينية المعروفة. ذلك أن الإسلام – على أنه تعليم (مبدأ يتقيد به الناس في حياهم الروحية)– لا يكتفي بأن يأخذ على عاتقه تحديد الصلات المتعلقة بما وراء الطبيعة فيما بين الأرض وخالقه فقط، ولكنه يعرض أيضا –بمثل هذا التأكيد على الأقل– للصلات الدنيوية بين الفرد وبيئته الاجتماعية"[٢٤١]

ويقول في ذلك العلامة ابن عاشور (ت ١٣٩٣): "وإذ قد أراد الله بحكمته أن يكون الإسلام آخر الأديان التي خاطب الله بها عباده تعين أن

---

(٢٣٩) المصدر السابق، ص ١٦.

(٢٤٠) المصدر السابق، ص ١٨.

(٢٤١) المصدر السابق، ص ٢٤.

يكون أصله الذي ينبني عليه وصفا مشتركا بين سائر البشر ومستقرا في نفوسهم ومرتاضة عليه العقول السليمة منهم ألا وهو وصف الفطرة حتى تكون أحكام الشريعة مقبولة عند أهل الآراء الراجحة من الناس الذين يستطيعون فهم مغزاها، فيتقبلوا ما يأتيهم منها بنفوس مطمئنة وصدور منثلجة، فيتبعوها دون تردد ولا انقطاع وحتى يتسنى لأرفعهم قدرا في الفهم محاذاة نظائرها وتفريع فروعها، وحتى يكون تلقي بقية طبقات الأمة – الذين لم يبلغوا مستوى أهل الآراء الراجحة- إياها تلقيا عن طيب نفس، ويسهل امتثالهم لما يؤمرون به منها"[٢٤٢]

ويقول في محل آخر من كلامه: "...أن الشريعة الإسلامية داعية أهلها إلى تقويم الفطرة والحفاظ على أعمالها، وإحياء ما اندرس منها أو اختلط بها...ونحن إذا أجدنا النظر في المقصد العام من التشريع...نجده لا يعدو أن يساير حفظ الفطرة والحذر من خرقها واختلالها. ولعل ما أفضى إلى خرق عظيم فيها يعد في الشرع محذورا وممنوعا، وما أفضى إلى حفظ كيانها يعد واجبا، وما كان دون ذلك من الأمرين فهو منهي عنه أو مطلوب في الجملة وما لا يمسها مباح.

"ثم إذا تعارضت مقتضيات الفطرة و لم يمكن الجمع بينها في العمل، يصار إلى ترجيح أولاها وأبقاها على استقامة الفطرة، فلذلك كان قتل

(٢٤٢) ابن عاشور، مقاصد الشريعة، ص ٢٣١.

النفس أعظم الذنوب بعد الشرك، وكان الترهب منهيا عنه وكان خصاء البشر من أعظم الجنايات ولم يجز الانتفاع بالإنسان انتفاعا يفيت عينه أو يعطلها، كالتمثيل بالعبد بخلاف الانتفاع بالحيوان، وكان إتلاف الحيوان بغير أكله ممنوعا.[٢٤٣]

حاصل الكلام إن كافة المعطيات القرآنية شريعة وأخلاقا قيما ومبادئا المتجهة إلى تنظيم وترتيب سائر الحقول والمجالات الحياتية حينما تتحسس جميع جوانبها وتستشف عامة عناصرها تجدها توائم كل الأصعدة البشرية وتوافق جميع المستويات المجتمعية -كما أسلفنا- لأنها الدين والرسالة التي تمثل دين الفطرة التي أودعها الله في جبلة بني آدم فردا وجماعة تلك الرسالة التي بلغت عن قناة الوحي بين دفتي كتاب الله إلى الرسول عليه الصلاة والسلام والتي تغرس في قلوبهم كرامة لا تمحى وإنسانية لا تذل.[٢٤٤] إذا ما راعوها وجعلوها لهم نبراس حياة وبوصلة عمل؛ وإلا فالويل والثبور لمن أعرض عنها ولهث خلف غيرها.

---

(٢٤٣) نفس المصدر ص ١٩٤.

(٢٤٤) عبد الحكيم سرور، إنسانية الإسلام، بتصرف ص ٥٢-٥٣.

المبحث الثالث أساليب القرآن

إن أبلغ الدلالات على ما يستهدف إليه أي نص إنما يتكون في نفس ذلك النص كما أن المحدد لكيفيات ومواصفات النص وملامحه وسماته الشخصية التي تبرز بها شخصية النص وشخصية واضع النص الفكرية والفلسفية والعلمية والثقافية هو أساليب النص المتكونة من كيفيات تراكيبه وهيآت عباراته وصور إفاداته وأنواع دلالاته من خلال صور صوغ مشاهده وطرق نفوذه إلى أعماق مخاطبيه والأدوات المتبعة عبر إيصال رسالة النص إلى الأجيال القادمة فمن خلال أساليبه التي صنع منها نسيج النص اللفظي ومن خلال نوعية إفادة مضامينه التي تكون منها كيانه الشخصي يمكن لنا أن نحدد اتجاه النص ورسالته التي يسعى النص تبليغها لمخاطبيه أو قرائه وأن نعين أبعاد النص الشخصية التي بها يتكون شخصيته وكذلك يتيسر بذلك التحديد الإجمالي لشيء من الأبعاد الكمية والكيفية لمخاطب النص الذي يستهدف النص إبلاغ رسالته إليهم.فمثلا إن الذي يحدد أن الكتلة المستهدفة من كتاب ألف في الطب الحديث طلاب الطب هو مضامين الكتاب ومحتواه فمهما ادعى شخص ثان خلاف ذلك فلا يلتفت إليه ويبقى كلامه فارغا في الهواء يسخر منه أرباب الحكمة والرواء وعلى الخصوص إذا كان المدعي ممن له

خصومة شخصية أو حقد مهني مع مؤلف الكتاب أو مضامينه فلا يلتفت إليه أبدا لأنه خصم متهم فلا يسمع قوله بدون أن يأتي ببينته الواضحة وحجته الساطعة.

إن هذا هو قصتنا مع من يدعي تاريخانية القرآن ومحدودية خطابه وموقوتية أحكامه بفترة محددة من الزمن. فهؤلاء حيث يدعون على كتاب هو من أعظم الكتب على الإطلاق وكذا هو من أكثر الكتب قراء وشراحا عبر تاريخه كله على الإطلاق وكذا إن القرآن كما يقول المستشرق برنارد لويس نال -سلفا وخلفا- ما لم يحظ أي كتاب سماوي -ولا بشري- من اهتمام الأكاديميين به وتوجه سائر أهل العلم والمعرفة[٢٤٥] إليه من المفكرين وكبار الفلاسفة إلى أعوام الناس والأميين منهم فهؤلاء يدعون على هذا الكتاب المجيد ويأتون له بمعيارية جديدة ابتدعوها من عند أنفسهم ما أنزل الله بها من سلطان بل هو منها براء ويلصقون به ما يتنافى مع طبيعة خلود رسالته وصريح خطاباته ويدعون عليه من ذلك الرأي السخيف في هذا العصر -الذي قوي فيه أعداؤه وضعف أصدقاؤه- ما لم يره فيه أحد من أهل العلم سلفا وخلفا رغما من كثرهم وقوة بصيرهم وحدة فطنتهم وسعة اطلاعهم وزيادة معرفتهم

(٢٤٥) برنارد لويس **لغة الإسلام السياسية**، ترجمه إلى التركية فاتح ياشار، إستانبول ١٩٩٢، ص ٢٠.

-مع أنهم نبهوا على الموقوتية لما هو من أحكامه موقوت بزمن الـــترول- ويقضون عليه بما لم يقض به عليه أحد لأن ذلك الرأي البـــالي والزعـــم الباطل ينافي مع طبيعة مضامين هذا الكتاب المجيد ورســـالتها. فـــهؤلاء كأنهم كشفوا الدنيا من جديد تراهم يتبخترون ويتبطرون برأي إذا مـــا عرضته بأمانة نزيهة وموضوعية أمينة على المعايير العلميــــة و الموازيـــن العقلية والحجج المنطقية والأدلة النقلية تراه أسخف من كـــل ســـخيف وأرذل من كل رذيل وأقبح من كل قبيح وأبطل من كل باطل ولكـــن قاتل الله أهل الباطل أنى يصرفون فرغما من رذالة باطلهم ونذالته تراهـــم له يتحمسون ومن أجله يتنمرون وبه يبلبلون وله يولولون مع تعارضــــه الصريح على علاته للمنظور القرآني العقدي وتنافيه الواضح مع المنطـــق الإسلامي الإيماني ومخالفته الظاهرة لكثير من نصوص الإسلام ومبادئــــه وأسسه وكذلك غريب كل الغرابة على مضامين القرآن وأساليبه ولكـــن رغم جميع هذا التناقض والتعارض تراهم يبوحون بباطلهم ولا يخجلـــون ويرتبكون في مستنقعهم الفكري الآسن ولا يـــهتدون لأن لله ســـنة في خلقه حيث يجادل الباطل مع الحق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

أما مخالفة ذلك الرأي السخيف مع النصوص القرآنيـــة ومضامينـــه ومفاهيمه فقد ذكرنا ثلة من ذلك فيما أسلفنا و فيما سيأتي وأمـــا الآن

فسنذكر بمشيئة الله تعالى بعدا دلاليا آخر من الأبعاد الدلالية التي تنم وتعرب عن عالميته وهو دلالة أساليب القرآن عليها.

ومن البداهة بمكان أن عظمة أهداف الكلام وعمق أبعاد دلالاته وسعة مجال متناولات خطاباته تدل من جانب على عظمة المتكلم به ومن جانب آخر على شمولية خطابه هو ومخاطبيه أيضا كما أن الكل يوسع المجال أكثر فأكثر لمتناول خطاب النص أيضا حتى يكون أوسع شمولا وأجمع تناولا علما منا أن عظمة المتكلم وعظمة كلامه أمران متلازمان كل منهما يستلزم الآخر فلا تصدر كبار الكلام من صغار الرجال بل ملوك الكلام كلام الملوك كما أن عادات السادات سادات العادات.

وحيث كان معالم جميع هؤلاء الأمور ومكامنها هو أساليب الكلام وكيفية تراكيبه وهيآت تآليفه لأن "الألفاظ -كما قال ابن جني في الخصائص - للمعاني أزمة وعليها أدلة وإليها موصلة وعلى المراد منها محصلة"[٢٤٦] فيتوجه إلينا أن نبحث عن الدلالة الأساليبية على عالمية القرآن ويمكن أن نجملها في قسمين -قصرا للمسافة- القسم الأول دلالات الكيان المجموعي لمضامين الأساليب ومفاهيمها على عالمية

(٢٤٦) سعيد بشار ، **المصطلح خيار لغوي وسمة حضارية**، الطبعة الأولى سلسلة كتاب الأمة رقم ٧٨ تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالدوحة قطر ١٤٢١هـ/٢٠٠٠ م، ص ٣٥.

الكيان المجموعي لمضامين الأساليب ومفاهيمها على عالمية القرآن وقد بينا ذلك ضمن اهتمامات القرآن وذكر ما يحتويه القرآن من العناصر والمقومات الحضارية وما توحي إليه من رسالة عالمية؛ والقسم الثاني ما يبدو من أساليبه من خلال استعماله لبعض الكلمات والتراكيب والتعبيرات والتحديات والتوجيهات والتصريحات والتلميحات التي يستفاد ويستيقن من مجموعها أن خطاب النص القرآني ككل ليس موجها إلى قوم واحد فحسب أو محددا بزمن محدد فقط ولا يتحدد بأي من التحديدات الزمانية أو الجغرافية المكانية ولا يتقيد بشيء من التعيينات الجنسية أو اللونية بل ذلك النص بمعظم كمياته مجرد عن الزمان والمكان[٢٤٧] يخاطب الكل ويشمل الكل ويحيط بالكل أحكامه وتكاليفه سواء منها الاعتقادية و الأخلاقية وسواء منها التشريعية والتنظيمية.

فمن تأمل أساليب القرآن الدلالية ومناهجه الكلامية في تقديمه رسالاته للناس يلتقي مع شيء غير مألوف له من مثل ما لاقاه وتآلف معه في النصوص البشرية المتقنة الرصينة فإن المعتاد في أساليب الناس والمألوف في تئاليفهم هو سمة التحدد والتقيد والتخصص سواء من خلال ما تتعرض له من المواضيع والمفاهيم وسواء من خلال ما تقدمه من المعاني والمضامين وسواء من خلال ما تجعله وسيلة لأداء رسالتها من

(٢٤٧) عمر عبيد حسنة، تقديم كتاب المصطلح خيار لغوي وسمة حضارية ص ١١.

انتقاء الألفاظ وانتخاب الكلمات وصياغة الهيئات و غير ذلك من الدلالات والتعبيرات والتصريحات. فقلما تجد في كلمات البشر ومن خلال الأساليب المألوفة في أدبهم وفلسفتهم وعلمهم وسائر طرق أدائهم في معارفهم ما تلقاه في القرآن بكثرة وغزارة مما يجعلك أمام توجه علني ورسالة عالمية وجها لوجه من تصور كلي يحيط بالكون وشمولية في الأداء وعمومية في المعاني وعظمة في المضامين وكبرياء في المفاهيم وإحاطة جامعية في الأساليب ومرونة في العرض وثقة تامة بالذات وهيمنة على ما قبله.

ومصداقا لذلك تقابل في القرآن كثيرا من التوجهات الشمولية والتوجيهات العمومية والرسالات العالمية المتوجهة نحو جميع البشر فكان لزاما أن يتجنب عن التخصيص والتحديد والتقييد ما وجد لذلك سبيلا حتى إن أسباب الترول –وهي من أقوى ما يتمسك به التاريخانيون– رغما من خصوصيتها في القوالب الأرضية ومحدوديتها بالأعراض البشرية وتكونها في كيان الأحداث الخصوصية لكن لم تستطع أن تحدد من عمومية النصوص وشموليتها إلا نادرا قليلا اقتضت حكمة التشريع نوعا من التحديد فيه من مثل ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ [٢٤٨]

(٢٤٨) الأحزاب ٣٧/٣٣.

فسياسة القرآن هذه في انتقاء الألفاظ والصيغ والهيئات العامة في الآيات النازلة للأسباب الخاصة من أدل الدلالات على عالمية هذا النص القرآني وخلوده ومن أظهر دواعي شموليته – وقد أسلفنا الإشارة إلى ذلك- فمثلا خذ قوله تعالى ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [٢٤٩] فرغما من أنها نزلت في أبي بكر إزاحة لموقفه السلبي مع قريبه مسطح بعد ما وقع منه ما وقع في حادثة الإفك من الخوض فيما لا علم له به من ذلك الموقف الشائن مع عائشة رضي الله عنها [٢٥٠] ولكن لا تجد في الآية أي مخصص يخصص حكمها بمن نزل فيه وهل هذا إلا لما تقصد الآية من إيصال حكمها وما تحتوي عليها من الدروس للأجيال القادمة وفي ختم الآية بقوله ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ دلالة قوية على ذلك وقس عليها غيرها من الآيات فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون وخسر هنالك المبطلون !

إن من تدبر أساليب القرآن في سرده لمعانيه وتقديمه لرسالاته يجد أيضا فيها شيئا آخر قلما يجده في النصوص البشرية والكتابات الأرضية

---

(٢٤٩) النور ٢٤/٢٢.

(٢٥٠) علي بن محمد أبي الحسن الماوردي، **النكت والعيون**، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٢،ج ٤، ص ٨٤.

أللهم إلا ما غلبت على صاحبه رعونته وطغت به كبرياؤه فادعى ما فوق حده وتصدى لما يخل بجده وذلك هو مطلق الثقة التي يتمتع بها القرآن المجيد من خلال جميع ما يستعرضه من المسائل المفيدة والأحكام العظيمة والمعلومات الصحيحة فثقته التامة هذه تدل على أنه مهيمن لا على الكتب السماوية فقط بل على الكون كله.

وتلك الثقة التامة تبدو واضحة جلية لكل منصف متأمل في كتاب الله من خلال أساليبه التي استعملها القرآن عبر تشريعاته وتنبيهاته وتوبيخاته وتحدياته وتذكيراته وتوجيهاته وترغيباته وترهيباته وتحذيراته وتبشيراته وتعليلاته وتمثيلاته وإجاباته وإرشاداته واستدلالاته واحتجاجاته ومحاوراته ومعالجاته ومواعظه ونصائحه وعلومه وحكمه وأحكامه وأقسامه وأمثاله وأفعاله ففي سرد الكل ترى عرضا محكما متقنا عرض من يخبر عن يقين وهو واثق بنفسه وقوته العلمية وإحاطته المعرفية في صدق جميع ما اشتمل عليه من المعلومات لا تجد فيها ولا من بينها تلكأ المتردد ولا تلعثم المتشكك ولا حيرة الحائر ولا اضطراب غير الواثق ولا تناقض الجاهل ولا تعارض الغافل ولا كبوة العالم ولا هفوة العارف ولا عثرة الفاضل ولا هذيان الخامل ولا لغو الهازل بل يعلن كل مرة أنه الحكم الوحيد المحيط بالكون المهيمن على الكل والمصدق للجميع والمصوب للعموم ويبين بصراحة ووضوح أنه لا

ريب فيه هدى للمتقين ويصرخ بثقة وطمأنينة كاملة أنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ويعلن بوثوق كامل أنه لا يرتاب فيه إلا المبطلون.

نلخص تلك الأساليب التي تبرز منها عالمية خطاب القرآن وشمولية رسالته وعمومية هدايته فيما يلي:

١-عموم الألفاظ والصيغ التي استعملها القرآن في باب الحجاج والاستدلال وعظمة مشاهدها

إن مما يستجلب نظر قارئ القرآن أن القرآن يختار عبر محاجاته الجمة واستدلالاته الكثيرة تلك الألفاظ والصيغ التي تدل على أوسع المفاهيم وأشمل المضامين وأعم المعاني، وأهم من ذلك أن الغالبية العظمى من حججه كونية، كلية، عظيمة تحتضن بالكون كله وليست بجزئية بسيطة تتعلق بشيء معين بسيط تافه قصير المدى قليل المغزى يسير الجدوى بل تتعلق بالخلق والكون والأفلاك والسموات والأرض وما بينهما. فمعاني العظمة والجلال تكتنفها من كل صوب وأوب وهذه العظمة الضافية على الكثير من المشاهد القرآنية سواء في باب الحجاج وسواء في سرد مشاهد القيامة أو في غيرها تستحق اهتماما عظيما واعتناء كبيرا وأن

نقف أمامها طويلا نتأمل في أيحاءآتها ودلالاتها وإشاراتها ونعتبر من دروسها وحكمها وعبرها ونقبس من أسرارها وأنوارها فيا ترى هل تجد عظمة توازي أو تداني عظمة هذه الكلمات في فحواها في قوله سبحانه: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ [251] أو قوله سبحانه:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [252] أو قوله جل في علاه: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [253] فهذه العظمة في مشاهد القرآن والكبرياء والعموم في أدلته دالة على عظمة رسالته وعمومها لأن بعظمة فحوى الأدلة وعموم مغزاها يفتح مجال الاستدلال والتفكير للكل ويستنطق منطق الجميع.

وخصيصا إن تلك الأساليب العجيبة التي تصلح لخطاب كل المستويات العلمية والمعرفية في جميع الأزمنة أدل على عالمية الكتاب

---

(251) الأنبياء 21/104.

(252) الحج، 22/18.

(253) الزمر 39/67.

وصلاحيته لكل زمان ومكان فمثلا خذ من آية ١٧ إلى آية ٣٠ من سورة الروم تجد بشكل واضح أن هذا الخطاب لا يمكن أن ينحصر في حدود الزمان والمكان اللذين نزل فيهما القرآن وخصوصا تأمل أكثر فأكثر ما ينتهي به بعض آيات هذا المقطع من قول سبحانه: "...**بشر تنتشرون**" ؛"..**لقوم يتفكرون**"؛"..**لآيات للعالمين**"؛"..**لقوم يسمعون**"؛"..**لقوم يعقلون**"؛"..**كل له قانتون**"؛"..**لقوم يعقلون**"؛"..**وما لهم من ناصرين**"؛ "..**ولكن أكثر الناس لا يعلمون**".[٢٥٤]

٢-استغراق صيغ الصفات الإلهية وعموم الأفعال الربانية

إن مما لا يستطيع قارئ القرآن أن يعرض أو يغفل عنه في مجال البحث عن ملامح العظمة ومعالم الكبرياء في الأساليب القرآنية التي تنم عن عالميته هو ما يراه منثورا في غالب جوانب القرآن ومبثوثا في معظم أرجائه من ذكر الصفات الإلهية والأفعال الربانية في قوالب من الصيغ العامة وجواهر من الكلمات المستغرقة بحيث لا ترى أكبر مدلولا وأعظم

---

(٢٥٤) راجع القرآن الكريم: الرعد ١٣/١-٥،إبراهيم ١٤/٣٢-٣٤؛ النحل ١٦/٣-٢٢؛٦٤-٦٩؛ ١٧/٦٥-٧٠؛الحج ٢٢/٥-١٣؛٦١-٧٤...إلخ.

مضمونا منها ولا ترى أشمل استغراقا وأعم إفادة منها فلجميع تلك الأمور العمومية أيضا صلة غير خافية بما نحن بصدده من عالمية القرآن.

إن عموم الصفات يدل على جوانب جمة من عظمة موصوفها وعظمة الموصوف تحمل من الدلالة البالغة على عظمة رسالته علما منا أن من مقتضيات ومستلزمات عظمة تلك الرسالة إحاطتها بالزمان والمكان وكونها مكتنفة بجميع المستويات الإنسانية من يوم نزولها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وأمثلة عموم صيغ الصفات والأفعال سائدة على جميع الكتاب من أوله إلى آخره ونكتفي منها بما يلي: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٢٥٥]؛ ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾[٢٥٦]؛ ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[٢٥٧]؛ ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[٢٥٨]؛ ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾[٢٥٩]؛ ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾[٢٦٠]؛

(٢٥٥) وصف الله نفسه بأنه على كل شيء قدير في ستة وثلاثين موضعا: ٢/ ٢٠، ١٠٦، ١٠٩، ١٤٨، ٢٥٩، ٢٨٤، ٣/ ٢٦، ٢٩، ١٦٥، ١٨٩، ٥/ ١٧، ١٩، ٤٠، ١٢٠، ٦/ ١٧، ٨/ ٤١، = =٩/ ٣٩، ١١/ ٤، ، ١٦/ ٧٧، ٢٢/ ٦، ٢٤/ ٤٥، ٢٩/ ٢٠، ٣٠/ ٥٠، ٣٣/ ٢٧، ٣٥/ ١، ٤١/ ٣٩، ٤٢/ ٩، ٤٦/ ٣٣، ٤٨/ ٢١، ٥٧/ ٢، ٥٩/ ٦، ٦٤/ ١، ٦٥/ ١٢، ٦٦/ ٨، ٦٧/ ١.

(٢٥٦) النساء ٤/ ١٢٦، فصلت ٤١/ ٥٤، الطلاق ٦٥/ ١٢.

(٢٥٧) ٢/ ٢٣١، ٢٨٢، ٤/ ٣٢، ١٧٦، ٥/ ٩٧، ٦/ ١٠١، ٨/ ٧٥، ٩/ ١١٥، ٢٤/ ٣٥، ٦٤، ٢٩/ ٦٢، ٣٣/ ٥٤، ٤٢/ ١٢، ٤٨/ ٢٦، ٤٩/ ١٦، ٥٧/ ٣، ٥٨/ ٧، ٦٤/ ١١.

شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ [٢٥٩]؛ ﴿ وَكُلُّ شَيۡءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾ [٢٦٠]؛ ﴿ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٍ ﴾ [٢٦١]؛ ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [٢٦٢]؛ ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا ﴾ [٢٦٣]؛ ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [٢٦٤]. ﴿ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ ﴾ [٢٦٥]؛ إلخ

ومثلا تأمل المقطع الآتي (المائدة ٥/١٧-١٨) تر فيه وعيدا عظيما آتيا ممن خلق السموات والأرض كلها وهو الذي يملكهما وتحيط قدرته

---

(٢٥٨) الأنعام ٦/١٠٢، الزمر ٣٩/٦٢، غافر ٤٠/٦٢.

(٢٥٩) الحجر ١٥/٢١، المنافقون ٦٣/٧.

(٢٦٠) القمر ٥٤/٥٢.

(٢٦١) الأنعام ٦/١٦٤.

(٢٦٢) ١٣/١٦، ١٧/١٠٢، ١٨/١٤، ١٩/٦٥، ٢١ /٥٦، ٢٦/٢٤، ٣٧/٥، ٣٨/٦٦، ٤٣/٨٢، ٤٤/٧، ٤٥/٣٦، ٥١/٢٣، ٧٨/٣٧؛ ومثل رب السموات والأرض في حفاوة القرآن البالغة رب العالمين ورب المشرق والمغرب ورب المشرقين والمغربين ورب المشارق والمغارب ؛ كل من هذه التعابير القرآنية تدل على أن هذا الكتاب المجيد نزل من رب الكون كله فإذا خطابه في كتابه أيضا يحيط بالكون كله ويتعدى حدود الزمان والمكان فإن عظمة المرسل تقتضي عظمة مرسله وعظمة المرسل أي الخطاب إنما تتكون من عناصر منها كون الخطاب محيطا بالكل وفوق الكل وليس مقيدا بالبعض وفي حدود البعض.

(٢٦٣) هود ١١/٦.

(٢٦٤) الزمر ٣٩/٦٣؛ الشورى ٤٢/١٢.

(٢٦٥) هود ١١/١٢٣.

بهما وبجميع الأشياء والأكوان غيرهما: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾

ثم تأمل هذا المقطع (الزمر ٣٩/٤-٦) تر أنه تتشخص من كلماته وجمله كل مشاهد العظمة والبهاء ويفيض من جوانبه جميع معان الجلال الرباني والكبرياء السبحاني وما يقومهما من عظمة ملك الله وملكوته ووحدانيته وقهره وكيف تحيط عظمته وملكه وقدرته وخلقه بجميع ما في الكون من تكوير الليل على النهار وعكسه إلى الخلق الذي يمر بأسرار عظيمة سواء خلق الناس وسواء خلق الأنعام وغيرها:

﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ

يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾

فيا ترى هل يمكن أن تكون هذه الكلمات من حصيلة دماغ بشري مهما ارتقى في العلوم والمعارف؟ أو أيمكن أن تنحبس معاني هذا النص أو تنحصر خطاباته ضمن دائرة إنسانية ضيقة؟

٣-عظمة المدلولات في الأقسام والأمثال

إن القرآن يكثر -لحكم كثيرة- من الأقسام والأمثال ثنايا آياته فمما يلفت نظر المتأمل في كتاب الله أن معظم أقسام القرآن بما له دور ووزن كبير في الخلق ونظام الكون وإدامة حياته من الكتلات التي تشكل كل طائفة منها منظومة تقوم بها حركة الكون كالسماء والأرض والشمس والقمر[٢٦٦]

(٢٦٦) الشمس ٩١/١-٦، الطارق ٨٦/١١-١٢،

والنجوم[٢٦٧] ومما يترتب على تلك الحركة كالزمن[٢٦٨] وأجزائه من الليل والنهار والفجر والضحى[٢٦٩] التي يحوز ويلعب كل منها دورا كبيرا مركزيا في طبيعة الحياة و تسيير ما نشاهده من مشاهد الكون إلخ فعظمة هذه الأمور المقسم بها تدل من ناحية على عظمة المقسم بها وتنبئ من ناحية ثانية عن عظمة مضامين الكتاب و سعة مفاهيمه وإحاطة خطاباته وهيمنته على الكون كله حيث إن جميع ما تلقاه فيه إنما هي أمور عظيمة ومفاهيم جليلة ومغازي جسيمة تدل على أن صلة هذا الكتاب ومنزله إنما هي بالكون كله لا بجزيئات بسيطة ولا بجزئيات صغيرة ولا بأفراد متفرقة أو عناصر متشتة فقط بل تحيط مضامينه ومفاهيمه بجميع الكون ويجعل الكون كله في قبضته يقلبه كيف يشاء استدلالا واحتجاجا وأقساما وتمثيلا. وهذا أيضا يحمل –عند أهل الفكرة الصائبة والروية الصادقة– دلالة قوية على ما نحن بصدده من شمولية خطاباته وعالمية رسالاته.

وكذا مشاهد القرآن التمثيلية التي ذكرها القرآن بين حين وآخر للإبانة عن قضية أو للإعراب عن حكمة أو لتقريب حقيقة إنما هي

---

(٢٦٧) الطارق ٨٦/١.

(٢٦٨) العصر ١٠٣/١.

(٢٦٩) الفجر ٨٩/١-٤، الليل ٩٢/١-٢، الضحى ٩٣/١-٢.

مشاهد عظيمة في مسردها و مشهدها ومضمونها ومدلولهـــا والعظمـــة سائدة على الأمثال القرآنية بكلا طرفي التمثيل فيها الممثل والممثـــل بـــه فمثلا خذ قول الله تعـــالى ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴾ [٢٧٠]

شبه أهم شيء وهي الحيوة الدنيا التي تهم جميع الناس بماء نزل مـــن السماء وهو أيضا من أهم الأشياء في الكون لأنه جعل من الماء كل شيء حي.ثم ختم مشهد التمثيل بما يفعم المشهد عظمة وكبرياء وجلالا وبهـاء بقوله و كان الله على كل شيء مقتدرا ولله المثل الأعلى.

٤-إحاطة الإطار القرآني الذي رسمه عبر رسالاته واســتدلالاته بالكون كله وسعته للدنيا والآخرة:

إن ما سنذكره في هذه الفقرة يفهم مما قدمناه ضمـــن الفقـــرات المتقدمة بسهولة ولكن سنتناوله هنا بشيء من التفصيل تصريحا بما علـــم ضمنا واستزادة للتقرير والتأكيد ووضعا للنقاط على الحروف.

(٢٧٠) الكهف ١٨/٤٥.

إن ما ينعكس مما قدمه القرآن عبر دلائله وبراهينه وعبر جميع تنبيهاته وأخلاقياته وسائر حكمه وأحكامه -كما سنشرح- من الإطار الكلـــي يحيط بجميع الكون بحيث لا تشذ منها شاردة ولا تند منها واردة فحينما يسعى القرآن لإثبات دعاواه العظيمة في باب إثبات الخـــالق وتوحيـــده وإثبات الحشر والنشر وبيان افتقار جميع ما في الكون إليه سبحانه خلقـــا وإيجادا وحياة ومماتا وجلبا ودفعا وتنظيما وتدبيرا وتصريفا وتدويرا يـــأتي في كل ذلك بأدلة عظيمة تتناسب مع عظمة القـــرآن وكبريـــاء مترلـــه سبحانه —وقد أشرنا إلى طرف منها- ويذكر براهين قوية كـــأكثر مـــا يكون تتلاءم مع قهر وبطش ذلك الواحد القهار ســـواء بقـــوة وهيبـــة مضامينها وسواء بوقع جرس ألفاظها وتأثير جواهر كلماتها، ويستشـــهد في ذلك الصدد بشتى صفحات الكون استشهادا يحتضن بالكون عامـــة كأنه يجعله بين يديه فيقلبه كيف يشاء ويستدل منه بما يشاء؛ نظـــره إلى الكون نظر المسيطر عليه المتمكن من التصرف فيـــه والعـــالم بأســـراره وخفاياه والعالم بجميع أصول خلقه وقواعد تدابيره وكليات قوانينه خـــذ من البحار والبراري إلى السموات والأراضي ومن الأشجار والجمـــادات إلى سائر الأحياء والنباتات ومن البروق والرياح إلى الرعود والأمطـــار ومن البغال والخيول الصافنات إلى الجواري المشحونات ومـــن أنـــواع البهائم والحيوانات إلى صنوف سائر المخلوقات والموجودات .

صاغ الحكمة القرآنية من عامتها أدلته العلمية الدقيقة الحكيمة صياغة تتوائم مع عظمة القرآن وجلالة مترله جل في علاه ومع سمو مكانة المترل عليه صلى الله عليه وسلم وعالمية رسالته وركب من كل مجموعة منها باقات رشيقة من زهور الدلائل كأرشق ما يكون فجاء بحمد الله معجزا للعالمين جميعا خذ من بين مآت مشاهد الاستدلال التي تفصح عما ذكرنا الموجودة في القرآن كأكثر ما يكون هذه الباقة اللطيفة:

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦١ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا

يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾[271].

نقدم باقة أخرى من سورة النحل (١٦/٣-١٩)ونكتفي:

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ

---

(٢٧١) النمل ٢٧/٥٩-٦٥.

فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ
وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ
لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ
لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى
ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾
وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا
يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾

لا أريد أن أعكر هنا صفو دراري القرآن بما أعلق عليه من خزف الإنسان فالعظمة والكبرياء والعالمية والشمولية والإحاطة بالكون فائضة فيضانا عظيما من جميع جوانب كلا المشهدين بادية لكل من تبصر واستبصر وفيهما كفاية لمن أراد أن يذكر أما من ختم على قلبه وسمعه وكان على بصره غشاوة فلا يفيده الدليل والبرهان حتى ولو أتيت بجميع أدلة العقل والنقل إنه لا يصلح عمل المفسدين.فما علينا:

إذا لم يكن للمرء عين صحيحة * فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر

أو كما قال من قال:

وكم من عائب قولا صحيحا * وآفته من الفهم السقيم

ومما يدعم ما كنا بصدده من بيان الإطار الكلي المحيط بجميع الكون في أساليب الذكر المجيد ما تراه تختتم به آيات الأحكام والأخلاق من تلك الفذلكات القرآنية التي تتوج آياتهما حينا بمعاني العظمة والبهاء والكبرياء وحينا بمعاني العموم والشمول والاستغراق فمثلا خذ هذه النماذج فقط:

ختم آية الإنفاق ب:"**والله واسع عليم**" وآية الدين بقوله سبحانه:"...**والله بكل شيء عليم**" (**البقرة ٢/٢٨٢**) **وقوله سبحانه:** ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ [٢٧٢] وكذا ختمت تلك الآية الجامعة لكثير من الروابط والصلات الأسرية والاجتماعية من سورة النساء بقوله تعالى ذكره:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [٢٧٣] وكذلك ختم هذه الآيات التالية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ

(٢٧٢) النساء ٣٣/٤.

(٢٧٣) النساء ٣٦/٤.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾[٢٧٤] إلخ

٥ – اختيار عموم الألفاظ والصيغ وإطلاقهما في الأحكام والأخلاقيات

إن الوسط الذي نزل فيه القرآن كان وسطا عربيا مكتظا بـآلاف النماذج من عناصر الثقافة العربية بما فيها من التقاليد والعادات والأخلاقيات وسائر العنعنات العربية فكان القوم عربا أقحاحا وكان

(٢٧٤) المائدة ٥/٨٧-٨٩.

الحياة عربية خالصة وكان جميع العناصر الموجهة والمقومة لحياتهم وبيئتهم الاجتماعية عربية بحتة؛ فهم كانوا من أقل الأقوام تـــأثرا بالحضـــارات المجاورة لهم فخاصيتهم القومية العربية كانت جارية منهم مجرى الـــدم؛ وبتلك السذاجة كانت تنعكس إلى واقعيات حياتهم وتـــأخذ صورتهـــا النهائية في عاداتهم وأخلاقهم وتقاليدهم فكان تتشخص أمام البـــاصرة ثقافة عربية في ملامحها وعناصرها وسماتها وميزاتها ومقوماتها ومكوناتها.

ولكن حينما نلفت أنظارنا إلى الكيان الأخلاقي والبنيان الفقـــهي في القرآن لا نرى فيها من السمات التي تحدد هويتها وتجعلـــها عربيـــة بجنسيتها أو حجازية بهويتها أو قرشية بشخصيتها -إلا النزر اليسير الذي اقتضت الحكمة الإلهية في التدريج بالعباد في التعليم والتربية ذكرها- بـــل إن معظمها جردت من عناصر التخصيص والتحديد فأخذت طابعا عالميا راجت به في جميع الأسواق العالمية وما كدست أبدا وذلك الطابع العالمي هو ميزة القرآن الدائمة عبر جميع إرشـــاداته واســـتدلالاته وتنبيهاتـــه وتذكيراته وتعليلاته وتمثيلاته كما أسلفنا.

وسورة النساء التي هي خزانة مفعمة بالأحكام و الأخلاق خـــير مثال على ذلك وكذلك مثلا تلك الأسس والقواعد الأخلاقية ومجموعـــة الآداب السامية التي ذكرت في هذين المقطعين من سورتي الرعـــد(١٩- ٢٥): ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ

إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾

وهذا المقطع من سورة الإسـراء (٢٣-٣٩): ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ

وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ
لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل
لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ
ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ
إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ
نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ
كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ
وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ
كَانَ مَنصُورٗا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ
أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٤﴾ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا
كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقۡفُ
مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ
مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن
تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ﴿﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ
مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي

جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾ ففي هذين المقطعين القدسيين ذكر أهم الأصول الأخلاقية والقواعد الأدبية التي توجه المجتمع توجيها سديدا بدون تلون أي واحد منها بلون البيئة التي نزل فيها وبدون أخذه الطابع العربي الذي نزل القرآن فيه وبلغته؛ والمنظر العام لهذه الأسس الأخلاقية يوحي بأنها ليست موجهة لبيئة خاصة أو لأناس مخصوصين بل إنها نزلت من رب الناس لجميع الناس من غير فرق بين عربي وآخر؛أو فقير وغني أو أسود وأبيض وخصيصا في ابتداء المقطع الأول بقوله ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ وفي اختتام المقطع الثاني بقوله ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ﴾ دلالة قريبة من التصريح بعالميتها وشموليتها لأن كلا مفهومي "الحكمة" و"أولو الألباب" (أصحاب العقول الخلص) لا يقبلان التخصص بإحدى المخصصات البشرية بل يحملان طابعا عالميا وسمة شمولية وميزة كلية تدل على أن تلك المجموعة الأخلاقية لا تختص بقوم دون آخر.

وكذلك كل ما ذكر في مثل سور الأنعام[٢٧٥] والمؤمنون[٢٧٦]

---

(٢٧٥) خذ مثلا من سورة الأنعام من آية ١٥١ إلى ١٥٣.

(٢٧٦) المؤمنون، ٢٣/١-٩.

والفرقان[٢٧٧] والمعارج[٢٧٨] وما في معظم سورة النور والحجرات من القواعد والأصول الأخلاقية وغيرها من تلك العناصر التربوية العليا والنماذج التوجيهية المثلى والمثل الأخلاقية الفضلى المتناثرة عبر القرآن كله تفصح عما ذكرنا إذ أنه لم تتحدد أية واحدة من تلك القواعد الأخلاقية وأخواتها بمخصصات البيئة العربية التي نزلت فيها و لم تتحدد بعناصر وميزات الثقافة العربية مما يضيق دائرة الخطاب بها أو يقيد حدود التكليف برسالتها.

المبحث الرابع اهتمامات القرآن الحضارية

القرآن ككتاب تكفل وتحمل هداية البشر في كلتا الدارين إلى جانب اهتمامه بالبنيان العقدي وتصحيحه بالكيان التوحيدي وتقويمه وتطهيره له من جميع المعاني الشركية وتهذيبه له من جميع المفاهيم الأسطورية الخرافية التي كانت سائدة على الساحة الدينية إبان نزوله، له اهتمامات أخرى تبدو فيها وتنعكس منها ملامح ومعالم حضارته العالمية

(٢٧٧) الفرقان، ٢٥/٦٣-٧٤.

(٢٧٨) المعارج، ٧٠/١٩-٣٤.

التي لا غناء للبشرية عنها مهما تقدمت وتطورت ومهما تمدنت وتنورت فالإنسان العاقل المنصف الذي يسعى للحق وإلى الحق والذي يصدر عن الحق ويرد على الحق والذي يقبل الحق ويرد للحق إذا تدبر موضوعيا وتفكر إنسانيا وتأمل عقلانيا علم أن خطاب القرآن الكريم وما أتى به من معاني الفضائل والخصائل وما قدمه من دساتير الأحكام في باب الأوامر والمناهي إنما يحيط في خيره وإصلاحه ويهدف في تقويمه وتهذيبه ويكلف في مسئوليته ومرجعيته جميع البشرية من غير فرق بين غني وفقير أو أسود وأبيض أو عالم وجاهل أو متطور ومتأخر أو مجتمع اليوم أو غد أو مجتمع أمس أو ما قبل الأمس.

فيا ترى! هل يمكن أن تكون الخطابات القرآنية الجمة حول موضوع التوحيد ومستلزماته من صفات الربوبية الذي هو من أعظم أهداف القرآن أو حول إثبات الرسالة العامة والخاصة أو حول إثبات الحشر والنشر أو حول التكليف بالعبادات التي هي من أعظم متطلبات القرآن بعد العقيدة الحقة أو النهي عن مثل القتل والزنا والقمار وشرب الخمر والاحتكار وأكل الربا والرشوة ومال اليتامى وظلم الناس عامة والانتهاك بكراماتهم وحقوقهم وغيرها من المحرمات التي هي الركن الثاني في التكاليف القرآنية بعد الإيمان، أو هل يمكن أن يكون خطاب الأمر بالعدل و الوفاء بالوعد والعهد والتزام الصدق في الأقوال والأفعال وأداء

الأمانات وبر الآباء والأمهات والإحسان إلى اليتامى والأرامل والتصدق على الفقراء والمساكين والإصلاح بين الناس وأداء الأمانات إلى أهلها وغيرها من الكثير الكثير من أمهات محاسن الأخلاق والأفعال هل يمكن أن يكون خطاب الأمر بمجموع هذه الخصائل أو بعضها موجها لقطاع خاص من الإنسانية؟ أو هل يستغني عن أي واحد من هذه الأمور في إصلاح الفرد والجماعة وتقوية الروابط الأخلاقية بين أفراد المجتمع أي واحد من بني آدم أو أية جماعة من الناس أو أي مجتمع من البشر أو أية مجموعة بشرية مهما تقدمت في المعارف البشرية والفنون المدنية والعلوم الاجتماعية: السياسية والإدارية خصوصا منها؟ كلا ثم كلا! اللهم إلا أولئك الشرذمة القليلة المنحرفة إلى تلك الترعة الفلسفية الشاذة التي تسمى بالنسبية[٢٧٩] (Relativizim) التي لا يحبذها إلا شواذ الناس والتي ترى أن كل الأمور وخصيصا من أمثال الحسن والقبح والعدل والظلم

(٢٧٩)هي نزعة فلسفية ترى أنه ليس هنالك معيار ثابت يميز به بين الحق والباطل وبين الخير والشر بل إن هذه الأحكام نسبية نسبتها إما إلى الأفراد كما يقوله بعضهم فما يراه زيد حقا إنما هو بالنسبة له لا غير يمكن أن يكون نفس الشيء شرا بالنسبة إلى عمرو؛ وإما نسبته إلى ثقافة كل مجتمع فما يراه أصحاب كل ثقافة حقا أو خيرا فهو بالسبة إلى معايير ثقافتهم ليس إلا فإذا ليس هناك معيار عالمي للحق والخير متفق عليه بين الناس. انظر للتناقضات التي وقعت فيها جعفر شيخ إدريس النسبية، مجلة البيان عدد١٦٠، ذو الحجة ١٤٢١هـ مارس ٢٠٠١، لندن. ص ١١٢.

ليس لها حقيقة أساسية يتفق عليها ويقبلها جميع الناس بل إنما هي أمور إضافية محضة تختلف حسب عادات الناس وثقافاهم.

ولكن إن الباعث للقوم على فكرة تاريخانية القرآن ليس مقتضيات العقل السليم والمنطق السديد أو البحث المنصف عن الصواب أو الفحص الحر عن الحق بل إن أكبر العوامل الدافعة لهم إلى ذلك الاتجاه المناقض لطبيعة القرآن أولا مركب النقص والعقدة النفسية فيهم التي صارت جزأ أصيلا من كياهم النفسي –بدون وعي منهم– وثانيا تقليد أهوج واتباع أرعن لقوم لا يحبوهم ولا ينصحون لهم ولا لقومهم يوما ما بل أعظم أماني ذلك القوم وأحلى أمنياهم تبعيد المسلمين عن روح القرآن وهديه وتلبيس الحق بالباطل عليهم –كما يفصحون عن ذلك بين فينة وأخرى في مجامعهم السرية إذا خلوا إلى شياطينهم– وازدياد شبهاهم وتشكيك قلوبهم وتضليل عقولهم بأمور لها لمعان خادع وبريق زائف من الموضوعية والبحث المنصف وتحرر العقول والأفكار والتخلص من ربقة الكلاسيكية وتقليد الأقدمين الذين كانوا متأخرين!! وهي العامل الثالث؛

هؤلاء المساكين وقعوا في هاوية من الهوان والضلال وهم لا يشعرون فاحترقت في تلك الهاوية السحيقة جل معتقداهم وتميعت معظم قيمهم واهارت جل مبادئهم وذابت شخصياهم وانصهرت في بوتقة الذل

عزتهم وإبائهم وهم لا يعلمون حاولوا أن يلتحقوا بالخصوم والأعداء ولكنهم لم يقبلوهم وانقطعوا من قومهم وذويهم أيضا فبقوا مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء فضاعوا المسجد والكنيسة كليهما؛ خسروا الدنيا والآخرة ألا ذلك هو الخسران المبين.

ويمكن أن نلخص تلك الاهتمامات القرآنية التي تنم عن العقلية والثقافة التي تكونت من الحضارة القرآنية والتي هي أقوى دليل على عالمية تلك الحضارة ورسالتها فيما يلي: ١- اهتمام القرآن بالتفكير والعلم والمعرفة، ٢- اهتمامه بصلاح الفرد، ٣- اهتمامه بصلاح الأسرة، ٤- اهتمامه بإصلاح المجتمع، ٥- اهتمامه بعمارة الأرض، ٦- اهتمامه برعاية الحقوق والكرامات ٧- اهتمامه بنشر المعاني الإنسانية وبث الفضائل السامية، ٨- اهتمامه بالأمن والأمان العام والسلام التام.

١- اهتمام القرآن بالتفكير والعلم والمعرفة

إن أعظم ما تقوم به الحضارات من الفعاليات البشرية أولا التفكير ثم العلم والمعرفة ثم تأتي السياسة والاقتصاد والحقوق والفنون وغيرها من النشاطات الحضارية. فلا حضارة قائمة بدون تفكير سليم وواسع والذين

يضعون اللبنات الأولى لأية حضارة فيما مضى وفيما سيأتي لا شك هم القائمون على التفكير الحر فبنسبة سرعة دوران عجلة التفكير في أمة ما تدور عجلة التكون الحضاري فيها أيضا فالعلماء والمفكرون هم بناة الحضارة في حقيقة الأمر لأنهم هم الذين يهيئون الظروف اللازمة لتكون أية حضارة ما إلى جانب ما تحمله القرارات الساسية والفعاليات الاقتصادية والفنونية والنشاطات العسكرية والمعمارية أيضا من أدوار هامة بعيدة التأثير في التكون الحضاري.

إن القرآن الكريم أتي بعقلية حضارية مشرقة تنير الطريق لجميع الأمم حتى يتسنى لها السلوك في المسالك الحضارية ورغما من أن تلك العقلية المنيرة كانت غريبة في الأوساط البشرية حينئذاك لكن القرآن لم يلق لذلك بالا فربى الجماعة الأولى من مؤمنيه على هذه العقلية وعودهم على الاضطلاع بأحمالها وعلمهم كيفية التفاعل بها عبر الحياة اليومية وأحداثها المفاجئة فأرشدهم إلى المواقف الحكيمة منها واستخراج الدروس الرشيدة والاستراتيجيات الدقيقة من طياتها وتلك العقلية القرآنية استمرت طيلة القرون بين الأجيال المسلمة فتنورت منها عقولهم وقلوبهم واستنارت بها أفئدتهم وأفكارهم ومن آثارها الإيجابية أن المسلمين استطاعوا أن يحققوا بها في زمن قصير من الانفتاح العلمي والتوسع المعرفي ومن ثمه المد الحضاري ما لا يحققه الآخرون إلا في

القرون الطويلة. ومن أبرز ميزات هذه العقلية أنها تحتوي على عنصرين أساسيين كلاهما بمنزلة الحجر الأساس في بناء الهيكل الحضاري الأول وكل منهما أهم من الآخر فيه. أحدهما التفكير فأمر بالتفكير فيما يقارب ١٨٨ آية من آياتها: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [٢٨٠] ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ [٢٨١] ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [٢٨٢] ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾ [٢٨٣] إلى آخر ما في القرآن من الآيات الكثيرة التي تأمر بالتفكير.

وثانيهما العلم والمعرفة فأمر القرآن به أيضا في نصوص كثيرة من نصوصها المجيدة: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [٢٨٤] ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ

---

(٢٨٠) البقرة ٢/٢١٩.

(٢٨١) آل عمران ٣/١٩١.

(٢٨٢) الأنعام ٦/٥٠.

(٢٨٣) الروم ٣٠/٨.

(٢٨٤) طه ٢٠/١١٤.

إن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[٢٨٥] ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[٢٨٦] ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[٢٨٧]

فهذان العنصران الحضاريان اللذان رأينا عبر ما تقدم من النصوص القرآنية مدى الاهتمام القرآني بهما يدلان بوضوح على العقلية الحضارية التي أتى بها القرآن المجيد ويهيئان من الجانب الآخر تلك التربة الخصبة لنمو أفضل حضارة إنسانية عليها كما يثبتان الاستعداد الحضاري والقابلية البالغة للنمو الحضاري للإسلام من خلال ما أتى من نصوص الكتاب والسنة المطهرة. ففي المنظور القرآني التفكير فريضة وعبادة وتعلم العلم ونشره فريضة قلما يعادلها في الأهمية فريضة أخرى؛ جعل الله للعلماء الدرجات العالية والرتب المرفوعة ومن خلال نصوص السنة تجد تنويها بالعلم والعلماء لا تجده في منظور آخر مما جعل علماء المسلمين يسهرون على نشر العلم ليلهم ونهارهم.

---

(٢٨٥) الأنبياء ٢١/٧.

(٢٨٦) التوبة ٩/١٢٢.

(٢٨٧) المجادلة ٥٨/١١.

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما روي عنه ضمن جملة من أحاديثه حول فضل العلم وفضيلة العلماء: "**طلب العلم فريضة على كل مسلم**"، "**فضل العلم خير من فضل العبادة وخير دينكم الورع**" ، "**ما اكتسب مكتسب مثل فضل علم يهدي صاحبه إلى هدى أو يرده عن ردى وما استقام دينه حتى يستقيم عمله**" ، "**إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء يهتدى بها في ظلمات الأرض والبحر فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة**" ، " **فضل العلم على العابد سبعين درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض**" ، "**من طلب علما فأدركه كتب الله له كفلين من الأجر ومن طلب علما فلم يدركه كتب الله له كفلا من الأجر**" ، "**معلم الخير يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر**"[٢٨٨]

ثم إن تحريض القرآن البالغ بالتفكير والعلم والمعرفة يشمل القريب والبعيد، الأبيض والأسود، الفقير والثري، الذكر والأنثى ولا يخصص بهما ولا يفضل فيهما أمة دون أمة ومن ثمة يسبل على الكيان الحضاري الإسلامي صبغة عالمية جامعة لكل من على وجه هذه البسيطة وكفى هذا شاهدا عدلا.

---

(٢٨٨)روى جميع هذه الأحاديث بطرق مختلفة الحافظ علي الهيثمي في كتابه **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، مؤسسة المعارف بيروت١٤٠٦/١٩٨٦، ج ١، ص ١٢٤-١٢٨.

٢- اهتمام القرآن بصلاح الفرد

إن اهتمام القرآن بإصلاح الفرد خاصة ومن خلال ذلك بتربيته سلوكا وتهذيبه خلقا وتقويمه سيرة وتطويره تفكيرا واهتمامه بإصلاح مجالات المجتمع والدولة والأمة عامة يبدو بشكل واضح في منظومة القرآن الأخلاقية ورسالاته الإنسانية ويدل ذلك الاهتمام بنفس الوضوح بل أكثر على عالمية القرآن خطابا ورسالة فإن الأخلاقيات التي أمر القرآن بها مما لا غنى للبشرية جمعاء عنها مهما كانت الظروف والشؤون؛ إلى جانب أن تلك الأخلاقيات تغطى جميع صفحات الحياة ونواحيها من الملابسات الشخصية والصلات الأسرية إلى العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والدولية والدبلوماسية، إلى ملابسات المرء وسلوكياته فيما بين بني جنسه ككونه واحدا منهم، إلى معاملته تجاه متملكاته الحيوانية والجمادية إلى معاملته مع بيئته وغيرها من الوسط الطبيعي الذي يعيش فيه فالصورة الأخلاقية التي يقدمها القرآن للناس عن كل تلك المجالات هي صورة إنسانية شمولية عالمية تحيط بجميع أفعال المرء ونزعاته وملابساته ومبادئه وقيمه وحبه ونفوره وأهوائه وأغراضه وعاداته وتقاليده وميوله وتفكيراته واتجاهاته. فمثلا خذ هذه الكلمة

الربانية الفذة الجامعة: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [٢٨٩] وما أروع وأشمل هذه النصيحة الربانية والموعظة الإلهية: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [٢٩٠] وهل ترى كلمة أجمع في باب الفضائل ومحاسن الأخلاق من هذا النداء الإلهي الحكيم: ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [٢٩١] ثم قف أمام هذا التوجيه الرباني الكريم طويلا حتى تنفذ إلى أعماق تلك الحقائق الأخلاقية والدساتير الاجتماعية العظيمة التي يشكل كل منها مبدأ هاما للفرد على طريق الحياة ويشكل مجموعها مع سوابقها ولواحقها دستورا كريما معطاء يستهدف في سبيل تشكيل بنيانه الجماعي إنشاء مجتمع فاضل عفيف طاهر من الأدران الخلقية والأوساخ البشرية: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم

(٢٨٩) فصلت، ٤١/٣٤.

(٢٩٠) الأعراف، ٧/١٩٩.

(٢٩١) لقمان، ٣١/ ١٧-١٩.

مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٢٩٢] وفي سبيل الأمر بالاستمتاع بطيبات الحياة والنهي عن رذائل الخصال وسوء الخلال تأمل جادا وأمعن النظر عميقا في هذا التنبيه الرباني العظيم: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[٢٩٣]

---

(٢٩٢) الشورى ٤٢/٣٦-٤٠.

(٢٩٣) الأعراف ٧/٣١-٣٣.

إن جميع هؤلاء المعاني والفضائل والأخلاقيات التي ذكرتها كدلائل تدل على عالمية القرآن إنما هي مما لها علاقة وثيقة بالكيان الإنساني المطلق من غير تقييد بجنس أو تحديد ببقعة أو تخصيص بطبقة أو تعيين بلون وكذا لها صلة محكمة بالهوية الإنسانية العامة المطلقة إن في هذا القالب أو ذاك أو في هذه الصورة أو تاك أو من هذا الجنس أو من ذاك أو في هذه الهوية أو تيك أو في هذا المكان أو ذاك أو في هذا المستوى أو ذاك أو في الحال كان أو في المستقبل بلا تفريق وتمييز وبذاك يتجلى معنى هذه الكلمة الإلهية الحكيمة المدوية عبر العصور والقرون التي تطن في أذن التاريخ دوما: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

فإذا لا ضير علينا من مزاعم أولئك المغرضين على الإسلام وأهله وأذنابهم المتملصين المتملقين لهم ولا بأس علينا أيضا من ادعائهم تاريخانية القرآن فإن الحقيقة أظهر من أن تخفى والشمس أبهر من أن تختفي فكيف تختفي الشمس عن العيون بإغماض الخفاش عينيها منها أو بإنكار الأعمش لها:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد* وينكر الفم طعم الماء من سقم

ثم إن المحور الوحيد في خطابات القرآن وتكاليفه ومبادئه وتعاليمه

هو الإنسان[٢٩٤] فمن ذا كانت نقطة الانطلاق في المنظور القرآني الفـــرد بوصفه إنسانا عاقلا فاهما لأن المجتمع المسلم الذي سمـــاه الله أمـــة وأراد منها أن تكون خير أمة[٢٩٥] إنما يتكون من الأفراد فصلاح المجتمـــع إنمـــا يكون بصلاح الفرد فمن هنا وجه القرآن عنايته بالدرجة الأولى إلى تربية الفرد[٢٩٦] ومنها تدرج إلى إنشاء المجتمع المثالي "الأمة" وتابع القـــرآن في ذلك سياسة فريدة في بابها حيث اهتم في مجال تربية الفرد بشتى جوانـــب حياته لا الروحية فقط -وهو المعروف في اهتمامات الأديان الأخـــرى- بل بجميع جوانب حياته وهي النفسية والأسرية والاجتماعية والأخلاقيـــة والاقتصادية والسياسية، فرسم له منهاجا رشيدا وصراطا سديدا. أتـــى كتاب الإسلام للفرد بمجموعة من المبادئ العليا والقيم المثلى والتعـــاليم الأسمى المتجهة إلى صياغة شخصية الفرد صياغة مثالية بحيث يجد الإنسان بغيته من عالم المثل والفضائل ومكارم الشيم في تلك الشخصية المتكاملة المتماسكة:[٢٩٧]

---

(٢٩٤) انظر القرآن الكريم البقرة، ٢١/٢، آل عمران، ١٠٢/٣-١٠٥، النساء، ١/٤، الأنفال، ٢٠/٨-٢٤،٢٧-٢٩.

(٢٩٥) القرآن الكريم، آل عمران ١٠٤/٣،١٠٥.

(٢٩٦) القيامة، ٣/٧٥، ٥، ١٣، ١٤، الإنسان، ٢/٧٦ الانشقاق، ٦/٨٤، الانفطـار، ٦/٨٢، الطارق، ٥/٨٦.

(٢٩٧) وانظر على سبيل المثال لا الحصر القرآن الكـــريم، الأنعـــام ١٥١/٦-١٥٣، الرعـــد، ١٩/١٣-٢٨، المؤمنون، ١/٢٣-٩.

فأول ما فعله القرآن حينما عالج بناء شخصية الفرد هو بناء عقيدته -التي هي محور الحياة كلها بشتى مراحلها وعليها تنبني الحضارة وعمارة الأرض في المنظور الإسلامي- فوجه بشكل منطقي سليم الأفكار والعقول وصوب الأذهان والقلوب أولا وقبل كل شيء إلى عقيدة توحيد الباري التي لم تكن معروفة إبان ذاك في الأوساط البشرية إلا قليلا نادرا فهذب عقيدة الألوهية من كل ما علق بها عبر التاريخ من رواسب الشرك والوثنية ونفى عن الخالق جميع ما لا يليق بكبريائه و عظمته ووحدانيته وتفرده في ملكه وأثبت له تعالى جميع ما يليق بكماله وجلاله وأعلن على الصعيد العالمي بحيث وصل صوته الندي الرخيم إلى البعيد والحميم: أن الله واحد أحد صمد لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد وبهذه القاعدة التوحيدية العظيمة بنى وحدانية الله على أعلى وأكمل وأجمل معاني التوحيد بحيث لم يسبقه سابق إلا الرسالات السماوية التي كانت انقطعت وانقرضت من الأرض منذ فترة من الزمن وأزاح عن كل ما وصلت إليه أياديه الرحيمة جميع معاني الشرك والوثنية وأبطل كل الأصنام وما اتخذوه من دون الله أربابا وألغى كل القداسات الأرضية سوى قداسة الله تعالى وما أذن به.

وكنتيجة طبيعية لجميع تلك الثورات الجذرية التي أتى القرآن بها في العقيدة أنقذ الإنسانية من الضياع في متاهات الغفلة والضلال ومن

التحطم والتمزق نفسيا وإنسانيا تحت براثن الطبيعة القاسية وأحداثها الهائلة التي يظنها كل غافل وملحد مستقلة بنفسها فيخافها خوفا بلا نفاد؛ ولكن لما أوصله القرآن بربه الخالق الرحيم الذي لا يتحرك شيء في الأرض ولا في السماء إلا بإذنه ولا يخفى عليه شيء فيهما والأرض جميعا قبضته علم حينئذ أن جميع الأمور إليه وبيده فقط؛ وله فقط مقاليد السموات والأرض؛ وبيده فقط خزائنهما فاستراح من التلاشي بين الوسائط والأسباب واستراح من جميع تلك القسوة والخوف والرعب التي كانت جزأ غير مفارق من حياته واطمئن سعيدا رشيدا إلى ذكر ربه ألا بذكر الله تطمئن القلوب.

ولا جرم أنه حينما عالج القرآن كل تلك الأمور وأتى بجميع تلك الثورات العظيمة الأساسية في باب العقيدة سلك طريق الاستدلال والاحتجاج فأثبت كل دعاواه سواء في باب إثبات الخالق وسواء في باب إثبات وحدانيته أو في باب إثبات الحشر أو غيره من أصول عقائد الإسلام ببراهين عقلية رصينة وحجج قوية رزينة تتقبلها العقول وتطمئن بها القلوب وتنشرح منها الصدور.

وبعد بناء الإسلام لعقيدته التوحيدية وإحكامه لقواعدها بهذه الطريقة الحكيمة الفذة أخذ يبني عليها مكونات الشخصية المثالية للمؤمن فجعل يوجهه إلى ما يسعده في أولاه وعقباه فيأمره وينهاه ويحذره في

أولاه وأخراه فرغب ورهب وحذر وبشر وأقنع وأمتع فكان سلوك طريقة الترغيب والترهيب والتحذير والتبشير معا وإسبال الروحانية والمعنوية على ما يأمر به من الكماليات والتحسينيات من أهم ضمانات النجاح القرآني في بناء الشخصية الناضجة الفاضلة للإنسان وبناء المجتمع المثالي الكامل فانظر مثلا من بين عشرات المقاطع القرآنية إلى هذا المقطع القرآني كي ترى مصداقية ذلك عن كثب: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ

مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[298].

ألم تر أن الفرقان الحكيم حينما أمر ببعض الأخلاقيات لم يكتف بسردها سردا قاسيا جافا بل مزجها بتلك العناصر الروحية مزجا طيبا فحينما افتتح هذا المقطع الأخلاقي ببعض من أدب المشي والمخاطبة الذي يريد الله سبحانه أن يكون موجودا لدى المؤمنين لم يلبث أن ذكر عقبه أهم ما تكتمل به روحانية الإنسان مما يحب الله أن يكون متوفرا في عباده المتقين من الهجود لذكره سجدا وقياما الذي هو أكبر الروحانيات مفعولا وتأثيرا. وهكذا طبقا لذلك المنهج الرفيع الناجح في المزج بين الأخلاقيات والروحانيات - حينما يزاول عملية تربية الشخصية المسلمة- ترى أن القرآن مزج في هذا المقطع بين الأخلاقيات والتكاليف التي أمر الله بها كي تكتمل شخصية المرء وبين تلك الأعمال الروحية التي سردت من التوحيد والذكر والدعاء والتوبة وذكر العذاب والنعيم في الآخرة فتتقوى بها وتجد بها حيوية ونشاطا ومفعولا واقعيا أثناء غمرات الحياة وأمواج الأحداث فله سبحانه الحكمة البالغة.

(٢٩٨) الفرقان، ٢٥/٦٣-٧٤.

وإتماما لهذه العملية التربوية المبدعة في بناء شخصية الفرد المسلم ترى الفرقان الحكيم يسلط الضوء على الجوانب المتعددة من جوانب الكيـــان الإنساني: المادي والروحي والنفسي والخلقي فحينما يحض على الجوانـب الإيجابية التي بوسع الفطرة الإنسانية أن يتقبلـــها ويتحلـى بهـا مـن الأخلاقيات الحسنة يذكر الجوانب السالبة المرافقة لخلقة الإنسان أيضـا فيذكر ظلمه وبخله وضعفه واختياله وفخوريته وكفرانه وهلعه وجزعـه منبها بذكر هذه الأمور السلبية إلى التوقي عنها والتحلـي بأضدادهـا فيتكون بذلك شخصية مثالية متكاملة متزنة للغاية.

ويمكن أن يستخلص تلك المبادئ التي أتى بها القرآن كي تكتمـل شخصية المؤمن في قسمين أوامر ونواهي أما الأوامر:

التعليم العام،[٢٩٩] الجهد الأخلاقي،[٣٠٠] طهارة النفس،[٣٠١] الاستقامة،[٣٠٢] العفة والاحتشام وغض البصر،[٣٠٣] التحكم في الأهواء،[٣٠٤] الامتنـاع عـن

(٢٩٩) النحل، ٤٣/١٦، الأنبياء، ٧/٢١، التوبة، ١٢٢/٩.

(٣٠٠) العنكبوت، ٦٩/٢٩، محمد، ١٧/٤٧، البلد، ١١/٩٠-١٧.

(٣٠١) الشعراء، ٨٧/٢٦-٨٩، ق، ٣١/٥٠-٣٣، الشمس، ٩/٩١-١٠.

(٣٠٢) هود، ١١٢/١١، فصلت، ٦/٤١.

(٣٠٣) النور، ٣٠/٢٤-٣٣، ٦٠، المؤمنون، ١/٢٣-٧.

(٣٠٤) النساء، ١٣٥/٤، ص، ٢٦/٣٨، النازعات، ٤٠/٧٩-٤١.

شهوتي البطن والفرج،[٣٠٥] كظم الغيظ،[٣٠٦] الصدق،[٣٠٧] الرقة والتواضع،[٣٠٨] التحفظ في الأحكام،[٣٠٩] اجتناب السخرية بالناس والازدراء بالغير، وسوء الظن،[٣١٠] الثبات والصبر،[٣١١] الاقتداء بالحسن،[٣١٢] الاعتدال،[٣١٣] الأعمال الصالحة،[٣١٤] التنافس والتسابق في الخيرات،[٣١٥] حسن الاستماع والاتباع،[٣١٦] الإخلاص في جميع الأعمال[(٣١٧)] [(٣١٨)]

(٣٠٥) البقرة، ٢/١٨٣-١٨٥، ١٨٧، ٢٢٢.

(٣٠٦) آل عمران، ٣/١٣٤.

(٣٠٧) التوبة، ٩/١١٩، الأحزاب، ٣٣/٧٠، الزمر، ٣٩/٣٣.

(٣٠٨) الفرقان، ٢٥/٦٣، لقمان، ٣١/١٩.

(٣٠٩) النساء ٤/٩٤، الحجرات ٤٩/٦، ١٢.

(٣١٠) الحجرات ٤٩/١١،١٢.

(٣١١) النحل ١٦/١٢٧، المدثر ٧٤/٧.

(٣١٢) الأحزاب ٣٣/٢١.

(٣١٣) الإسراء ١٧/١١٠، الفرقان ٢٥/٦٧.

(٣١٤) الآيات القرآنية التي تأمر بالعمل الصالح الذي يحيط بجميع جوانب الحياة الإيجابية والذي يشكل أهم الدوافع الحضارية أكثر من أن تحصى.

(٣١٥) البقرة ٢/١٤٨،المائدة ٥/٤٨.

(٣١٦) الزمر ٣٩/١٧-١٨.

(٣١٧) البقرة ٢/٢٧٣، النساء ٤/١١٤.

(٣١٨) محمد عبد الله دراز، **دستور الأخلاق في القرآن**، تعريب عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة،بيروت ١٤٠٢-١٩٨٢، ص ٦٩١-٦٩٩.

أما النواهي: فانتحار الإنسان وبتره لعضو من أعضائـــه وتشـــويهه[٣١٩] الكذب[٣٢٠]، النفاق[٣٢١]، أفعال تناقض الأقوال[٣٢٢]، البخل[٣٢٣]، الإســـراف[٣٢٤] والتقتير[٣٢٥]، الرياء[٣٢٦]، الاختيال[٣٢٧] الكبر والعجب والتنفـــخ[٣٢٨]، التفـــاخر بالقدرة والعلم[٣٢٩]، التعلق بالدنيا[٣٣٠]، الحسد والطمع[٣٣١]، الأسى على مـــا مضى والفرح بما يأتي[٣٣٢]، الزنا[٣٣٣]، تعاطي الخمر والخبائث[٣٣٤]، كل وســـخ أخلاقي أو مادي[٣٣٥] تعاطي الكسب الخبيث[٣٣٦]، سوء الإدارة[٣٣٧])،([٣٣٨]).

(٣١٩) البقرة ٢/١٩٥، النساء ٤/٢٩، الروم ٣٠/٣٠.

(٣٢٠) النحل ١٦/١٠٥.

(٣٢١) البقرة ٢/٢٠٤-٢٠٦.

(٣٢٢) البقرة ٢/٤٤، الصف ٦١/٣-٢.

(٣٢٣) الحشر ٥٩/٩.

(٣٢٤) الإسراء ١٧/٢٦-٢٧، الفرقان ٢٥/٦٧.

(٣٢٥) الفرقان ٢٥/٦٧.

(٣٢٦) النساء ٤/٣٨، الماعون ١٠٧/٧-٤.

(٣٢٧) لقمان ٣١/١٨.

(٣٢٨) النساء ٤/٤٩، النحل ١٦/٢٣، النجم ٥٣/٣٢.

(٣٢٩) الكهف ١٨/٣٢-٤٢، القصص ٢٨/٧٨، غافر ٤٠/٨٣.

(٣٣٠) الكهف ١٨/٢٨، طه ٢٠/١٣١.

(٣٣١) النساء ٤/٣٢، ٥٤.

(٣٣٢) آل عمران ٣/١٥٣، الحديد ٥٧/٢٣.

(٣٣٣) الإسراء ١٧/٣٢، النور ٢٤/٢.

(٣٣٤) البقرة ٢/١٧٣، المائدة ٥/٩٠-٩١، الأعراف ٧/١٥٧.

(٣٣٥) التوبة ٩/١٠٨، المدثر ٧٤/٥-٤.

٣-الاهتمام بصلاح الأسرة:

إن الأسرة هي البذرة الأولى للمجتمع كما أنها صورة فوتوغرافيـــة صغيرة أيضا
له فبحسب تكونها الكامل وتربيتها الفاضلة ونشأتها الرشيدة علـى روح القيم الإنسانية العليا ونموها بالمبادئ المثالية الفضلى يكون المجتمع كـاملا مثاليا إلى أقصى الحدود وهذا يأتي لأفراد الأسرة بمســئوليات متقابلـة ووظائف متماثلة وواجبات متساوية وانطلاقا من هذا نرى أن القـــرآن الحكيم إحكاما لبنيان الأسرة وترسيخا لدعائم الخير والبر وتثبيتا لعمــد الكمال والفضيلة فيها وإنشاء لأفرادها على معاني الإنســانية الكريمـة وتعويدا لهم من أولى أيامهم على التراحم والاحترام المتبادل وتربية لهــم على رعاية حقوق الغير بدأ من الأصول والفروع إلى ســائر حواشــي الأسرة ومن هم بهوامشها لكل هذه المعاني النبيلة أولى القرآن للأســرة

---

(٣٣٦) البقرة ١٨٨/٢، ٢٧٥-٢٧٦، النساء ٢٩/٤.

(٣٣٧) النساء ٥/٤.

(٣٣٨) دراز المصدر السابق، ص ٦٩٩-٧٠٦.

اهتماما خاصا فرغب إبان إنشاء الأسرة في بعض الآداب وأمر بـــالتزام بعض المبادئ و أتى لإنشاء الأسرة ببعض القواعد والأحكام الإجباريـــة يتجلى ذلك فيما أتى به الإسلام في باب النكاح من الواجبات والفرائض و لم يترك الأمر لأهواء الناس يفعلون في باب الأنكحة ما يشاءون من غير تقيد بضابط أو التزام بقاعدة أو رعاية لقيم أو انضبـــاط بسـلوك لأن الانفلات في باب النكاح من القيود والضوابط يأتي للمجتمع والأســرة بأخطار عظيمة وأحداث خطيرة تهدد مصير الأسرة ومن ثمـــه المجتمـع بكامله برزت ثلة من تلك الأحداث المهددة لوجه النهار أكثر مـــن أي عصر آخر في عصرنا الذي أخذ فيه الانفلات من قيود النكاح وضوابـط الأسرة صورة جماعية مدعومة فتلك الأحداث المروعة المهددة للمجتمـع بجميع كيانه صارت تقوضه من أسس بنيانه وتنسفها نسفا.

كما شرع القرآن لاستمرارها استمرارا سعيدا سديدا أيضا أحكامـا وواجبات هامة تزداد سعادة الأسرة بازدياد تمسك الأفراد بتلك الحقـوق والواجبات إلى جانب أنه لم يهمل القرآن في هذا الصدد من هم بهوامش الأسرة أيضا من بعض الحقوق توسيعا لدائرة الأسرة كي يستفاد مـــن تلك الحقوق المتماثلة والفرص المتكافئة أفراد كثيرون فيكون تشييد بنيـان المجتمع على الهدى والخير ويزداد إحكامه وإتقانه أكثر؛ فأمر القرآن كـلا من أفراد الأسرة في كلا نطاقيها الصغير والكبير بواجبـــات ووظـــائف

وآداب هامة لا يرثها الزمن ولا يبليها الدهر ولا يستغني عنها البشـــــر. فيتسنى لنا انطلاقا من واقعنا المعاصر أن نسميها بحقوق الأسرة. وتلـــك الحقوق بعناوينها الرئيسة:

أ-الواجبات بين الأصول والفروع:

الإحسان إلى الوالدين وخفض جناح الذل لهما وطاعتهما[٣٣٩] احترام حياة الأولاد[٣٤٠] التربية الأخلاقية للأولاد وللأسرة عامة[٣٤١] الرضا المطلق والمتبادل بين الزوجين[٣٤٢]

ب- واجبات بين الأزواج: ١-دستور الزوجية علاقات محرمـــة[٣٤٣]، علاقات محللة[٣٤٤] خصال مأمور بها ومستحبة[٣٤٥]، الصداق[٣٤٦] شــــروط تعدد الزوجات[٣٤٧]

(٣٣٩) النساء، ٤/٣٦، الإسراء ١٧/٢٣ –٢٤، لقمان ٣١/١٤-١٥.

(٣٤٠) النساء ٤/١٥١، الإسراء ١٧/٣١، التكوير ٨١/٨،٩،١٤.

(٣٤١) الأحزاب ٣٣/٥٩، التحريم ٦٦/٦.

(٣٤٢) البقرة ٢/٢٣٢، النساء ٤/١٩.

(٣٤٣) البقرة ٢/٢٢١، النساء ٤/٢٢، ٢٣-٢٤، النور ٢٤/٣.

(٣٤٤) النساء ٤/٢٤-٢٥، المائدة ٥/٥.

(٣٤٥) النساء٤/٣٤، الأحزاب ٣٣/٢٨-٢٩، التحريم ٦٦/٥.

(٣٤٦) النساء ٤/٤،٢٤، المائدة ٥/٥،

(٣٤٧) النساء ٤/٣.

٢- الحياة الزوجية: روابط مقدسة ومحترمة[٣٤٨] غايات الزواج: سلام داخلي ومودة ورحمة[٣٤٩]، انتشار النوع الإنساني[٣٥٠]، المساواة في الحقوق والواجبات[٣٥١] تشاور وتراض[٣٥٢]، تعامل إنساني حسن[٣٥٣]، معاشرة بالمعروف حتى في حال الكراهية[٣٥٤]، معاودة الإصلاح في حال النزاع[٣٥٥]، والتحكيم.[٣٥٦]

ج -واجبات نحو الأقارب الآخرين: مواصلتهم[٣٥٧] عطائهم والإنفاق عليهم[٣٥٨]، الوصية لهم[٣٥٩]، توريثهم [٣٦٠]

---

(٣٤٨) النساء ٤/١.

(٣٤٩) الروم ٣٠/٢١.

(٣٥٠) البقرة ٢/٢٢٣، النحل ١٦/٧٢.

(٣٥١) النساء ٤/٣٤.

(٣٥٢) البقرة ٢/٢٣٣.

(٣٥٣) الطلاق ٦٥/٦.

(٣٥٤) النساء ٤/١٩، ١٢٩.

(٣٥٥) النساء ٤/١٢٨.

(٣٥٦) النساء ٤/٣٥.

(٣٥٧) النساء ٤/١.

(٣٥٨) الروم ٣٠/٣٨.

(٣٥٩) البقرة ٢/١٨٠.

(٣٦٠) النساء ٤/٧، ١٢.

٤-الاهتمام بإصلاح المجتمع:

إن المجتمع هو الوسط الذي يجرى فيه جميع نشاطات الإنسان وفعالياته وفيه تتبلور الحقائق التي تتمخض من الأحوال والأحداث وعلى صعيده يحدث معظم ما يهم حياة الفرد والأسرة والجماعة وعلى حسب انضباط المجتمع بأوامر الخير والبر والتزامه بقواعد الرشد والسداد يكون كيان المجتمع ساريا في مجاري الصلاح والفلاح جاريا نحو الفوز والنجاح ويكون بنيانه متجها نحو السلامة والاستقامة بريئا من أسباب الفجور والسفاهة.

تلك الأمور التي تهم إصلاح المجتمع وتقويم أوده وإزاحة خلله وإزالة دغله تنقسم إلى قسمين قسم إجباري يجبر الناس على الالتزام بها ضمن تكاليف محددة ومسئوليات معينة تجاه إما أفراد المجتمع الآخرين وإما الكيان المنظم في المجتمع أعني الجهاز الذي ينظم أمور المجتمع وهو ما يسمى بالدولة وهذا القسم من التكاليف يسمى بالقانون وهناك قسم اختياري آخر مما يفرض المجتمع على أبنائه الالتزام به لكن بمحض خيارهم وبحت طواعيتهم وهذا القسم من المسئوليات المجتمعية يوجه

المجتمع نحو النفع والعطاء ويسيره نحو الرشاد والسداد فينبث نفع هذا القسم بين سائر أفراد المجتمع من حيث لا يشعرون وحاجيات المجتمع وكمالياته وتحسينياته وحتى قسم غير قليل من ضرورياته إنما يتسنى تداركها وتحققها بانضباط المجتمع بهذا القسم من الوظائف الاجتماعية؛ وانضباط الناس بهذا النوع الاختياري من السلوكيات ورعايتهم لحدودها إنما يتأتى بأمرين إما الإيمان المستولي سلطانه على وجدان الناس ومشاعرهم وأحاسيسهم والمصوغ بقوته الفعالة لنفسياتهم وعقلياتهم بحيث يتشكل الكل في قالبه وينصهر الجميع في بوتقته؛ وإما التربية القوية النافذة في كيان معظم الناس بحيث يكون التربية الجماعية جزأ غير منفصم من ثقافتهم ومشاعرهم.

إن القرآن في منطلقه التربوي حينما يعالج تربية الفرد والأسرة والمجتمع إنما ينطلق من العقيدة ويبني جميع مخططاته التربوية على قاعدة رصينة محكمة من الإيمان واليقين فلذا تكثفت التوجيهات القرآنية في الفترة المكية على توطيد دعائم الإيمان في القلوب والصدور ولم تتدخل في دقائق التوجيهات العملية الأخرى وفروعياتها من الفروض والواجبات والأخلاقيات إلا قليلا.

من هنا إن القرآن حينما يوجه المجتمع بالوجهة الصالحة المرضية يرجح أولا الوجهة الإيمانية فيربي أفراد الناس على الإيمان واليقين ثم

يأخذهم بعد أن أشربوا في قلوبهم كمال الإيمان وأثلج صدورهم ببرد اليقين إلى ساحة التكاليف والوظائف التي يتطلبها كيان المجتمع وبقائه سواء الإجبارية منها وسواء الاختيارية؛

يدل على هذا ما أخرجه البخاري **عن عائشة رضي الله عنها قالت إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبدا ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبدا**[٣٦١] بينما لا ننسى أنه لا يترك الطريقة التربوية أيضا فحينما يطلب من الناس الإيمان واليقين يربيهم من خلال ذلك تربية عملية أكمل وأرجح وأنفع.

من هنا نجح القرآن في إزالة الرذائل والمنكرات وإزاحة الفحشاء والمحرمات من المجتمعات الإسلامية نجاحا باهرا لم يقيد التاريخ مثيله ولا نظيره خذ من ترك المجتمعات المسلمة لشرب الخمر والزنا والقمار إلى تركهم لأكل مال الغير وإلى رعاية حقوق الناس والبر بالآباء والأمهات والأجداد والأحفاد والعمات والخالات إلى سائر ما يأمر به القرآن من الحقوق والواجبات الشخصية والاجتماعية ترى أن القرآن نجح بمنهجه

---

(٣٦١) السيوطي جلال الدين عبد الرحمن، **الإتقان في علوم القرآن**، مطبعة البابي الحلبي،الطبعة الثالثة مصر ١٣٧٠/١٩٥١، ج ١، ص ٤٢.

الحكيم في مزج الأخلاقيات مع الروحيات أو بكلمة أخرى في تغطيته الأخلاقيات بغشاء محكم من صبغة العبادات بالوعد بالثواب العظيم والأجر الجزيل على من امتثل أوامره في العبادات والأخلاقيات سواء بسواء.

فلو تمكنا من إحصاء ما حققته تربية القرآن سلفا وما تحققه خلفا في جميع هذه المجالات من العطاء النافع والثمار الباقية وما تبقيه من المفعول الطيب في مجتمعاته لأخذ العجب منا كل مأخذ ولاستيقنت الأنفس حينئذ الأبعاد العملية والواقعية التي تشهد شهادة صدق على عالمية القرآن حضارة ورسالة؛ وكذلك لو أمكننا مقارنة ذلك المفعول القرآني في تربية الناس في هذه الميادين ومدى نجاحه على المستويات الثلاث الفرد والأسرة والمجتمع مع ما حققته النظم الوضعية في تلك الميادين سابقا ولاحقا لرأينا عين اليقين حينئذاك مدى ما قيده القرآن من النجاح العظيم وما سجلته تلك النظم في تربية الناس من الفشل الذريع في جميع تلك الساحات.قارنا مقارنة ضئيلة بينهما في كتابنا **"دلالة أسماء سور القرآن الكريم من منظور حضاري"**[٣٦٢] فعليك به كما قارن أبو الحسن الندوي (ت ١٤٢١/٢٠٠٠) رحمه الله في كتابه **ماذا خسر العالم**

---

(٣٦٢) راجع محمد خليل جيجك، **دلالة أسماء سور القرآن الكريم من منظور حضاري** مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى بيروت ١٤٢١/٢٠٠١، ص ٩٣-٩٤،٢٦٣-٢٦٨.

بانحطاط المسلمين بين ما قيده النظام القرآني والنظام البشري في تحريم الخمر من النجاح والفشل.

نجمل بعض ما ورد في القرآن من الأخلاق الاجتماعية تحت هذه العناوين الرئيسة:

١-الأوامر: أداء الأمانات[٣٦٣]، تنظيم العقود للقضاء على الريبة والفتنة[٣٦٤]، الوفاء بالعهد،[٣٦٥] أداء الشهادة الصادقة[٣٦٦]، إصلاح ذات البين[٣٦٧]،التراحم المتبادل[٣٦٨]،التشفع[٣٦٩] لا لأجل الأشرار[٣٧٠]، الإحسان ولا سيما إلى الفقراء[٣٧١]،الدعوة إلى الخير والنهي عن الشر[٣٧٢]، نشر العلم والفضيلة[٣٧٣]، الأخوة[٣٧٤] والكرم[٣٧٥]، العدل والمرحمة

(٣٦٣) البقرة ٢/٢٨٣، النساء ٤/٥٨.

(٣٦٤) البقرة ٢/٢٨٢-٢٨٣.

(٣٦٥) الإسراء ١٧/٣٤.

(٣٦٦) النساء ٤/١٣٥، الأنعام ٦/١٥٢.

(٣٦٧) النساء ٤/١١٤، الأنفال ٨/١، الحجرات ٤٩/١٠.

(٣٦٨) المائدة ٥/٥٤، الفتح ٤٨/٢٩، البلد ٩٠/١٧-١٨.

(٣٦٩) النساء ٤/٨٥.

(٣٧٠) النساء ٤/١٠٥،١٠٧.

(٣٧١) البقرة ٢/٢١٥، النساء ٤/٣٦.

(٣٧٢) آل عمران ٣/١٠٤، المائدة ٥/٢، العصر ١٠٣/١-٣.

والفضيلة[٣٧٣]، الأخوة[٣٧٤] والكرم[٣٧٥]، العدل والمرحمة والإحسان[٣٧٦]،إطاعة أولي الأمر منا[٣٧٧]،

١- النواهي: إن المنهيات التي تنهى الإسلام عنها كثيرة فمنها ما تتوجه مباشرة إلى الأفراد ومنها ما تتوجه إلى المجتمع وبوسعنا أن نعد مما يتوجه إلى المجتمع من المنهيات ما يلي:

٢- كتمان الحق[٣٧٨]، التواطؤ على الشر[٣٧٩]، شهادة الزور[٣٨٠]، غش القضاة وفسادهم[٣٨١]، عدم القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٣٨٢]، عدم القيام بنشر العلم[٣٨٣] عدم القيام بتأسيس المراكز اللازمة لإدارة المجتمع وصلاحه وحمايته وتعليمه[٣٨٤] وما إلى ذلك، عدم القيام

(٣٧٣) آل عمران ١٨٧/٣، المائدة ٦٧/٥.

(٣٧٤) الحجرات ١٠/٤٩، الحشر ٩/٥٩.

(٣٧٥) الحشر ٩/٥٩، التغابن ١٦/٦٤.

(٣٧٦) النحل ٩٠/١٦.

(٣٧٧) النساء ٥٩/٥.

(٣٧٨) البقرة ١٥٨/٢، ٢٨٣.

(٣٧٩) المائدة ٢/٥.

(٣٨٠) الحج ٣٠/٢٢، الفرقان ٧٢/٢٥.

(٣٨١) البقرة ١٨٨/٢.

(٣٨٢) المائدة ٧٨/٥-٧٩، التوبة ٦٧/٩.

(٣٨٣) البقرة ١٥٩/٢، التوبة ١٢٢/٩.

٣٨٤) آل عمران ١٠٤/٣.

بالحاجات الضرورية للفقراء والمساكين،[٣٨٥] عدم الاستعداد اللازم لدفاع البلاد وحمايتها[٣٨٦] عدم المقاومة للظلمة وأمثالهم ممن ينشـــرون الفتنـــة والفساد في البلاد بين العباد[٣٨٧].

هذه جملة من تلك المنهيات التي أوجب القرآن القيام بهـــا صيانـــة للمجتمع وحفاظا على أمن البلاد والعباد وحفزا بالمجتمع نحـــو التقـــدم والتطور أخذا للأهبة اللازمة في كل ما يلزمه في الحرب والسلم والأمـــن والخوف.

إن هذه الأوامر والنواهي من أنصع الدلائل وأقوى الحجـــج علـــى عالمية القرآن وجامعية توجيهاته وشمولية خطاباتـــه وكليـــة أحكامـــه وعمومية تكاليفه بدون تخصيص بقوم دون قوم أو تحديـــد بقـــرن دون قرن. فمن ادعى غير ذلك فليأت بدليل مناهض لهذا الحكم أو مناقض له لكن إذا وازنت بميزان العدل والعلم والحكمة جميع ما يقولون في هـــذا الباب كدليل على تاريخانية القرآن رأيته لا يملأ قشرة جوزة ولا يســـوي قدر لوزة بل كلها من الثرثرة في الكلام والتشدق في القـــول والتعقـــير بسفاسف الفلسفيات التي تمليها عليهم شياطينهم من الإنس والجن.

---

(٣٨٥) البلد ٩٠/١١-١٦.

(٣٨٦) التوبة ٣٨/٩.

(٣٨٧) هود ١١٣/١١.

٥-الاهتمام بحماية الحقوق ورعاية الكرامات

إن نظرة القرآن /الإسلام إلى الحقوق تغاير النظرات البشرية إليها[٣٨٨] حيث جعل الإسلام هذه الدائرة أوسع ما يكون فضم كثيرا من الوظائف والواجبات الاجتماعية التي يحتم الإسلام فعلها على كل واحد من الأفراد إلى هذه الدائرة وعدها من حقوق الآخرين حسب مصطلحه هو حتى يكون البنيان الحضاري الذي يشيده القرآن أحسن وأحكم ما يكون وحتى يحافظ بذلك حقوق وكرامات الناس سواء. ثم يتعدى الإسلام من ذلك إلى المحافظة على حقوق غير المسلمين من سائر الناس أيضا وغير الناس من البهائم والبيئة وغيرها من عناصر الطبيعة أيضا.

إن نظام القرآن تفرد من بين ما يهتم برعاية الحقوق من النظم بهذا المنظور العالمي الجامع حيث أتى في هذا الباب بما هو جديد على عالم البشرية كل الجدة فوسع الكيان الإطاري للحقوق من مجاله الضيق

(٣٨٨) انظر للفرق بين حقوق الإنسان في المنظور الشرعي وحقوق الإنسان في المنظور الغربي: محمد أحمد مفتي، سامي صالح الوكيل، **النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية دراسة مقارنة**، سلسلة كتاب الأمة يصدرها رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر، الطبعة الأولى١٤١٠ ، ص ٢٦-٤٢.

المعروف بين أبناء القرن الحاضر وهو "حفظ كرامة الغير وعدم الاعتداء عليه بما يؤذيه في بدنه وماله وبما يخدش في عرضه وكرامته وإعطائه ما يستحقه مما يهمه من حق تعليم وتوظيف وتمويل وصحة وإسكان وتجول ونحوها" وسع الإطار إلى دائرة تنسق مناسباته وتنظم ملابساته وترتب علاقاته مع كافة الكائنات القريبة منه المماسة له على وجه يعطي كل ذي حق حقه فيتحقق بذاك كرامة الناس على أفضل وأرفع المستويات الإنسانية وذلك المنظور الاستيعابي للحقوق في القرآن جعل من المجتمع الإسلامي مجتمعا صفيق النسج محكم البنيان ثابت القواعد يسود على عامة أفراده روح الخير والبر والتعاون والاحترام ورعاية الحقوق وهو المتحقق في سلوكيات عامة أفراد المسلمين سلفا وخلفا إذا ما عملوا بأوامر دينهم الحنيف وتمسكوا بشرائع شرعهم الشريف ويمكن لكل أحد يمعن النظر في واقع كثير من المسلمين الحاضرين الذي صدقوا الله تلك المظاهر الرائعة في البر والخير وسائر المعاني الإنسانية النبيلة وليس نبأ صلاح الدين وغيره من فاتحي المسلمين فيما مضى ببعيد وصدق من قال من فلاسفة الغرب "ما عرف التاريخ فاتحا أرحم من المسلمين".

وميزة أخرى أنك تجد نفس التوسيع في المخاطبين به أيضا فبينما ترى في المنظور البشري أن المخاطب بتوفير الكرامات وإعطاء الحقوق في الغالب هو الدولة وأما الأفراد فلا يتوجه إليهم سوى عدم التعدي على

حقوق الآخرين ترى في المنظور القرآني أن المخاطب بالمسئولية في هذا الصدد ليس هو الدولة فقط بل إلى جانب مسئوليتها فيما يخصها تتوجه كميات عديدة من المسئوليات الحقوقية والواجبات الأخلاقية التي تتحقق على صعيدها أفضل حالات الحقوق والكرامات البشرية إلى جميع الناس المؤمنين المكلفين فهم أيضا مسئولون عن أداء بعض الوظائف والواجبات نحو الآخرين سميت تلك الواجبات في المصطلح الإسلامي بالحقوق ونستدل على ذلك بمثل قوله تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [٣٨٩] ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [٣٩٠]

يتبين من خلال هذين النصين أن الله سبحانه جعل معونة الفقير والقريب وظيفة واجبا أداؤها على القريب والغني وجعلها في عهدة كل واحد منهما ومن مسئولياته فلذا سماها حقا كما أن من واجب الدولة توفير الكرامات وإعطاء الحريات للعباد والإيفاء بالخدمات اللازمة في البلاد.

ثم إن توسيع القرآن لدائرة الحقوق والواجبات وصل إلى أعلى

(٣٨٩) الذاريات ٥١/١٩.

(٣٩٠) الإسراء، ١٧/٢٦.

المستويات المتحتمة لتأمين سعادة الفرد وتقوية الأواصر الإنسانية فيما بين أفراد المجتمع حيث أضاف إليها -مع رعاية كل هذه الحقوق المعروفة اليوم- أمورا أخرى لم تحلم الإنسانية بها إلا في ظل الأديان الحقة فجعل للإنسان على نفسه حقوقا من أبسط مظاهرها حفظ العقل والحياة وعدم استساغة الإضرار بأي منهما مهما كان الأمر[٣٩١] وجعل للأصول حقوقا يكلف بها الفروع[٣٩٢] وجعل للفروع حقوقا يكلف بها الأصول[٣٩٣] وجعل لكل من الزوجين حقوقا يكلف بها كل منهما تجاه الآخر[٣٩٤] وجعل للأقارب القريبة والبعيدة حقوقا[٣٩٥] وجعل لجيران الدار حقوقا[٣٩٦] وجعل للمسلمين عامة حقوقا[٣٩٧]؛ وجعل لأهل الذمة أي من يعيش بين ظهراني المسلمين من غيرهم حقوقا؛ وجعل للمجتمع حقوقا[٣٩٨]؛ وجعل

(٣٩١) ويدل على ذلك حرمة قتل النفس وحرمة استعمال المسكرات والمخدرات تحريما باتا انظر الفرقان ٦٨/٢٥؛ البقرة ٢١٩/٢، النساء ٣،٤/٤، ٢٩، ٣١؛ المائدة ٩٠/٥، ٩١.

(٣٩٢) انظر الإسراء ٢٣/١٧، ٢٥، العنكبوت ٨/٢٩؛ لقمان ١٤/٣١، ١٥؛ الأحقاف ١٥/٤٦.

(٣٩٣) انظر البقرة ٢٢٣/٢؛ الأنفال ٢٨/٨؛ التحريم ٦/٦٦.

(٣٩٤) انظر النساء ٣،٤/٤، ١٢٩؛ النور ٢٢/٢٤؛ الأحزاب ٥٥/٣٣.

(٣٩٥ النساء ١/٤، البقرة ٨٣/٢، ١٧٧، ٢١٥، /١، ٣٦؛ التوبة ٢٣/٩؛ هود ٤٥/١١، ٤٧؛ الرعد ٢١/١٣، ٢٥؛ النحل ٩٠/١٦؛ الاسراء ٢٦/١٧؛ النور ٢٢/٢٤؛ الروم ٣٨/٣٠؛ محمد ٢٢/٤٧.

(٣٩٦) النساء ٣٦/٤.

(٣٩٧) مما لاشك فيه أن جميع تلك الآيات القرآنية التي تأتي للمؤمنين ببعض الواجبات والقيود والحدود و الآداب في المأكل والملبس والمنكح والمسكن والمشرب والمركب والممشى

المسلمين من غيرهم حقوقا؛ وجعل للمجتمع حقوقا[٣٩٨]؛ وجعل للدولة حقوقا[٣٩٩]؛ وجعل للبهائم حقوقا[٤٠٠] وجعل للأموال حقوقا[٤٠١] وجعل لمظاهر الطبيعة حقوقا من أبسطها عدم جواز الاعتداء عليها والإسراف فيها: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ [٤٠٢] وقد أشرنا إلى البعض من تلك الحقوق فيما سبق.

ولا ننس أن جميع تلك الحقوق والواجبات أخذت صورها الفطرية الأخيرة المناسبة بالوجه الأفضل على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم فتجد كل ذلك موضحا مفصلا أكثر وأكثر من خلال الأحاديث النبوية أليس من مثيرات العجب حقا أنك ترى الإمام البخاري (ت ٢٥٦) ألف في النصف الأول من القرن الثالث الهجري/القرن التاسع للميلاد من أقوال.الرسول عليه الصلاة والسلام كتابه القيم "الأدب

والمدخل والمخرج وسائر الملابسات والمناسبات تشكل إطارا هاما يحتوي على أخلاقيات وحقوق المسلمين بعضهم تجاه بعض وتجاه غيرهم من أهل الذمة. وما أكثر تلك الآيات.

(٣٩٨) البقرة ٢/١٦٠، ١٧٧، آل عمران ٣/١٠٤،١١٠، ١١٤؛الأعراف ٧/١٥٧؛ التوبة ٩/٦٧، ١١٢،٧١؛الحج ٢٢/٤١. الحجرات ٤٩/٩-١٠.

(٣٩٩) انظر النساء ٤/ ٥٩، ٨٣، ١٣٥؛المائدة ٥/٨؛ الأنعام ٦/١٠٥؛ الشعراء ٢٦/٢٠٥، ٢٠٧؛ ص ٣٨/٢٦.

(٤٠٠) المائدة ٥/٣؛ الأنعام ٦/١٤٥.

(٤٠١) البقرة ٢/٢٨٢؛ النساء ٤/٥-٦.

(٤٠٢) الإسراء ، ١٧/٢٧.

المفرد" الحافل بمعظم هذه الحقوق التي تحكم بنيان المجتمع وتصونها من الاختلال والاضطراب والانتهاك فيما سماه بعض المعاصرين بموسوعة الآداب الإسلامية[٤٠٣] إلى جانب الكثير من المؤلفات في الآداب الإسلامية فيما بعده.

إن اهتمام القرآن بحفظ كرامات الناس وحماية حقوقهم تبدو جليا من خلال أوامره الكثيرة ومن خلال العقلية التي طورها القرآن في ذلك المجال تطويرا عديم النظير ولكن حينما يهتم القرآن بجانب لا يضحي بجانب آخر كما ببدو ذلك ذريعا في النظم الوضعية والديمقراطيات البشرية فهي حينما توفر الحريات مثلا للناس في مجالات التمتع والتفرج والتمول والتنقل والتفكر وإبداء الرأي توفيرا معتديا لحدود الفطرة ترى أنها يفوتها الكثير الكثير من أمن الدماء والأعراض والأموال والعقول والفروج ومن جراء ذلك ترى أن جرس الخطر دق منذ كثير في المجتمعات الغربية التي تتمتع بأوفر الحريات المعتدية لحدود فطرة الفرد والجماعة وتحدق بها مخاطر عظيمة تؤرق كثيرا من متفكري الغرب وساسته ويعترفون بذلك بين فينة وأخرى. وقد ذكرنا طرفا منها في

(٤٠٣) محمد عبد القادر عطا،مقدمة تخريج كتاب الأدب المفرد، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٠-١٩٩٠، ص ١١.

كتابنا **دلالة أسماء سور القرآن الكريم من منظور حضاري.**[٤٠٤]

فحينما يوفر القرآن الحرية للناس في مجال يراعـــي بدقـــة التـــوازن الاجتماعي والحدود التي تبقى الحرية فيها معطاء سليما بدون مســـاس بالضرر لأي أحد لا للشخص نفسه الذي له الحرية ولا لغيره فبدءا مـــن بروز أول معالم الضرر في أي مجال من مجال الحريات ترى الحظر القرآني يأخذ في الظهور فيرفع تلك الحرية الآثمة الخاطئة حتى لا ينتشـــر منـــها الضرر ولا يستفظع فيها الشرر إضافة إلى أن الإسلام لا يلاحظ بعـــين الاعتبار في توسيع الحريات أو حظرها الوضع الحاضر الموجود فحســـب —وهو المعتبر في الملحوظ البشري- بل يراعي المستقبل البعيد أيضا فـــإذا نجم من توفير أية حرية بعض الأخطار ولو على المستقبل البعيد رفعـــها الإسلام وحظرها لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح في منظـــوره الاجتماعي والتنظيمي والسياسي جميعا ومن هنا حظر الإســـلام علـــى المؤمن الحريات الفكرية التي تأتي بالكفر والإلحاد والجحود.

وهذه الدقيقة هي التي غفل عنها الكثير من المثقفين المسلمين ممـــن عانوا كثيرا من الجور والظلم من السياسات المســـتبدة والديكتاتوريـــة فافتتنوا بالحريات الغربية فصاروا يتحمسون لجميع أنواعها على علاتهـــا

---

(٤٠٤) انظر محمد خليل جيجك، **دلالة أسماء سور القرآن الكريم من منظور حضـــاري**، ص ٦٦، ٧٢-٧٥.

بدون تمييز لنافعها من ضارها وبدون تفريق بين طيبها وخبيثها ظنا منهم أن الوجدان المنور والتربية التامة والثقافة النيرة ستردع الناس حينما يعالجون حرياتهم عن الإضرار بأنفسهم أو بالآخرين أو التعدي على حقوق أنفسهم أو الآخرين لكن أثبتت التجارب أن الأمر ليس بالميسور كما يظنون وأن الوجدان أو التربية أو الثقافة مهما رسخت جذورها وثبتت أصولها ليست بوازع كاف على الصعيد الفردي والجماعي كليهما فإنها تبقى أمام أعاصير الشهوة والهوى أضعف من كل ضعيف فلذا قلما ترى فردا من هؤلاء المتعززين بالتربية الوجدانية والثقافة العصرية نجا من مهالك النفس والهوى وقلما ترى فردا منهم نجا من غوائل شهوة المال والطمع فافتضح الكثير في الشرق والغرب من عظماء ساسة البلاد ومنوريهم وصحفيهم على رؤوس الخلائق إما بحادثة زنا أو واقعة رشوة أو.. أو...! هذه من ناحية ومن ناحية أخرى إن ما تأتي به تلك الحريات الفسيحة التي لا حدود لها ولا سدود للمجتمع على المدى البعيد من المفاتن والمخاطر أكثر من أن تعد وتحصى فإن قلت من أنبأك هذا قلت نبأني أرقامهم وإحصائياتهم ولكن هل من مدكر!

فمن ناحية ينوه القرآن بكرامة الناس في قولــه ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [٤٠٥] إنَ أكرَمكم عند الله أتقاكم[٤٠٦]

ومن ناحية أخرى تأمينا لكرامة الناس على أبعاد أخرى حرم القرآن بصورة حاسمة التطاول على أعراض الناس وانتهاك كرامتهم والاعتــــداء على حقوقهم وحرم اغتيابهم وحسدهم وحقدهم وشـــــتمهم وذمـــهم وقذفهم وإهانتهم وضربهم وكل ما يؤذيهم –بدون استحقاقهم لذلــك– حرم جميع ذلك لا شهودا فقط بل غيابـــا أيضـــا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [٤٠٧] ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ [٤٠٨] ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ

(٤٠٥) الإسراء، ١٧/٧٠.

(٤٠٦) الحجرات، ٤٩/١٣.

(٤٠٧) الحجرات، ٤٩/١٢.

(٤٠٨) الهمزة، ١٠٤/١.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[409] ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾[410]

فاهتماما بذلك ترى القرآن جعل للقذف -الافتراء بالزنا على عفيف محصن - حدا أكبر من حد الخمر ثمانين جلدة لأن في القذف تلويثا لعرض الغير وانتهاكا لكرامته واعتداء زائدا على مكانته وخصيصا في تلك المجتمعات المحافظة المتحفظة من الزنا:﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[411]

٦-الاهتمام بعمارة الأرض

إن ما قدمه القرآن للناس من تلك النظرة الشمولية إلى الإنسان والكون والطبيعة يفتح على العقل البشري والتفكير الإنساني آفاقا

(٤٠٩) البقرة ٢/١٩٠.

(٤١٠) البقرة، ٢/٢٠٥.

(٤١١) النور ٢٤/٤.

فسيحة إلى أقصى الحدود في النظر إلى الإنسان نفسه والكون والطبيعة نظرا فاحصا متأملا في أسرارها ومتطلبا لوجه الاستفادة منها. ولتلك النظرة الشمولية الاستدلالية إلى الكون الحاضة على كثير من جوانب التفكير والمعرفة كانت فيما مضى ولا تزال وستكون فيما يأتي تأثير إيجابي أيما تأثير في اتساع الأفق التفكيري لبني الإنسان وانتهاجه سبل العلم والتطور والتقدم لا في الميادين المادية فحسب بل في الميادين المادية والمعنوية كليهما وقد ذكرنا اهتمام القرآن بالتفكير والعلم والمعرفة ودورها الحضاري في الفقرة الأولى من هذا المبحث.

لقد أحدث القرآن- كما أسلفنا الإشارة إليه- في المجالات التفكيرية إلى جانب الميادين الاعتقادية والاجتماعية والأخلاقية انقلابات عجيبة أحدثت أصداء عالمية عظيمة تطن في أذن التاريخ عبر سيره الطويل بما قدم لعالم العلم والفكر والمعرفة من عقلية مفكرة ناضجة واعية سببت توليد اتساعات شاملة وانفتاحات هائلة وآفاق واسعة في التفكير والعلم والمعرفة.

وأهم عناصر تلك العقلية القرآنية المعطاء:

١- الحض على السعي في طريق العلم والمعرفة: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى

عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [٤١٢] ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [٤١٣]، ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [٤١٤]، ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [٤١٥]، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [٤١٦].

٢- الجد والجهد لعمارة الأرض وتسخير الطبيعة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [٤١٧] ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [٤١٨].

٣- ديمومة الحض على النظر والتفكير في شتى صفحات هذا الكون المشاهد فيما ينوف على ثلاثمائة آية في القرآن فقط (عدا ما في السنة)

---

(٤١٢) العلق ٩٦/١-٥.

(٤١٣) طه ٢٠/١١٤.

(٤١٤) النحل ١٦/٤٣، الأنبياء ٢١/٧.

(٤١٥) المجادلة ٥٨/١١.

(٤١٦) الروم ٣٠/٢٢.

(٤١٧) الملك، ٦٧/١٥.

(٤١٨) الحديد، ٥٧/٢٥.

الذي قوامه وعماده الحرية الفكرية التي يتمتع بها المرء المؤمن تمتعا كـاملا والتي لا تناقض القيم الإسلامية وثوابته العليا: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾[٤١٩] ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.[٤٢٠]

وهذه الأمور التي تفرد بها الفرقان العظيم هـي أهـم المقومـات الحضارية ومنها يتكون الكيان الحضاري وعليها ينبني البنيان الحضـاري. لأن العقل الحضاري يتفكر أولا ثم يصل من ذلك التفكـير المسـتوعب الدقيق إلى منهج نافع (وهو العلم) لعمارة الأرض ثم يبدأ بالعمل الحثيـث لتعمير الأرض من غير إفراط ولا تفريط متخلقـا بـأخلاق الأنبيـاء والمرسلين عبر مشواره الحضاري فـيراعي في نفسـه وغـيره جميـع الأخلاقيات الكريمة والمعاني الإنسانية العظيمة وهذا هو المنـهج الـذي وضعه القرآن لتلامذته الذين ينهلون من معينه الصافي فبنوا بذلك فيمـا سلف من الزمن أسمى الحضارات الإنسانية الكريمة.

(٤١٩) الروم، ٨/٣٠.

(٤٢٠) الرعد، ٣/١٣.

إن المعالم القرآنية ومضامينها التي تدل على اهتمام القرآن البالغ بعمارة الأرض يمكن تلخيصها فيما يلي:

أ- كون الإنسان خليفة الله في أرضه:[٤٢١] ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى

جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[٤٢٢]. ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾[٤٢٣]

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ

(٤٢١) أنظر القرآن الكريم الأعراف ٧/٦٩،٧٤، يونس ١٠/١٤، النمل ٢٧/٦٢، فاطر ٣٥/٣٩.

(٤٢٢) البقرة ٢/٢٣-٣١.

(٤٢٣) الأنعام ٦/١٦٥.

وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [٤٢٤]

فحيث إن أصدق التفاسير لكتاب الله هو كتاب الله نفسه وحيث نرى أن ﴿ القرآن فسر الخلافة بمعنى له أبعاد عميقة ذروها المعنى السياسي الذي يتضمنه﴿ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ ﴾ [٤٢٥] نرى أن من أهم مستلزمات الخلافة الراشدة في الأرض هو عمارة الأرض على الوجه الصالح النافع.

ب- الأمر بالأكل من طيبات الرزق وطيبات ما في الأرض[٤٢٦] ومعلوم أن الأكل من رزق الله الذي هو رمز على الانتفاع من طيبات الأرض لا يتحقق إلا بعمارة الأرض:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولاً فَٱمۡشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ ۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [٤٢٧] ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ حَلَـٰلاً طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [٤٢٨] ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا

(٤٢٤) ص ٢٦/٣٨.

(٤٢٥) ص، ٢٦/٣٨.

(٤٢٦) انظر القرآن الكريم الأنعام ١١٨/٦، ١٤١، ١٤٢، النحل ١١٤/١٦، طه ٢٠ /٥٤، ٨١، المؤمنون ٥١/٢٣، سبأ ١٥/٣٤.

(٤٢٧) الملك ١٥/٦٧.

(٤٢٨) البقرة ١٦٧/٢.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ [429] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴾ [430] ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [431]

إذا لاحظنا ما في الآيتين الأخيرتين رأينا فيهما معنى لطيفا وتوجيها شريفا -وهو أهم ميزات هذه الحضارة الربانية- حيث ترى أنه نهى فور ما أمر بالانتفاع والتمتع -الذي جعل الأكل والشرب رمزا عليه والذي هو مظنة للإسراف والتبذير أيضا- عن الاعتداء وتجاوز الحد والإسراف

---

(٤٢٩) البقرة ٢/١٧٢.

(٤٣٠) المائدة ٥/٨٧-٨٨.

(٤٣١) الأعراف ٧/٣١-٣٢.

والتبذير في قوليه سبحانه "ولا تعتدوا" و"ولا تسرفوا" وهو المصرح به في مواضع أخرى أيضا من القرآن من مثل " ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [٤٣٢] حتى يربي العبد المؤمن على أدب الاتزان والاقتصاد ويعوده على التجنب عن الإسراف والاعتداء في كلا حالتي السراء والضراء.

(ويلاحظ من صيغ العموم والإطلاق في النصوص السابقة أن ما أمر به المؤمنون ليس التجنب عن التبذير في متملكاهم الشخصية فحسب بل هم مأمورون بالابتعاد عن الإسراف في جميع الحالات وكل الاستعمالات سواء في أموالهم الشخصية وسواء في غيرها. هذا هو أدب القرآن.)

مع أننا نجد في الطرف المقابل أن أهم ميزات الحضارة الغربية هو الإسراف والتبذير لا في متملكاهم الشخصية فقط بل أكثر فأكثر في ثروات الأرض ومواردها.حتى يرى بعض الباحثين أنه لو أنفق الطاقة جميع بلاد العالم مثل ما ينفقه الغربيون لهلك ضمن أسابيع محدودة فقط جميع ما على الأرض من ذوات الحياة بما يختلط الجو عامة من السموم الفتاكة. والأدهى الأمر من ذلك أن رودولف باحرو (Rudolf Bahro)

(٤٣٢) الفرقان ٦٧/٢٥.

يرى أنه لو قارب من في القارة الإفريقية والآسيوية وأمريكا اللاتينية في معدل الرفاهية والتنعم إلى ما وصل إليه البلاد الغربية الصناعية- حتى ولو لم يفعلوا نفس ما يفعله الغربيون- ولو استهلكوا قريبا مما يستهلكه الغربيون واستعملوا السيارات قريبا مما يستعمله الغربيون وصنعوا من المصانع قريبا مما في الغرب لكفت هذه لتوقف جميع الحياة على وجه الكوكب.

إن كل ذلك من السرف والبذخ الذين تنفخهما الحضارة الغربية في روح أبناءها. أما الحضارة القرآنية فتذكر أبنائها دائما هذا النداء الرباني وأمثاله: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾[٤٣٣] فيأخذ على أيدي المؤمنين ويمنعهم من كل سرف وترف ومن كل شطط وشطن غير مشروع. ويجعلهم دائما على الطريق الأوسط وهو المحجة التي رسمها الله لعباده المؤمنين: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[٤٣٤]

(٤٣٣) الإسراء ١٧/٢٦-٢٧.

(٤٣٤) البقرة، ٢/١٤٣.

ج- الأمر بابتغاء فضل الله وطلب رزقه[٤٣٥]؛ علما منا أن الأمر بطلب الرزق أمر بعمارة الأرض أيضا لأن الارتزاق الكامل والانتفاع الشامل بما في الأرض إنما يتمكن منه العباد ويتحقق في البلاد بعمارة الأرض عمارة سليمة سديدة؛ وهي من أهم المقومات لحضارة تريد من نفسها أن تبدو آثارها ويظهر شعارها على الصعيد العالمي ومن ثم أن تكون حضارة عالمية لا تختص بأية بقعة أرضية أو منطقة بشرية أو قطعة زمنية:﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلاً ﴾[٤٣٦] ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾[٤٣٧] ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ

(٤٣٥) راجع من القرآن الكريم البقرة ١٩٨/٢، النحل ١٤/١٦، القصص ٧٣/٢٨، الروم ٤٦/٣٠، فاطر ١٢/٣٥، الجاثية ١٢/٤٥، العنكبوت ١٧/٢٩.

(٤٣٦) الإسراء، ١٢/١٧.

(٤٣٧) الإسراء، ٦٦/١٧.

كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [٤٣٨] ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [٤٣٩]

إلى آخر تلك الآيات الآمرة بابتغاء الرزق.إن أدنى نظرة تلقى على آي القرآن تنم عن مدى اهتمام القرآن بعمارة الأرض.

٧- الاهتمام بنشر المعاني الإنسانية النبيلة وبث الفضائل السامية

إن الفضائل الخلقية والمعاني الإنسانية المملوءة حيوية ونشاطا ونبلا إنسانيا لا تختص بأمة دون أمة والتي هي في أية حضارة كانت فهي كالروح للجسد فلم تخل أية حضارة منها إلا وأذن بالرحيل ركبها وانهار بعد قليل بنيانها و حان في زمن قصير حينها ودمارها؛ كما قال القائل:

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم * فأقم عليهم مأتما وعويلا

لعمر الحق! إن القرآن أتى في باب التربية على الفضائل والمكارم

(٤٣٨) الجمعة، ١٠/٦٢.

(٤٣٩) الملك، ١٥/٦٧.

وبصدد ترسيخهما في المجتمع الإنساني وتشييد ذلك البنيان الإنساني من جديد وتحكيمه بروابط وأواصر خلقية اجتماعية لا مثيل لها ولا عديل ولا نظير لها ولا بديل فلقد أتى في هذا الباب بما لم يسبقه سابق ولا يلحقه لاحق: حيث بث روح الإخاء والتحابب والتعاون والتساند بين جميع أبناء الأمة: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ ٤٤٠ ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ ٤٤١ ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ٤٤٢ كما أمر بالإحسان ونشر

(٤٤٠) البقرة ٢/١٧٧.

(٤٤١) المائدة، ٥/٢.

(٤٤٢) الحجرات، ٤٩/١٠.

الفضيلة والعدل بين جميع طبقات الناس ونهى عن جميع المنكرات والفحشاء: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[٤٤٣] وفي باب المنع عن رذائل الأخلاق وسفاسف الأمور ألق السمع إلى هذه الكلمة الجامعة: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [٤٤٤] وكفي بهذه النصوص في هذا الباب شهودا عدولا.

إن تلك المعاني الإنسانية النبيلة و الفضائل الأخلاقية الجزيلة والكمالات البشرية الجميلة الموجودة في الكتاب المجيد بكثرة وغزارة أتى الكتاب المجيد بها مجتمعة مصفوفا بعضها فوق بعض إبان نزوله من غير أن ينتظر القرآن فيما ابتكره من تلك المعاني العالية وابتدعه من الفضائل السامية جهودا إنسانية ستبذل، أو تجارب بشرية ستتجمّع، أو قاعدة حضارية ستتأصل ومن غير أن يسبق له في ذلك سابق حضاري أو رصيد ثقافي، أو خلفية علمية ومن غير أن يتقدم عليه بنية تحتية في

(٤٤٣) النحل، ١٦/٩٠.

(٤٤٤) الأعراف ٧/٣٢.

المعلومات والمعارف الأخلاقية مع أننا نعلم جميعا أن تكامل الكمالات التي وصل إليها الإنسان بمحض جهده وسعيه إنما وصل إليه نتيجة تجارب سابقة وجهود سالفة وخبرات غابرة ومعلومات متقدمة. وأما القرآن المبين فتراه قد أتى جودا وكرما دفعة وجاء بذلا وسخاءً فجأة بهذه المجموعة من المعاني الإنسانية الشريفة التي هي أهم مقومات عالميته والتي قلما تجد في جميع الأوساط البشرية فردا مستغنيا عنها أو جماعة غير محتاجة إليها، كما قدم من خلال آياته وسوره إلى المحافل العالمية محاسن خلقية و فضائل بشرية وقواعد سياسية وضوابط اقتصادية وأسسا حضارية وآفاقا معرفية ونظرات شمولية إلى الكون والطبيعة والإنسان إلى جنب تلك المقاربات الفلسفية التي تفصح عن علل وغايات الأشياء التي لم تحلم الإنسانية بجلها فردا فردا من قبل وأما مجتمعة فلم يكن لها نبأ ولا خبر بها كلها.

فالقرآن ألقى إلى الجامعة الإنسانية مجموع تلك المفاهيم الجديدة التي تشكل صلب عالميته وتقوِّم هوية بنيانه الإنساني القشيب مما أحدث في الآفاق البشرية الفكرية منها والعلمية والأخلاقية والسياسية والحضارية تحولات جذرية عجيبة سببت إبان نزوله وفيما يتلوه من قطعات الزمن اهتزازات كبيرة في منظوره إلى الكون والدين والحياة والعلم والمعرفة

أتاحت له فرصا جمة لمحاسبة ماضيه والتخلص من قيود الاستعباد والاستذلال والنجاة من كبول الخرافة والأساطير.

ويمكن أن نستخلص بعض ما أنزله القرآن إلى أرض البشرية من تلك المعاني السامية والكمالات الراقية والفضائل العالية والمفاهيم الرامية إلى تكميل الناس روحا ونفسا وتطهيرهم مادة ومعنى وترقيتهم فردا ومجتمعا التي لا غنى لأي من أبناء البشر عنها مهما تطور وتقدم أو تعلم وتعولم في هذه العناوين التالية:

١- **الحفاظ على الكرامة الإنسانية** إلى أقصى الحدود طالما لم تنقلب إلى مظاهر سيئة مذمومة العواقب للفرد والمجتمع فقد أذاق القرآن بتلك التعاليم السمحة الإنسان المستهان المستضعف المغصوب منه كرامته وعزته طعم الكرامة النفسية ولذيذ العزة البشرية: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلٗا ﴾.[٤٤٥]

ونرى هذه الحقيقة تتبلور- منعكسة إلى واقعيات الحياة- على لسان **الفاروق** رضي الله عنه حينما امتنع ابن **عمرو بن العاص** رضى الله عنه وهو والي مصر وفاتحها وفي قمة مجده وعزة سلطانه عن توفية القصاص

(٤٤٥) الإسراء، ١٧/ ٧٠.

من نفسه لأجل صفعة صفعها أحد القبطيين حيث قال الفاروق رضي الله عنه: **"متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا"**.

إن الحفاظ على كرامة الإنسان في المعادلة التي أتي بها القرآن تحقيقا لكرامة بني آدم له مظاهر متنوعة تظهر في مختلف أنواع التعامل القرآني معه بدءا من طفولته ومرورا بفترات فتوته وكهولته وانتهاء بشيخوخته وموته ورفع جنازته ففي كل من تلك المراحل مظاهر بارزة من الكرامة التي أمتع القرآن العباد بها ولكن لسنا في هذا الصدد بمجال البحث عنها فليطلب من محلها.

٢- استخلاص العبودية لله وحده والإنقاذ من عبودية البشر فقد أهدى القرآن لذلك الإنسان الذي ضل عن سبل الهدى وتاه في متاهات الشرك والعبودية لغير الله واستذل بأبشع طرق الاستذلال والاستعباد لغير الله، أهدى له أفضل وسائل النجاة والخلاص عن عبودية البشر وهو عقيدة التوحيد التي لا تعرف للبشر ربا غير الله ولا تعطى أية فرصة لأن يتخذ بعض الناس بعضهم أربابا من دون الله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟

ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾.[٤٤٦] ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾.[٤٤٧]

وقد رأينا هذه الحقيقة العظيمة الناصعة التي يهديها الإسلام للبشرية جمعاء تتجسد في الحياة الواقعية على لسان **ربعي بن عامر** رسول **سعد بن الوقاص** رضي الله عنهما قائد الجيش الإسلامي في حرب القادسية إلى الفرس حينما التقى مع القائد الفارسي **رستم** وهو بين حشمه وجشمه وفي ذروة زهوه وكبريائه قال له: "**إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام**".[٤٤٨]

لا غرو أن من أكبر ذرائع استذلال البشر ووسائط إهانته قديما

(٤٤٦) آل عمران، ٣/٦٤.

(٤٤٧) آل عمران، ٣/٧٩-٨٠.

(٤٤٨) إسماعيل أبي الفداء ابن عمر بن كثير، **البداية والنهاية**، تحقيق عبد الله التركي، الطبعة الأولى، دار هجر ، إمبابة، ١٤١٨/١٩٩٨، ج ٩، ص ٦٢٢.

وحديثا هو تعبيده لغير الله لناس أو مخلوق آخر مثله فحيث ألهى القرآن عبادته لغير الله وقضى على جميع مظاهر العبودية لغير الله سبحانه قضاء باتا يكون الناس بذلك واجدين في ظل نظام التوحيد القرآني لأعلى صور الكرامة والعزة بأفضل صورة.

ولا تنسينّ أن الشرك غير صورته في عالمنا المعاصر في كثير من بقاع الأرض فأخذ هو أيضا صورة حديثة وخصيصا في العالم الثالث ترى ذلك بصورة بارزة حيث كان الأوائل يعبدون الأحجار والأشجار أو الفراعنة والقياصرة وفي سبيل ذلك كان يستذل الحشود الكبيرة من البشر ويستهان بكرامات الجموع الكثيرة من الناس وأما في يومنا هذا فألِّهت مفاهيم وافدة وأفكار ونظم كثيرة مستوردة من الغرب أو الشرق هي وليدة الحضارة المادية الوضعية استوردت بقضها وقضيضها من غير فرق بين غث وسمين أو نافع وضار أو ما يصلح وما لا يصلح منها واستعبدت ولا تزال تستعبد في سبيلها ملايين البشر حتى يتيسر بذلك استغلال بلادهم ونهب خيرات أراضيهم وسلب ثمرات جهودهم وجلب عقولهم والأدهى الأمر أن جعلت تلك البضاعات الدخيلة في العالم الإسلامي بدلا من الأصيلة فاتخذت عبر طول البلاد وعرضها مكانة مرموقة متميزة بحيث تصنع قيما وسلوكيات وتنتج عادات وممارسات وتأتي بتقاليد وأخلاقيات غريبة على مزاج عالمنا الإسلامي فصار يمجها

بكيانه وسلوكياته واتجاهاته الأصيلة النابعة من معتقداته: **كالاشتراكية والشيوعية** فيما مضى من قطعة من الزمن **وكالعولمة** وما ضاهاها اليوم. اتخذها آلهة من دون الله كثير من عبدة الثالوث الغربي الحديث الفروج والجيوب والبطون.

ما بقي أمام الغرب المستعمر الحاقد وسيلة في إدامة استغلاله وفرض سيادته على من دونه إلا تصدير تلك المفاهيم الجوفاء –التي لا يبقى لها من معانيها الغربية الأصيلة نقير ولا قطمير حينما تصدر – إلى خارج بلادها مشوهة محرفة إلى أقصى الحدود؛ فضحي من أجل سيادة تلك المفاهيم الدخيلة الغريبة في العالم الإسلامي مئات ألوف الناس من الأبرياء والعلماء وغيرهم فشنقوا وصلبوا وطردوا وشردوا وعذبوا. وكدلالة على ذلك ترى في كثير من بلاد العالم الإسلامي أنه لا يستساغ نقد تلك المفاهيم بعجرها وبجرها بأية صورة كانت كما لا يستساغ سب الآلهة ونقدها في منطق الشرك حتى إذا سببت الله ورسوله غضوا العين من ذلك وتعللوا بحرية الرأي؛ وأما نقد آلهتهم المزعومة وزعمائهم المنصوبة فلا أبدا كما قال القائل:

يقاد للسجن إن سب الزعيم وإن * سب الإله يقال الناس أحرار

٣-إغاثة المظلوم ونصرة المستضعف وحمايتهما والنصفة لهما من الظالم والقوي:فقد أتاح القرآن ملجأ شرعيا هاما لجميع المستضعفين والمظلومين في أنحاء المعمورة وجعل الدفاع عن المظلوم والمستضعف من الوظائف الواجب فعلها على المسلمين فردا وجماعة من غير أن يكون هناك طموحات استغلالية أو مطامع استعمارية أو مناورات سياسية كما تجده عند مدافعي حقوق الإنسان المعاصرين (؟!) بل الكل للحق ومن الحق وإلى الحق. ولهذا أخذ الدفاع عن المظلوم -لا عن دمه فقط بل عن دمه وعرضه وكرامته- محلا رئيسيا له في الفقه الإسلامي تحت عنوان **باب الصيال** ويرى الفقه الإسلامي - انطلاقا من النصوص حول إغاثة المظلوم الثابتة في الكتاب والسنة التي سنذكر بعضا منها- أن المسلم إذا لم يدافع عن المظلوم يعصى ويأثم ويستحق العذاب الأليم.

فمن تلك النصوص:﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ [٤٤٩]، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلاً عَمَّا

(٤٤٩) النساء، ٤/٧٥.

يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [٤٥٠]، ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [٤٥١] ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾.[٤٥٢] ﴿ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ .[٤٥٣]

كما نجد تلك الحقيقة الناصعة والسمة الحضارية القرآنية التي هي من أكثر الأمور تحريكا للعجلة الحضارية تتجلى كواقعة حياتية -لا مثالية تبقى بين الخياليات المرغوبة والأحلام الحلوة- على لسان **الصديق** رضى الله عنه في أول خطبته التي ألقاها حينما انتخب خليفة للمسلمين وهو كأول خطوة إجرائية في خلافته قال: "**أما بعد: فإني وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله لا يدع قوم**

(٤٥٠) إبراهيم، ١٤/٤٢.

(٤٥١) هود، ١١/١٠٢.

(٤٥٢) هود، ١١/١١٤.

(٤٥٣) فاطر ٣٥/٣٧.

الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فـــإذا عصيـــت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم". [٤٥٤]

وإذا لوحظ مجموع النصوص القرآنية الواردة في الجـــهاد وأحكـــام الذمة ومجموع الأحاديث النبوية وتطبيقات الخلافة الراشدة فيما بعد علم يقينا أن أهم مهام مشروعية الجهاد في الإسلام ليس هو حمل الناس علـى الدين قسرا وعدوانا أو استغلال خيرات الآخرين قهرا وعنفا بل إنما هـــو رفع الظلم بين العباد وتطهير وجه البسيطة من الجور والفساد ومنع ظلـم الغاشمين وحيف المستبدين؛ ويبدو هذا الملحـــظ الجليـــل مـــن خـــلال توجيهات النص الأول مما قدمناه بدون لبس وغموض كما يبـــدو ذاك الأدب الرفيع من خلال التوجيهات المضمنة لأولى آية أذنت للمســلمين بالقتال في سبيل الله [٤٥٥]: ﴿ وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا

(٤٥٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩، ص ٤١٥.

(٤٥٥) إن المشهور بين الناس أن أول آية نزلت في القتال هي لآية التاسعة والثلاثون من ســورة الحج وهي قوله تعالى "**أذن للذين يقاتلون.**" لكن بعض أهل العلم يرى أن أول آية نزلـــت الآية المائة والتسعون من سورة البقرة:: **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقـــاتلونكم...**انظـــر الشوكاني، فتح القدير، ج ١، ص ١٨٦.

تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾.[٤٥٦]

٨-الأمن والأمان العام والسلام التام

إن من أهم مظاهر هذا الأمن الوارف الذي توفره الحضارة القرآنية على من استظل بظلها حقن الدماء وحفظ الأموال والعروض والفروج إن على المستوى الفردي أو على المستوى الجماعي فتأكيدا على ضرورة الحفاظ عليهما أتى القرآن في باب التشريع في كلا المجالين بما لا مزيد عليه من الأوامر الناهرة والشرائع الزاجرة. ومن هنا حرم الربا والرشوة وأكل أموال الناس بالباطل والغش وأوعد القاتل بالنار المخلد إلى جنب القصاص: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةًۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٤٥٧] ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ

(٤٥٦) البقرة ٢/١٩٠.

(٤٥٧) آل عمران ٣/١٣٠.

وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [٤٥٨] ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [٤٥٩] ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [٤٦٠] وأتى بأثقل الجزاء لمن يسعى في الأرض بالفساد كي يكون عظة وعبرة لغيره: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَـٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾. [٤٦١]

لقد أتى القرآن لتلك الجرائم التي تهدد أمن البلاد في الأموال والدماء والأعراض بعقوبات ثقيلة كأشد ما يكون وحكمة الإسلام في تشريع هذه العقوبات الثقيلة الباهظة هي أن مهمة العقوبات والحكمة التي شرعت هي من أجلها الزجر والردع وذلك إنما يتيسر بتثقيل العقوبات فكلما كانت أثقل كانت أزجر وكلما كانت أزجر كانت أنجح وأنجع

(٤٥٨) البقرة ٢/١٨٨.

(٤٥٩) النساء، ٤/٩٣.

(٤٦٠) البقرة، ٢/١٧٩.

(٤٦١) المائدة، ٥/٣٣.

في إصلاح المجتمع وتوفير الأمن على الناس. وإلى هذه الحقيقة يشير قول سبحانه: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [٤٦٢] نعم إن للناس في شرعة القصاص حياة لأنهم لا يرتجرون عن القتل إلا بالقتل لا غير. ولعل في توجيه الخطاب إلى أولي الألباب إشارة إلى أن كون القصاص حياة للناس حقيقة لا يفهمها إلا أولو العقول الناضجة الكاملة أما البسطاء السذج من الناس المغرورون بعقولهم وفهومهم فهم بمعزل عن إدراك تلك الحقيقة الناصعة الساطعة لأنه ليس عندهم معيارية تردهم إلى الرشد والصواب ولا مرجعية تأخذ بأيديهم إلى السداد.

وحيث فهم بعض من الدول المتطورة هذا المغزى تراها تشدد كثيرا من عقوباتها فوق العادة كي تكون رادعة زاجرة ولعل هذا هو سر نجاح كثير من النظم الغربية في إجراآتها وسياساتها في باب الأمن وغيره.

ثم إن للقرآن منحى آخر في تربية الناس على رعاية قواعد الأمن والأمان في المجتمع هو تنشأتهم على روح التقوى والخشية من الله سبحانه وملاك الأمر كله تقوى الله فأي قلب رسخ فيه معاني تقوى الله وحبه والخشية منه سبحانه كفته ذاك رادعا وزاجرا بدون حاجة إلى رجال أمن

أو شرطة أو عسكري يحرس ويرعى فإذا لاحظت حياة مؤمن استولت مشاعر الإيمان والتقوى على قلبه ونفسه ورأيت عن كثب كيف يتجنب لا عن المحرمات فقط بل عن المكروهات وعن جميع ما فيه أدنى ضرر بالغير أو تعد على حقوقه لرأيت العجب العجاب وأخذت الدهشة منك كل مأخذ لأنك سترى فيه احتراما عجيبا للآخرين وتجنبا لا عن الإضرار بالناس فقط بل حتى عن الإضرار بالبهائم والحشرات أيضا وليس أدل على ذلك من هذا التوجيه النبوي الكريم: "**إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليرح أحدكم ذبيحته وليحد أحدكم شفرته**".رواه مسلم.

خاتمة

إن عالمية القرآن من القضايا التي توفر عليها جميع الأدلة المقبولة عند المسلمين سلفا وخلفا من كتاب وسنة وإجماع أمة وقياس وحكمة.

إن من أهم ما يثبت عالمية القرآن في هذه الدنيا المعاصرة التي تعتمد على الملحوظات التفكيرية والاتجاهات العقلية والتوجيهات المنطقية أكثر من غيرها هو ما يحتوي عليها القرآن من تلك المعاني السامية النبيلة والكمالات الجليلة والفضائل العظيمة والطاقات الغزيرة لإسعاد الناس في كلتا الدارين ومما يعطيه للإنسانية من تقدير واحترام وتوازن كامل بين الروح والمادة وما يتفرد به مما يعطيه للمؤمنين به حقا من تلك التربية الدقيقة المتكاملة في معاملاته مع الكون والانضباط الخلقي في ملابساته مع الآخرين ومما يرسخه في المجتمع من ذلك الأمن والأمان التام والسلم والسلام الشامل والعدل والرخاء الكامل ومما يتوحد به من رعاية وحماية حقوق جميع ذوات الأحياء من الناس والحيوانات وغيرها وما أسسه من ذلك النمط الفريد لبناء الأسرة وحفظها من كل المفسدات والمخربات إلى غير ذلك مما أتي به القرآن لإسعاد الناس دينا ودنيا. فلا ترى بين المسلمين من يتجرأ - رغما من جميع تلك الأدلة القوية التي يكفر في المنظور الإسلامي من ينكرها - على التفوه بهذه القضية الخطيرة التي

تطيح بدين المرء وعقائده تماما إلا من استخف بدينه و لم يخش من ربه ولم يهتم بأمر عقيدته ولهث تقليدا وتشبها خلف أعدائه تلقيا لفتات مائدته! فيا له من ذل مهين وخزي مبين!

لا تنس أن الغرب يسعى بجميع ما أوتي من قوة وقدرة مستعملا جميع ما لديه من عِدة وعُدة لنشر الديمقراطية التي تراها من منتجاتها الفكرية مدعيا في ذلك الصدد أن النظام الديمقراطي أفضل النظم البشرية محتجا على ذلك بما تحتوي عليه من بعض الحريات ورعاية بعض الحقوق مما لا نعارضه ولا يعارضه أي مسلم متفهم لحقيقة الأمر. ولكن لا يقف الغرب عند حد ادعاء الأفضلية بل يتعداها بكثير فيدعي الغرب عالميتها وأنها النظام الفريد لصالح البشرية. فيا ترى هل تحتوي الديمقراطية على شيء آخر من سوى توفير بعض الحريات للناس ورعاية بعض حقوقهم وإعطاء الفرص المتساوية لهم ومنح الحقوق السياسية لهم وجعلهم سواء أمام القضاء؟ هل ترى الديمقراطية تتضمن أكثر من هذا؟ مع أن الربع الأخير من القرن العشرين أثبت لكل بصير وخبير مدى تمسك القائمين على الديمقراطية بمبادئ حقوق الإنسان وحماية الكرامات ورعاية حقوق الأبرياء. لقد كتب الغرب نفسه في هذا الربع على جبينه من الخزي والعار ما لا يمحى منه أبدا. ولكن القوم تراهم يعجون ويضجون رغما من جميع تلك الفضائح والمظالم بأن نظامهم هو النظام العالمي الفريد في

هذه الدنيا! فهل ترى السر في ذلك هو أنها أفضل النظم حقيقة؟ لا والله! بل السر في ذلك قوة متبنيها! قاتل الله القوة من ظاهرة سحرية تأسر العقول والقلوب!

كما أن السر في جعل بعض العقول المستأجرة والأفكار المحتلة عالمية القرآن موضع النقاش والمراء ليس ضعف رسالة القرآن عن متطلبات بني البشر الفكرية والعلمية والسياسية والإدارية وعدم وفائها بحاجات هذا العالم الجديد التشريعية والتنظيمية والحقوقية بل السر في ذلك هو ضعف المسلمين في مجال القوة وفقرهم في الثروة. قاتل الله الفقر والضعف من ظاهرتين مشينتين!

ومن جراء ما تعانيه الأمة الإسلامية من الجهل الفاضح والفقر المدقع مما جعلهم في دوامة التطفل والتبعية للغير لا تجد للمسلمين لا على الصعيد الإقليمي ولا على الصعيد العالمي ما يبين من الوسائل الإعلامية القوية عن اتجاهات دينهم الحنيف ويظهر تحدياته العظيمة للعالم المعاصر بشتى طاقاته الروحية والفكرية والتشريعية والتنظيمية حتى يبدو لكل من هب ودب وجهه الحقيقي الناصع وتظهر شمولية رسالاته الخالدة ووجه رحمتها لهذا العالم البائس الدائخ تحت معاول الحضارة الغربية المادية الوضعية. فالعالم ينتظر رحمة تنقذه من هذه الفتن القاتلة وليست إلا في الإسلام فعسى أن يكون بزوغ فجر الإسلام قريبا.

اللهم إنا قصدنا الذب عن كتابك والخدمة لكلامك -وإن كان في غنى عنا- فإن أصبنا فهو بمحض فضلك وكرمك وليس عن استحقاق منا ألبتة وإن جانبنا الصواب فذاك من تقصيرنا - والتقصير جزأ لا يتجزأ من طبيعتنا وجبلتنا - فنسألك التجاوز والصفح عنها وأن تهب مساوئنا وهو الكثير منا لحسناتنا وذاك القليل النادر منا فلك الحمد أولا وآخرا، دائما سرمدا والصلاة والسلام على نبيك محمد الذي أنزلت عليه كتابك وعلى آله وصحبه

المراجع العربية

القرآن الكريم.

إبراهيم أبي إسحاق بن موسى الشاطبي، **الموافقات في أصول الشريعة**، تحقيق اللجنة، دار الكتب العلمية، بيروت بلا تاريخ.

أحمد بن حبان البستي، **الصحيح**، تحقيق شعيب الأرناوط وحسين أسد، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٤.

أحمد الصديقي البرسوي، **ميزان الانتظام شرح الرسالة الشمسية**، مطبعة عامرة إستانبول ١٣٠٥.

أحمد حسن فرحات، **الأمة في دلالتها العربية والقرآنية**، كلمة نشرت ضمن مؤتمر الحضارة الإسلامية ودور الشباب المسلم، المنعقد في الرياض، الطبعة الثانية، الرياض ١٤٠٥/١٩٨٥.

أحمد مصطفى المراغي، **تفسير القرآن الكريم**، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الخامسة، مصر ١٣٩٤/١٩٧٣.

إسماعيل أبي الفداء ابن عمر بن كثير، **البداية والنهاية**، تحقيق عبد الله التركي، الطبعة الأولى، دار هجر ، إمبابة، ١٤١٨/١٩٩٨،

تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت

١٩٦٩

الحارث بن أسد المحاسبي، **فهم القرآن**، تحقيق حسين القوتلي، دار الكندي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢/١٩٨٢.

إسماعيل بن مصطفى الكلنبوي البرهان، مطبعة درسعادت إستانبول ١٣٠٦.

الفضل بن الحسن الطبرسي، **مجمع البيان في تفسير القرآن**، دار الفكر، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٦

برنارد لويس **لغة الإسلام السياسية**، ترجمه إلى التركية فاتح ياشار، إستانبول ١٩٩٢.

سعيد بشار، **المصطلح خيار لغوي وسمة حضارية**، الطبعة الأولى سلسلة كتاب الأمة رقم ٧٨ تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالدوحة قطر ١٤٢١/٢٠٠٠.

سيد قطب، **في ظلال القرآن**، دار الشروق، الطبعة الثانية عشرة، بيروت ١٩٨٦.

شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، **بدائع التفسير،الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية** جمع يسرى السيد محمد، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى المملكة العربية السعودية ١٤١٤/١٩٩٣.

صبحي الصالح، **مباحث في علوم القرآن**، الطبعة الثامنة، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٤.

صلاح عبد الفتاح الخالدي، **مفاتيح التعامل مع القرآن**، مكتبة المنار، الطبعة الأولى، الأردن ١٤٠٦/١٩٨٥.

طه جابر العلواني، **مدخل كيف نتعامل مع القرآن** لمحمد الغزالي، الطبعة الأولى، فيرجينيا الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٩١.

حاكمية القرآن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤١٧/١٩٩٦.

عبد الحق بن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت ١٤١٣/١٩٩٣.

عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، **الدر المنثور في التفسير المأثور**، دار الفكر، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٣

قطف الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة، المكتب الإسلامي، ١٤٠٥/١٩٨٥.

الإتقان في علوم القرآن، مطبعة البابي الحلبي،الطبعة الثالثة مصر ١٣٧٠/١٩٥١

عبد الكريم الخطيب ، **التفسير القرآني للقرآن**، دار الفكري العربي، بلا تاريخ.

عبد الله أبي ناصر القاضي، **أنوار التتريل وأسرار التأويل**، مكتبة الحقيقة، إستانبول ١٩٩١.

علي بن علي بن محمد بن أبي العز، **شرح العقيدة الطحاوية**، تحقيق عبد الله محسن التركي وشعيب الأرناوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٩٣/١٤١٣.

علي بن أبي بكر الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، مؤسسةالمعارف، بيروت ١٩٨٦/١٤٠٦.

علي بن محمد أبي الحسن الماوردي، **النكت والعيون**، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٢.

علي بن محمد بن إبراهيم الخازن، **لباب التأويل في معاني التتريل**، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، مصر ١٩٦٤.

كتاب المؤتمر الذي طبعته شركة سوزلر للنشر القاهرة. ١٩٩٨.

محمد أحمد مفتي، سامي صالح الوكيل،**النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية دراسة مقارنة**، سلسلة كتاب الأمة يصدرها رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر، الطبعة الأولى ١٤١٠.

محمد أسد، **الإسلام على مفترق الطريق**، ترجمة عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٧.

محمد الطاهر الميساوي، مقدمة **مقاصد الشريعة الإسلامية**.

محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، الدار التونسية، تونس ١٩٨٤.

مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق محمد الطاهر الميساوي، دار الفجر، دار النفائس، الطبعة الأولى، ١٤٢٠/١٩٩٩.

محمد الغزالي، **كيف نتعامل مع القرآن** الطبعة الأولى، فيرجينيا الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٩١.

محمد القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٥

محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان عن تأويل آى القرآن**، دار الفكر، بيروت ١٩٨٨.

محمد بن جعفر الكتاني، **نظم المتناثر من الحديث المتواتر**، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، بيروت ١٤٠٧/١٩٨٧.

محمد بن حبان البستي، **الصحيح**، تحقيق شعيب الأرناوط وحسين أسد، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٤.

محمد بن عبد الله الحاكم، **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٠.

محمد بن علي الشوكاني، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، مصر ١٩٦٤

محمد بن عمر أبي عبد الله فخر الدين الرازي، **التفسير الكبير**، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، طهران بلا تاريخ.

محمد بن مخلوف الثعالبي، **جواهر الحسان في تفسير القرآن**، مؤسسة الأعلى، بيروت بلا تاريخ.

محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي، **البحر المحيط**، دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٩٨٣/١٤٠٣.

محمد جمال الدين القاسمي، **محاسن التأويل**، دار الفكر الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٨.

محمد حسين الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن**، مؤسسة إسماعليان، الطبعة الثانية، ١٩٧٢

محمد خليل جيجك، **ثراء المعنى في القرآن الكريم**، دار السلام، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٩/١٤١٩.

دلالة أسماء سور القرآن الكريم من منظور حضاري، الطبعة الأولى مؤسسة الرسالة بيروت ٢٠٠١/١٤٢١.

أضواء على سورة الملك ويليه بعض جوانب الضعف الإنساني في أربع آي من سورة العنكبوت، إسطنبول ١٩٩٤.

محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، دار المعرفة، الطبعة الثانية، بيروت بلا تاريخ،.

محمد صديق حسن خان القنوجي، **فتح البيان في مقاصد القرآن**، دار إحياء التراث الإسلامي، قطر ١٤١٠/١٩٨٩، ج ١٢، ص ٧٣.

محمد عبد الحق بن غالب بن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت ١٤١٣/١٩٩٣.

محمد عبد القادر عطا،مقدمة تخريج كتاب الأدب المفرد، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٠-١٩٩٠،

محمد عبد الله دراز، **دستور الأخلاق في القرآن**، تعريب عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة،بيروت ١٤٠٢-١٩٨٢

مدخل إلى القرآن الكريم عرض تاريخي وتحليل مقارن،ترجمة محمد عبد العظيم علي دار القلم الكويت ١٤٠٤/١٩٨٤.

محمد فخر الدين بن عمر الرازي، **التفسير الكبير**، دار الفكر، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٠١/١٩٨١.

محمد محمود حجازي، **التفسير الواضح**، دار التفسير، الطبعة السابعة، القاهرة ١٣٩٩/١٩٧٩.

محمود شهاب الدين الآلوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الرابعة، بيروت ١٩٨٥.

محي الدين أبو زكريا يحيى النووي، **شرح صحيح مسلم**، دار الفكر، بلا تاريخ.

مراد هوفمان، **الإسلام كبديل** ترجمة غريب محمد غريب، الطبعة الثانية، الرياض ١٤١٨-١٩٩٧.

يوسف القرضاوي، **المرجعية العليا للقرآن والسنة**، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت ١٤١٤/١٩٩٣.

الدوريات

البيان العدد ١٥٥ السنة الخامسة عشر رجب ١٤٢١ أكتوبر ٢٠٠٠.

التجديد إخراج الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا عام ١٤١٧/١٩٩٧.

الجديد- مصر، العدد ٢٦ ،فبراير ١٩٧٣.

نهج الإسلام –سوريا، العدد ٦٧-٦٨، ذو الحجة ١٤١٧، نيسان ١٩٩٧.

المراجع الأجنبية

Mehmed Paçacı **Kur'an ve Ben ne Kadar Tarihseliz İslami Araştırmalar** c. ٩. sayı ١.٢.٣.٤ sh. ١١٩-١٢٠.

Ali Bulaç Kuranı Okuma Biçimi olarak Hermonotik İslami Araştırmalar c. ٩ sayı ١ ٢ ٣ ٤ . ١٩٩٦.Ankara